

عَقْدٌ فِي جِفنِ الرَّدَى

قصة إنسان تحت سطوة السجان

لؤلفه

الأسير المحرر والمبعد

أ. محمد سعيد عزام

"أبو عادل"

الطبعة الأولى

1442هـ - 2020م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**خالص الشكر والتقدير لوزارة الأسرى والمحربين
على رعايتهم طباعة الكتاب ودورهم الرائد
في خدمة إخوانهم الأسرى والمحربين**

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة - الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

سعيد عزام، محمود

عقد في جفن الردى

محمود سعيد عزام. - غزة: مكتبة ومطبعة دار الأرقم، نوفمبر 2020م.

(320) ص، 25*17.6 سم

رقم الإيداع: 2020/1441

جميع حقوق المؤلف محفوظة لدى دار الكتب الوطنية والمكتبات بوزارة الثقافة
رقم الإيداع: 2020/1441م، بتاريخ 26 ربيع الأول 1442 هـ - 12 نوفمبر 2020م.

تصميم وتنسيق

م. أحمد مصطفى أبو عجوة

إهداء

.. إلى الذين طُويت أعمارهم طياً وهم يقضون زهرة شبابهم خلف القضبان،
من أجل الله ﷻ أولاً؛ ثم من أجل دينهم ومبادئهم وأفكارهم وأوطانهم.

.. إلى الأسرى وذويهم، الذين دفعوا ثمناً باهظاً؛ بعد أن ذاقوا ولا زالوا
يذوقون مرارة الطريق، ولوعة الفراق.

.. إلى الذين قلبوا الموازين، وغيروا المعادلات، وأثبتوا للعالم كله؛ أن
خلاص الأسير من معتقله؛ لا يكون إلا عبر المقاومة والمقاومين من ذوي
الأيدي المتوضئة، والقلوب النظيفة، وأصحاب السرائر النقية.

.. إلى القابضين على الزناد.. الساهرين على أمن البلاد.. الرافعين لواء
الجهاد.. الهاتقين بحناجرهم نحو الأمجاد؛ بالأفعال لا بالأقوال، أن القيد لا
يمكن أن يُكسر إلا بالجهاد.

إن ألفي قذيفة من كلام لا تساوي قذيفة من حديد

.. إلى مشايخنا.. إلى قادتنا وعلمائنا الذين كان لهم الفضل علينا بعد
الله ﷻ ..

.. إلى والدي الحبيب ووالدتي الحبيبة - رحمهما الله تعالى - اللذين
عانيا معي طيلة فترة الأسر، بعد أن عاشا معي قسوة الفراق يوم أن كنا

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

فوق ذرى (الهندوكوش) في أرض الجهاد أواخر العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

.. إلى زوجتي وأولادي الذين تحملوا عبئ المعاناة، وتبعات التنقل من بلد إلى بلد، طيلة سنوات الغربة، فضلاً عن تحمل أعباء سنوات الأسر.

.. إلى إخوتي.. إلى أخواتي.. إلى كل من له فضل عليّ..

.. إلى أخي الحبيب م. أحمد أبو عجوة "أبو مصطفى"، الذي كان له دوراً كبيراً في إخراج وتنسيق وتصميم هذا الكتاب.
.. إلى هؤلاء جميعاً.. أهدي ثواب هذا الجهد.

المؤلف/أ. محمود سعيد عزام

غزة-الشاطئ 16 ربيع أول 1442 هـ

الموافق 2020/12/01م

تَقْرِيزٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين أما بعد:

إنه لمن دواعي سروري وفخري واعتزازي أن أقدم هذا التقرير المتواضع لكتاب (عقد في عين الردى) لأخي الحبيب في الله اللواء المتقاعد: أ. محمود سعيد عزام "أبو عادل" حفظه الله، الرجل الذي قهر المحقق والسجن والسجان الصهيوني المحتل، ولم يعترف ولو بكلمة تدينه على مدار اثنتي عشرة سنة، على الرغم مما تعرض له من ألوان شتى من القهر والتعذيب والتغييب خلف القضبان في غياهب سجون الاحتلال ظلمًا وعدوانًا، ليكون صاحبنا اللواء أبو عادل، صاحب أول تجربة فريدة من نوعها على ما نعلم منذ سنة 1967م وحتى اللحظة من سني الاحتلال الصهيوني الزائل حتمًا وقريبًا بإذن الله.

فصاحبنا المؤلف الذي تقلب في المنافي والشتات تاركًا رغد الحياة، مهاجرًا إلى الله ورسوله من بلد إلى بلد، حاملاً روحه على كفه، دفاعاً عن دينه ووطنه وأرضه ومقدساته، من الرجال الذين عرفتهم عن قرب، الذين تعجز الكلمات عن وصفهم، أو أن توفيهم حقهم، فهو رمز للأخلاق العالية، والفهم العميق، والإيمان الراسخ، والعقيدة الصافية، والأخوة الصادقة، والتربية الإسلامية الجهادية السليمة، والتضحية والثبات، والبذل والعطاء، وهو رمز للوفاء والثقة، والجهاد المتواصل، والصبر والمصابرة ممن عملوا ويعملون

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

بصمت، ثبتوا على الحق رغم كل العقبات والمحن التي مروا بها، والتي تنوء بحملها الجبال الرواسي، فهو بحق من الرجال الرجال، الذين أينما حلوا نفعوا، وكيف لا يكون كذلك وهو من جنين القسام، البلدة التي احتضنت وآوت إليها أيقونة الجهاد والمقاومة في فلسطين، شيخ المجاهدين، الشهيد: عز الدين القسام، وخاله الشهيد الذي لا يشق له غبار، القائد الداعية القدوة العالم المجاهد الفذ الشهيد: د. عبد الله عزام (نحسبهم جميعاً كذلك ولا نزكي على الله أحداً) خيار من خيار، تركوا النعيم، وركبوا الصعاب، خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً.

تركوا الدنيا وخافوا الفِتْنا

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فِطْنًا

أَنهَا لَيْسَتْ لِحَرٍّ وَطَنًا

نظروا فيها فلمَّا عَلِمُوا

(1) صَالِحِ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنًا

جَعَلُوهَا لِحِجَّةٍ وَاتَّخَذُوا

اطلعت على هذه التجربة التي كتبها صاحبنا اللواء (أبو عادل) في هذا الكتاب المختصر، الذي أسماه "عقد في جفن الردى" جمع فيه نموذجاً فريداً من نماذج الصمود والتضحية والفداء التي تحكي قصة معاناته فرداً تقلب فيها من الاعتقال إلى الإبعاد، مروراً بألوان شتى من التجربة الاعتقالية الفريدة من نوعها، وفي الحقيقة هي معاناة أمة فلسطينية محتلة ومضطهدة، أمة تعاني أبشع أنواع الاستعمار، الاحتلال الصهيوني الذي يتصرف ككيان إرهابي مصاص للدماء، يغتصب الأرض ويدنس المقدسات، ولا يقيم وزناً

1 (أبيات للإمام الشافعي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لإنسانية ولا قانون، ولا يعرف إلا لغة القوة للجمه ودحره وإجلائه عن أرضنا ومقدساتنا.

وبدون الخوض في التفاصيل، فإن هذا الكتاب يترجم جزءاً يسيراً من بشاعة الاحتلال الصهيوني، وفصولاً من بعض ما عاناه ويعانيه ولا يزال يعانيه الشعب الفلسطيني في الداخل والشتات من فظائع جرائم هذا المحتل الغاصب، سطرها بمداد معاناته ليستفيد منها الجيل القادم، ويستخلص الدروس والعبر والعظات، وليعلم أن الاحتلال أوهن من بيت العنكبوت، يركع أمام صمود وثبات المجاهدين الصادقين.

إنني أدعو إلى قراءة هذا الكتاب، والتمعن فيه، والاستفادة منه، فهي تجربة عملية فريدة بحق، وفائدة عظيمة، فاحرص أيها القارئ على ألا تفوتك أو تضيع منك، تجربة يمكن أن تدرس للأجيال. أتذكر أنني استقدت منها عندما كلفت وزيراً للأسرى والمحربين في السلطة الفلسطينية ما بين الأعوام 2008م - 2012م وأثناء متابعتي لموظفي الوزارة وأدوارهم، سألت المستشار القانوني للوزارة إن كان قد وثق أي شيء من جرائم الاحتلال بحق الأسرى منذ احتلاله لفلسطين؟ الذين يفوق عددهم - في حينه - أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً من أسرانا البواسل الذين دخلوا سجون الاحتلال، قد مارس الاحتلال بحق كل واحد منهم جريمة حرب أو أكثر، فالاحتلال مجرم حرب، ارتكب كل الجرائم الدولية المنصوص عليها في ميثاق روما، فلما وجدته لم يوثق أي جريمة، كلفته بتوثيق عشرين جريمة حرب على الأقل

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

في ذلك العام من جرائم الاحتلال الصهيوني بحق أسرانا البواسل، وعلى أن تكون مكتملة الأركان ووفقاً للمعايير الدولية، مثل: جرائم اختطاف الأطفال، أو النساء، أو كبار السن، أو الجرحى، أو المرضى، أو جرائم التعذيب، أو جرائم الإبعاد، أو جرائم الاعتقال الإداري، أو جرائم الانتهاكات العامة لحقوق الأسرى وذويهم وفقاً للقوانين والمعاهدات الدولية... إلخ.

وقلت له: تستطيع أن تبدأ برجل أسير محرر قد مارس الاحتلال بحقه وحده ثلاث جرائم حرب، ولن تجد عناء في البحث عنه، فهو بيننا في الوزارة، إنه الأخ اللواء أ. محمود سعيد عزام (أبو عادل) صاحب هذا الكتاب، وهذه الجرائم هي:

جريمة الحرب الأولى:

جريمة الاعتقال لمدة اثنتي عشرة سنة، بلا أي تهمة ولا حتى اعتقال إداري، وإن كان هذا الاعتقال الإداري - أيضاً - بحد ذاته جريمة حرب.

جريمة الحرب الثانية:

جريمة التعذيب بألوانه الشتى، وحرمانه من حقوقه كأسير وفقاً للقوانين الدولية.

جريمة الحرب الثالثة:

جريمة الإبعاد، حيث رفض الاحتلال الإفراج عنه ليعود إلى بلده ومسقط رأسه في جنين، وأجبره على الإبعاد إلى قطاع غزة، وهي جريمة مصنفة في القانون الدولي - أيضاً - نوعاً من أنواع جرائم الحرب.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

هذا غيض من فيض مما سطره هذا الجبل الشامخ في كتابه هذا، وذكر
اليسير من معاناته وتجربته الاعتقالية التي عاناها، وما يزال يتجرع ألمها
وَألم الإبعاد.

وأفخر أنني أكتب هذا التقرير، كشهادة للتاريخ، أشعر أن أداءها واجب
في عنقي، داعياً الله من سويداء قلبي أن تكون في ميزان حسناته، وأن ينفع
بكتابه هذا الإسلام والمسلمين، قاصداً وجه الله تعالى، داعياً له ولنا أن
يرزقنا الثبات على الحق في الدنيا والآخرة، وأن يحسن ختامنا، ويرزقنا ومن
نحب الفردوس الأعلى من الجنة، مع النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يرزقنا نعمة النظر إلى وجهه الكريم،
والله الموفق لكل خير.

المستشار/أ. محمد فرج الغول

وزير الأسرى والمحربين السابق

غزة - فلسطين

مقدمة

بدايةً؛ لأبد لي من كلمة لعلّي أرسم من خلالها للقارئ الكريم صورة واقعية عن مسيرة مريّة، ورحلة شاقة، ومرحلة عصيبة، اقتطعت من عمري الزمني إثني عشر عاماً، غابت كلها في أحشاء سجون الاحتلال الصهيوني.

هذه المسيرة؛ ابتدأت خطاها حثيثاً؛ بأحاسيس ومشاعر وحنين نحو الوطن، منذ الأيام الأخيرة التي قضيت مثلها فوق جبال (الهندوكوش)⁽¹⁾، معمدة بالعرق والدم؛ بعد أن فارقت أحبة لي غابوا تحت الثرى، وأحياء منهم، لا زالوا يؤدون واجباً دينياً وأخلاقياً هناك، ومروراً بتحمل تبعات الطريق؛ أثناء العودة إلى أرض الوطن، وما تلاها من أحداث جسيمة، ومعاناة أليمة، عشتها على الساحة الاعتقالية، وانتهاءً بتتسمي نسمات الحرية، رغم مرارة الإبعاد القسري عن مسقط رأسي.

لقد توقفت كثيراً قبل أن أشرع في الكتابة عن قضية، هي من القضايا الفريدة على مستوى المعتقلات، ومرحلة عصيبة؛ هي من أشد المراحل في حرق الأعصاب، فترددت كثيراً مرةً تلو الأخرى أن أقتحم هذا المعترك، نظراً لتشعبه، وكثرة تفاصيله، إلا أن الدوافع الداخلية، والضمير الحي، والأمانة الدينية والإنسانية، وتشجيع بعض الإخوة من حولي؛ كان الدافع الرئيس الذي كان يدفعني نحو توثيق هذه الفترة الزمنية، التي عشتها وعاشها أسرى آخرون مثلي، فقلت في نفسي والهواجس تلاحقني:

1 (سلسلة جبال عالية في أفغانستان.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لعل كاتباً من الكتاب، أو شاعراً من الشعراء، أو أديباً من الأدباء، يجد ضالته في مثل هذه المأساة، فيكتب عن موقف من المواقف المؤلمة، أو عن مقطع من المقاطع المحزنة، التي قد يلتقطها من رحم هذه المعاناة، فيصيغها على شكل قصة من القصص كنموذج يتربى عليه جيل من الأجيال..

أو سينمائياً قد يخرج فيها مرثاة، يمكنها أن تصب في تغذية الجانب الفني الفلسطيني..

أو روائياً، أو غير ذلك من الجوانب التي يمكن أن تسهم في إظهار سلوك هذا المحتل البغيض، أمام الرأي العام العالمي..

أو أناساً ممن يلاحقون الاحتلال عبر المحاكم الدولية، فيبرزون سوءة هؤلاء الصهاينة، ويفضحون أساليبهم الإجرامية، التي يرتكبونها بحق هذا الشعب الأعرل.

أقول: وما بين الحبل والغارب، قطعت الشك باليقين، فقررت أن أكتب عما كنت أعانيه من آلام، أنا وأهلي وأولادي، كنموذج من عذابات الأسرى، طيلة هذه الفترة الزمنية..

بل آمنت بهذه الفكرة، وأصبحت أنادي بها، وأدعو لها كل أسير، بأن يحذو حذوي، وأن يكتب كل واحد منهم تجربته ومعاناته مهما كانت هذه التجربة، ومهما كانت قيمتها بسيطة من وجهة نظره؛ لأنه في نهاية المطاف ستبقى جزءاً لا يتجزأ من هذا التراث، وملكاً للأجيال القادمة.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

ولربما يتطرق صاحب تجربة لموقف واحد من هذه المواقف فيستثمره آخرون، فيكون له أثر كبير على الجانب التربوي والفني، فيصب في مصب تراث الأسير الفلسطيني.

وحتى تكون الصورة واضحة وقريبة لذهن القارئ الكريم؛ كان لا بد لي من رسم خارطة طريق؛ تشرح له خلاصة ما تناولته في هذا الكتاب عبر نقاط عدة:

النقطة الأولى:

إنَّ مناسبة تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم؛ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآلام الفترة التي عانيتها وقضيتها داخل سجون الاحتلال، لتحمل تلك المرحلة العسيرة، هذا العنوان الكبير لهذا الكتاب: (عقد في جفن الردى)⁽¹⁾، الذي يعني عشر سنوات في جفن الموت.

النقطة الثانية:

ابتدأت هذا الكتاب بقصة مشوقة للقارئ الكريم، مليئة بالمشاعر والأحاسيس المؤلمة الحقيقية، لعلها تلخص معاناتي بالمختصر المفيد.

النقطة الثالثة:

نهجت في هذا الكتاب، نهجاً زمنياً حسب التسلسل التاريخي، منذ أن نويت العودة إلى أرض الوطن؛ حيث حاولت أن أسرد بعض الأحداث التي

(1) مدة فترة الأسر كانت إثني عشر عاماً. لقد أحببت أن أعنون هذا الكتاب بهذا الاسم: (عقد في جفن الردى) أي عشر سنوات في جفن الموت، لأنني مكثت عشر سنوات في السجن بعد أن رفض وزير الأسرى الفلسطيني آنذاك استقبالي في غزة فضلاً عن السنتين السابقتين واللتين قضيتهما في عزل سجن الجملة.

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

حصلت معي لحظة بلحظة، منذ أن غادرت غربتي إلى أن وصلت مسقط رأسي، وما جرى بعدها من أحداث، وفي مقدمتها مرحلة الاعتقال، وما تلاها من مواقف.

النقطة الرابعة:

تناولت فيه بعض الأحداث التي جرت معي أثناء التحقيق وما تلاها من فترة إلقائي بين مخالب العصفير⁽¹⁾ - رغم قصرها - وما تبعها من مواقف أليمة وأحداث جسيمة، حدثت معي طيلة أول عامين من الأسر، وما جرى فيهما من عذابات لي ولأهلي وأولادي أثناء عزل سجن الجملة، ابتداءً بالسلاح الوحيد الذي كنت أدافع فيه عن نفسي، ألا وهو مجموع الإضرابات التي خضتها، سواء كان على المستوى الفردي أو الجماعي، وانتهاءً بمرارة الترحيل القسري إلى الأردن مرتين بكل تفاصيلهما.

النقطة الخامسة:

هذه مرحلة من المراحل الجديدة، وهي مرحلة ما بعد عزل سجن الجملة، وجملة التنقلات إلى السجون المركزية، ابتداءً من سجن عسقلان إلى سجن نفحة، ثم العودة إلى سجن عسقلان مرة أخرى، ثم إلى سجن السبع بأقسامه الأربعة، ثم إلى سجن نفحة بأقسامه، ثم إلى سجن مجدو، ثم إلى سجن شطة وانتهاءً بالمحطة الأخيرة في سجن نفحة، حيثُ حطَّت بنا الرحال هناك، وما أدراك ما هناك، حيث أننا بنا الترحال؛ بعد عذابات إثني عشر

1 (هو مصطلح أطلقه الأسرى الفلسطينيون على العملاء المندسين بينهم في سجون الاحتلال، ويعتبرون من أهم الزكائن التي تعتمد عليها مخابرات الاحتلال في انتزاع الاعترافات من الأسرى.

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

عاماً، كان منها سنتان على ذمة السلطة الفلسطينية، وعشر سنوات على ذمة (هشام عبد الرازق) وزير الأسرى الفلسطيني في حينها.

وقد حرصت حرصاً شديداً على الوقوف على بعض المحطات في كل سجن من السجون التي عشت فيها، وما جرى من أحداث مهمة؛ ذلك تشيئاً لتجربة الأسر التي عشتها، وكل ذلك من وجهة نظري الشخصية.

أقول: وما هي إلا أشهر قليلة في المحطة الأخيرة حتى أبرمت صفقة بين المحامية (سناء الدويك)، والنيابة العامة الصهيونية، فتم بموجبها إبعادي إلى قطاع غزة بتاريخ 2009/05/26م.

ولنا أن نسجل في هذا المقام الشكر والتقدير والعرفان لإخواني في قطاع غزة؛ على الاستقبال الحار الذي لقيته، وما تبعه من أحداث طيلة عقد آخر من الزمان، قضيتها بين إخواني في قطاع غزة؛ ولكنني لا زلت بعيداً عن الأهل والأولاد وعن مراتب طفولتي ونشأتي.

النقطة السادسة:

اختتمت كتابي هذا بخلاصة مختصرة، لخصت فيها الأحداث والمواقف التي واجهتني طيلة سنوات الأسر من بدايتها إلى نهايتها، موثقة بالتسلسل التاريخي.

وأخيراً؛

فإنني أدعو ذوي الفن بكل أشكاله، أن يدرسوا هذه التجربة بشكل جيد، فهي قابلة لعمل درامي وسينمائي مميز باعتبارها قضية فريدة من نوعها داخل سجون الاحتلال..

كما وأدعو الأدباء والشعراء والقصاص بأن يخرجوا من رحم هذه المعاناة قصصاً في عالم الأدب، خاصة وأنها مليئة بالأحداث والأحاسيس والمشاعر التي عانى منها الصغير والكبير، والذكر والأنثى.

وكلّي أمل أن يستفاد من هذه التجربة كنموذج لما يعانيه الأسير الفلسطيني وأهله بشكل عام.

وسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

المؤلف

أ. محمود سعيد عزام

غزة - الشاطئ 2020/12/01م



قصة ولا في الأحلام



قصة ولا في الأحلام

قصة عجيبة فريدة⁽¹⁾ من نوعها، لا أكاد أنساها ما حييت أبداً.

دخلت عليه وأنا أتمتع بهذه الكلمات، فاستغرب صاحبي..

سألني: ما هذه القصة العجيبة التي ما فتئت ترددها آناء الليل وأطراف النهار، وأصبحت شبحاً يطاردك ويقض مضجعتك؟

قلت له: لو تعلم يا صاحبي طرفاً من هذه القصة لعذرتني، ولكنني أعتب كل العتب على أصحاب الأقلام الصادقة التي لم تبرز مثل هذه القصة أمام الرأي العام العالمي؛ ليعلم أن الديمقراطية في هذا الزمن إنما هي فرية هذا العصر، يقصد منها الأنانية والتحكم بمصائر الشعوب المقهورة، وإلا، قل لي بربك كيف يسكت العالم كله على سحق جماجم الأطفال أو تكسير عظامهم في فلسطين دون أن يسمع لهم همساً، ولا يرى لهم ركزاً؟

قال صاحبي: مالي أراك تبتعد عن قصتنا، التي وصفتها بالغريبة العجيبة؟ هلا دخلت في موضوعك بشكل مباشر؟

قلت: والله يا أخي ما قصدت التهرب، ولكن المشاعر تتدافع، وإن الشجي يدفع الشجي، فالآلام هذه القصة، التي تتلهف لسماعها، إنما هي جزء بسيط ونموذج مصغر يعبر عن الابتلاء العظيم الذي يعيشه شعبنا العظيم منذ عشرات العقود من الزمن، ولكن لا بأس، فلنعد إلى قصتنا..

(1) هذه القصة هي جزء من قصتي الحقيقية كتبتها عام 2000م في سجن عسقلان بهذا الأسلوب لعلها تكون أكثر وقعاً على النفوس.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

فقد كنتُ ممن عاش محنة السجون، ورأيت ما رأيت من المصائب والآلام التي لا تعد ولا تحصى، وسمعت ما سمعت من القصص والأحداث ما تشيب له نواصي الولدان، ومهما تحدثنا ومهما كتبنا فلن نستطيع أن نصور الواقع على ما هو عليه، ولا نستطيع أن نسرد القصص والأحداث بآلامها وأحزانها.

ولكن؛ لنأخذ قصة عجيبة كنموذج لم أر له مثيلاً في واقع السجون الإسرائيلية، وهو كفيل بالرد الحاسم الجازم على فرية الديمقراطية، التي يتغنى بها المتفقيهون في العصر الحديث... تلك القصة التي حصلت معي بتفاصيلها وأحداثها، بآلامها وأحزانها.

تدخل صاحبي وقال: لقد استنفرت مشاعري، وهيجت عواطفِي، وحركت أحاسيسي، أما أن لك أن تبدأ وتحدثنا عما يجول في خاطرك؟؟

قلت: هل سمعت يا أخي قصة غوار الطوشة؟

وهل سمعت أغنية جسر الحديد انقطع من دوس رجلي؟

وهل فهمت معنى استقبال جلالة الملك وودع جلالة الملك؟

قال: أنت يا أخي تتحدث بالغاز، لم أفهم مقاصد هذه العبارات التي ذكرتها.

قلت: نعم أدرك أنه لا يفهم هذه العبارات إلا صاحب هذه القصة، وهي خلاصة القصة كلها، وها أنا سأبدأ معك لنتناول طرفاً منها.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

انتحيت جانباً بصاحبي، وبدأ يستمع إلى أحداث تلك القصة الغريبة العجيبة، وبعد فترة وجيزة من الزمن تفرس صاحبي بوجهي، ولسان حاله يقول: ما هذه القصة الطويلة التي لا تكاد تنتهي؟

ثم قال: هلا حدثتنا عن بعض المواقف التي تركت أثراً عميقاً في نفسك؟ قلت: عن ماذا أحدثك؟ أحدثك عن يوم الاعتقال!! وهي قصة كاملة بحد ذاتها.. بعد أن اعتقلت من بيتي، وزوجتي وولدي في مستشفى العفولة يخضع لعملية جراحية في المعدة والبنكرياس على إثر حادث مؤسف!! أم أحدثك عن وضع الاعتقال التعسفي الغير قانوني الذي مر عليه أكثر من عقد من الزمان دون تهمة أو لائحة اتهام!!

عمّ أحدثك؟ عن مشاعر أبنائي وزوجتي وأهلي من خلال زيارتهم لي في السجون الإسرائيلية بعد أن نُقلت من سجن إلى سجن!! وكان أجمل ما عبر عن هذا المعنى ولدي الأصغر، عندما قال لي: زرناك كثيراً يا أبي، فمتى تزورنا في بيتنا؟ لم أكن أملك له جواباً ولا رداً مقنعاً يتناسب مع سنه.

أم أحدثك عن أعصابي، التي كانت ولا زالت تحترق ألف مرة في الليل والنهار لانقطاعي عن العالم الخارجي، ولعدم وجود مدة قانونية محددة لخروجي من المعتقل!!

أم أحدثك عن ترحيلي إلى الأردن مرتين!!.. كانت المرة الأولى أواخر عام 1997م، الذي حصلت فيه مناقشات بين الأردنيين والإسرائيليين، كل

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

كان يريد رَدِّي إلى جانبه، وكنت حينها أتمشى على الجسر، الذي يربط بين ضفتي نهر الأردن، في منتصف الليل، وأنا أشاهد معركة حامية الوطيس تجري بين الأردنيين والإسرائيليين كل ذلك بسببي⁽¹⁾، ولم يتبادر إلى ذهني إلا الأغنية القائلة: " جسر الحديد انقطع من دوس رجلي " لكثرة ما تمشيت حينها على الجسر المذكور.

أم أحدثك عن المرة الثانية أواسط عام 1998م، وحصل فيها ما حصل في المرة الأولى، ولم يتبادر إلى ذهني في هذه المرة إلا قصة غوار الطوشة، عندما صرخت فيهم قائلاً: أعطوني خيمة أريد أن أعيش على الحدود بين الطرفين.

عمَّ أحدثك!! أحدثك عن (معبار)⁽²⁾ سجن الجلطة ومآسيه، المليء بالصراخ، وخلف جدرانه العسافير⁽³⁾، ويحيط به من كل جانب السفلة (الطناجير)!!

مهما حدثتك يا أخي، فلا يمكنني أن أَلَمَّ إلا بشيء يسير، وكفي أن نقول: إن مكوثي سنتين كاملتين في معبار الجلطة يكفي لتحطيم أعصابي، خاصة إذا علمت أنني أستقبل وأودع الشباب القادم من التحقيق ومنها إلى السجون

1 (الضابط الأردني يقول للضابط الإسرائيلي: هذا الرجل فلسطيني، والضابط الإسرائيلي يرد: لا.. هذا أردني.... وهكذا.

2 المعبار: غرفة مؤقتة يمر منها الشباب الذين أنهوا التحقيق إلى السجون الأخرى.

3 العسافير: مجموعة من العملاء يستخدمون من قبل المخابرات الإسرائيلية للإيقاع بالشباب المعتقلين واستغلالهم خاصة الجدد منهم.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

الأخرى، وفي هذا المكان بالتحديد فهمت جيداً المعنى الحقيقي لعبارة "استقبل جلالة الملك وودع جلالة الملك" لزواره القادمين والمغادرين.

فيا أخي قصتي طويلة لا أستطيع سردها في لحظات، أو على وريقات، بل تحتاج إلى مسرحيين وقُصَّاص، لعمل مسرحية تمثل الوجه الحقيقي لقصتي، التي هي جزء بسيط من آلام الشعب الفلسطيني، الذي عانى وما زال يعاني من البطش الأعمى بالأطفال والنساء والشيوخ، بل في الحيوان والشجر والحجر.

هذا لب قصتي، ونترك التاريخ يسجل التفاصيل بدقائقها.

تدخل صاحبي وقال: يا أخي، الآن أيقنت أنها قصة غريبة عجيبة، لقد احترقت أعصابي وأنا أتابع معك سرد القصة فما بالك بصاحب القصة نفسه؟

ولكن، لا بأس، فهذه هي حال شعبنا، فإلى الله المشتكى.



دوافع العودة.. شوق وحنين⁽¹⁾

- أنين غربتي.. وحنين بلدي.
- القرار.. نحو الوطن..
- لا غربّة بعد اليوم..
- بداية العودة..
- فرحة لم تكتمل..



1 (العودة من الغربّة: من باكستان والجهاد في أفغانستان بعد مضي اثني عشر عاماً من 1985م-1997م.

أني غرّبتني.. وحنين بلدتي (1)

في قرّيتي كان مسقط رأسي..
وفي وسطها وسهولها وجبالها كانت معيشتي..
وبين عاداتها وتقاليدها كانت حياتي..
وفي بيت متدين كانت نشأتي..
عشت ورأيت فيها ما رأيت.. وسمعت فيها ما سمعت.. ومع هذه وتلك؛
كنت ولا زلت أعشقها عشق الواله، وعشق الحبيب لحبيبه...
أحبها وأحب أهلها كما تحب الأم ولدها.. وأهيم فيها وفي هوائها،
وأشجارها، وجبالها، وسهولها، ومسجدها، ومدرستها، ومطحنتها، ومعصرة
زيتونها، وملعبها، وبيادر قمحها وعدسها، وأقراص سمسها.. ولا أنسى
بطيخها وشمامها وفقوسها... أهيم فيها كما يهيم المحب بمحبه...!!
إنها ذكريات وذكريات.. بل كل ما فيها ذكريات.. ويكفي أنها خرّجت قادة
من قادة الثورات (2)..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/5/5م.
(2) القادة هم: عبد الله عزام: قائد من قادة الحركة الإسلامية من بلدة سيلة الحارثية، قاتل في فلسطين في قواعد الشيوخ عبر أغوار الأردن أواخر الستينات، ثم استشهد في باكستان بعملية اغتيال جبانة في 1989/11/24م، بعد أن قضى تسعة أعوام في الجهاد الأفغاني، والذي كان له بصمات واضحة في إحياء روح الجهاد وإعادة الفريضة الغائبة في العصر الحديث إلى الأمة الإسلامية.
ومن جميل الموافقات أن نذكر هنا؛ أن عز الدين القسام سوري الجنسية استشهد على أرض فلسطين، في بلدة يبعد القريّة من بلدة سيلة الحارثية – جنين، وهي بلدة الشيخ عبد الله عزام الفلسطيني الذي استشهد على أرض الجهاد في أفغانستان.
وكذلك خرّجت هذه البلدة؛ قائد من قادة ثورة عام 1936م في فلسطين، ذاك القائد الشهير يوسف أبو درة، وقد تم إلقاء القبض عليه في الأردن وسلم للإنجليز بعد أن دّوهم إبان الثورة ليعدم بعدها في القدس عام 1939م، على أيدي الإنجليز ظلماً وعدواناً.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. كلما مر عليّ نهار أو أمسيات.. أتذكر فيها كل حجر من أحجارها،
وكل زاوية من زواياها..

.. أتذكر فيها آلامها وأمالها.. أفراحها وأحزانها..

.. أتذكر فيها رغيف خبزها.. وطابونها، ومحراثها، وأبقارها، وأغنامها،
وجمالها، وخيولها.. (1)

.. أتذكرها يوم أن كان الجار لا يستغني عن الجار.. حتى في السلم
والفأس والمنشار..

.. أتذكرها.. يوم أن كان شيخها⁽²⁾ على رأس كل مناسبة من مناسباتها،
أو حفلة من حفلاتها، أو مأتم من مآتمها، أو حزن من أحزانها..

.. أتذكرها.. يوم أن كنا صغاراً، لا نرى من رمضان حلاوة لأيامه، ولا
لذة لصيامه، إلا ما تحتويه جيوبنا من لوزيات وتمور وحلويات، انتظاراً
لصوت مدفع أو أذان مغرب..

.. أتذكرها.. يوم أن كان أهلها يجتمعون لوداع حاج من حاجها قاصداً
البيت العتيق، يودعونه أياماً وأياماً؛ بالحنين والتحنين⁽³⁾ المتعارف عليه بين
القرويين..

(1) هذه الأحاسيس والمشاعر كانت تداعبني وتراودني وتدفعني للعودة إلى مسقط رأسي يوم أن كنت فوق
ذرى الهندوكوش وجبال سليمان نشارك المجاهدين جهادهم ضد الشيوعيين، لمدة إثني عشر عاماً من عام
1985م إلى أواخر عام 1997م.

(2) شيخ المسجد: الشيخ/ خليل العاروري.

(3) أهازيغ مقرونة وممزوجة بنغمات حنين تميل إلى الحزن على فراق وتوديع الحجيج المسافرين إلى البيت
الحرام، وكانت تستمر لأيام قبل سفر الحجيج.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. أتذكرها، يوم أن كانت القرية أسرة واحدة، متلاحمة، متعاضدة، متعاطفة، متراحمة، متكاتفه، متماسكة، محافظة على عاداتها وتقاليدها ودينها وخوفها من ربها..

.. إنها قريتي.. إنها بلدتي.. إنها مسقط رأسي.. أتذكرها في غربتي

.. أتذكرها في كل يوم.. أتذكرها!! فمتى ستكون عودتي؟

.. إنه الحنين الذي واكب مسيرتي.. فأين الأصل؟؟ ولا أصل في

غربتي...!!

.. فلك الله يا سيلتي⁽¹⁾...!!

(1) سيلتي: هي اسم بلدتي (سيلة الحارثية) غرب مدينة جنين.

القرار.. نحو الوطن⁽¹⁾

.. وعُقدت النية.. وَشُدَّتْ الأحزمة.. وَجُهِزَ كل ما يلزم لسفر الأهل، فكان الوداع عبر المطار⁽²⁾.. وداع الزوجة والأولاد والمتاع... وداعاً...!! على أن يكون بعده لقاء على أرض الإسراء والمعراج..

.. وهكذا، مضت الأيام أو شهراً من الزمان.. حتى طرأ طارئ على الأذهان، من خلال استشارتي لأهل الرأي والمكان، واستخارتي مرة ومرتان للرحمن.. حالت بيني وبين نيتي في الوصول لأرض الأوطان..⁽³⁾

.. هاتفت زوجتي، وأفصحت لها ما في نفسي، وما طرأ من تغير على رأيي حول هذه المسألة.. فاستسلمت لرأيي..

.. قامت الدنيا ولم تقعد.. ورغم الأيمان المغلظة من قبل زوجتي، بأن الأمر لا يتعلق بها، لا من قريب ولا من بعيد، بل لم تتدخل في هذا الشأن أبداً، إلا أنها في نظر الوالدين هي المسئولة الأولى عن إقناعي وتغير نيتي في العودة لأرض الوطن حسب نظرهم..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) بتاريخ 2008/5/24م.

(2) مطار كراتشي في باكستان.. ودعت الزوجة والأولاد على أمل أن ألحق بهم إلى فلسطين بعد شهر من الزمان.

(3) هذه الأحداث كانت في شهر آب عام 1997م، يوم أن كنت في باكستان.. خلال الشهر الذي ضربته مع الأهل للحاق بهم؛ شعرت أن هناك محاذير في سفري نحو الوطن، سواء كان ذلك من طرف الاحتلال الصهيوني أو غيرهم، فغيرت رأيي وطلبت من الأهل أن يجهزوا أنفسهم والعودة إلى باكستان؛ فإشطاء الوالدان غضباً ظناً منهما أن تغير نيتي كان وراءها زوجتي.. ورغم ما بين غضب والدتي وما كان يدور في نفسي من محاذير؛ قررت العودة إلى أرض الوطن إرضاءً لوالدي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. لم يمهلوني كثيراً للتأكد مما سمعوه ...!! فكان لا بد من الوقوف عن
كثب على ملابسات المسألة.. والهاتف بالطبع كان الوسيلة الوحيدة بيني
وبينهم..

.. طال الحديث مع إخواني.. طلبت الوالدين فاعتذرا، بل قالوا بالحرف
الواحد: من لا يريدنا لا نريده...!!

.. كلمات.. كانت شديدة الوقع على نفسي كوقع الصاعقة..

.. كلمات.. وكأنها مدوية اخترقت سويداء قلبي، فاسترجعت وحوقلت
قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

.. كلمات ...!! انتابتنني من خلالها مشاعر الكآبة والحزن... والألم يلفني
من كل جانب... ويعتصر القلب؛ بعد أن فشلت في الوصول إلى قلوبهم،
فضلاً عن عدم تمكني من إقناعهم عن طريق الغير..

.. لم يفهموني.. لم يعرفوا مأربي ومقصدي...!!

ولكن بالتأكيد؛ ذهبت بهم الظنون إلى المثل الدارج بين الناس، والقائل:
"قلبي على ولدي انفطر، وقلب ولدي على حجر" ذاك المثل الحي الذي
أصبح واقعاً يعيش بين حنايا أي والدين في هذا الزمان..

ولكن لا بأس.. ولا لوم.. إنه الحنين الدفين في أعماق الوالدين.. إنها
عاطفة الأبوة.. عاطفة الأمومة.. تتناديني بكل إصرار.. نحو الوطن...!!

لا غربة بعد اليوم...!! (1)

كان الرحيل خياراً.. لكنه صعب...!!

كان خياراً لا بد من تخطيه.. ولكن كان أيضاً لا بد من حسمه...!!

فالرحيل إذن صعب.. من أرض كان فيها الذكريات لأعزة وأخوة كرماء (2)، منهم الأحياء، ومنهم الشهداء، هم نماذج وأصحاب مبادئ.. لكنهم من طراز جديد.. ألحقوا الهزيمة بأكبر عدو صنديد، كان نتاج إيديولوجية خطيرة على مدار زمن بعيد، عاث خراباً ودماراً للديار، وللأديان، وللأفكار (3)..

.. إنه رحيل، لكنه من أرض طوت تحت ثراها أحبة من خيرة أبناء هذه الأمة، بعد أن لقنوا الأعداء (4) دروساً لم يشهد لها التاريخ المعاصر مثيلاً..

.. هي ذكريات، تقنات عليها الأحاسيس والمشاعر والمعنويات.. مازالت قائمة.. وستبقى ماثلة للعيان ما حييت، لا تمحى ذكراهم من الأذهان.. وسيبقى أثرهم يجري في الأعماق كما يجري الدم في الشريان..

.. ورغم هذه الذكريات، لم يبق بدٌّ سوى الارتحال نحو الأرض المباركة.. أرض الإسراء والمعراج..

.. كنت أدرك مدى حنين الوالدين، الذي كان يعتمل بين الجنين... ولكن شوقي لهما كان أكثر.... يدفعني إليهما دفعاً... بل يناديني من الأعماق.. متى اللقاء...؟؟

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/5/26م.

(2) أتحدث هنا عن أرض الجهاد والمجاهدين من العرب والأفغان.

(3) هذه الأحداث كانت أوائل شهر أكتوبر من عام 1997م.

(4) الروس، والشيو عيين الأفغان.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. تمنيت أن أفاجأهم في بيتنا الكبير، الذي كان لا يحلو لوالدي إلا أن يجلس في صدره على أريكته، وأمامه موقد النار تزينه دلة القهوة بجوار الجمر الأحمر، التي كانت لا تفارقه أبداً.. عملاً بوصية والده التي تقول: دلة القهوة عنوان لبيت العز...!!

.. كنت أريد أن أفاجأهم في البيت الذي ولدت فيه، ففاجأني الختار⁽¹⁾ بالانتظار على أبواب المعبار⁽²⁾، إحدى النقاط الحدودية، فكان العناق، وكان تفريغ الأحاسيس والأشواق، بعد سنوات من الغربة والفراق...

.. لقد أحسست برعشة في جسدي... ودمعة في عيني... مجرد عناق لوالدتي على مدخل بيتنا، وهي تخرج زغرودة خفيفة من فمها، رغم كبر سنها وهي مفعمة بالفرح والسرور بقدوم ولدها..

.. إنه لقاء الوالدة بولدها، ولقاء الزوجة بزوجها، ولقاء الأولاد بوالدهم.

.. كان اللقاء، مع الإخوان والأخوات والأقرباء، مع الزوجة والأولاد الذين سبقوني إلى البلدة بشهر من الزمان.. هكذا كان الفرح يملأ الأجواء.

.. هكذا عدت إلى البيت... عدت والعود أحمد..

.. وهكذا أعلنتها من بيتي.. لا غربة بعد اليوم⁽³⁾...!!

(1) والدي الحاج/ سعيد صالح عزام.

(2) جسر العبور.. جسر ألنبي ما بين فلسطين والأردن.. هذا اللقاء الثاني للوالد بعد إثني عشر عاماً، بعد أن كان اللقاء الأول في الأردن عام 1990م.

(3) بتاريخ 1997/10/09م.

بداية العودة...!! (1)

.. وهكذا عدت إلى أرض الوطن.. شوقاً وحنيناً إلى الأهل والخلان...!!
.. عدت إلى مسقط رأسي.. إلى الأرض التي درجت فوقها بعد أن حبوت عليها..

عدت إلى مسجدي، وشجرة زيتونتي، ومدرستي التي درست فيها.. شوقاً وحنيناً إلى أساتذتي وأبناء بلدي...!؟

.. عدت لأشم رائحة أزهار لوزها ورماتها ومشمشها..

.. عدت بعد أن كبرت عائلتي في غربتي، وكبر أولادي في محنتي،
لأعلن أنّ الغربة للغرباء والدخلاء، وليس للأصلاء..

.. عدت لأزرعهم في الأرض التي نَبَتوا فيها.. أرض الآباء والأجداد..

.. عدت لأخبر أهل بلدي بأنني لست غريباً عنها.. وإنما الغريب من
تملكها بغير حق..

.. فالبلاد طلبت أهلها.. ونحن من أهلها..

ولهذا كانت عودتي (2)...!!

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) بتاريخ 2008/05/21م.
(2) العودة من باكستان بتاريخ 1997/10/09م إلى الضفة الغربية في فلسطين بعد أن استمرت الغربة إثني عشر عاماً، وهذه المشاعر كانت تداعب أحاسيسي أثناء وصولي إلى قريتي.

فرحة لم تكتمل...!! (1)

.. بعد صلاة فجر اليوم الأول من وصولي إلى البلدة⁽²⁾، انتحى الوالد بي جانباً وقال: لقد كنت أنتظر هذا اليوم الذي أراك فيه هنا، وقد وعدت بوليمة كبيرة أدعو فيها إخوانك وأخواتك وعيالههم، حتى تتم الفرحة على أكمل وجه بوجودك بيننا... فأشرت عليه بالأى يفعل ذلك، وأن يعتبر هذا اليوم يوماً عادياً كأى يوم من أيام السنة.. فأبى أن ينكث بوعده الذي قطعه على نفسه أمام أبنائه وأحفاده..

فالتراجع في نظره - هنا - منقصة في حقه.. كيف لا...؟ وهو الذي يمثل كبير العائلة.. فالإصرار كان هو العنوان على ما كان..

.. انطلق الوالد والفرحة تغمر جوانحه لتحقيق رغبته، وعاد يحمل في قلبه قمة السرور، قبل أن تُرى بين يديه اللحوم والشحوم، لا يصدق أن ولده أمام ناظريه بعد هذا الغياب الطويل..

.. إنه ابن الثمانين عاماً، يتحرك ما بين البيت والجزار، ليعلن للجيران أن هذا اليوم يختلف عن بقية الأيام، وأن هذه الأوقات هي أوقات فرح وسرور، لا أوقات نوم وركود.

.. لم تكن يداه الضعيفتان بإمكانهما أن تحملا أكثر مما حملتا من مستلزمات الوليمة، فكان لا بد له من أن يكلف حفيداً من أحفاده بإحضار ما تبقى من حوايا ما دُبج..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/5/21م.
(2) هذه الأحداث حصلت صباح اليوم الثاني لوصولي إلى البلدة من يوم الجمعة 1997/10/10م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. أسرع ولدي عمير إلى عربة ذات عجلين يدفعها على نزلة من النزلات في البلدة، والفرحة تعلو وجهه بقدم والده، ترجمها بقوة الاندفاع نحو الهدف الذي يقصده.. وإذ بسيارة تحمل لوحة صفراء تصطدم به...!!

عندها.. خيم الوجوم على الوجوه.. فالأجواء غير الأجواء.. والظروف غير الظروف.. والأرض غير الأرض.. والحركات والسلوكيات والانفعالات كلها انقلبت على عقب...

.. يا للهول...!! لقد غيب هذا الحادث بسمات كثيرة على أوجه كثير ممن يهمني من الناس، ولكن الشيء الذي آلمني والسؤال الذي حيرني؛ ما كان يجول في خاطري حال سماعي للخبر، وهو ما قلته معلقاً على الخبر: أحقاً سُرقت تلك البسمة التي كانت تعلو وجه ولدي عمير.. ذاك الطفل البريء ابن العقد الأول من عمره...؟؟

.. نعم!! لقد أصيب عمير بنزيف داخلي.. وكانت والدتي ابنة الثمانين عاماً ممن شهد الحادث، عندما أشار عليها سائق السيارة⁽¹⁾ بنقل الولد إلى إحدى المستشفيات داخل الخط الأخضر، فلم يجد منها إلا الإصرار الشديد ألا ينقل إلا إلى مستشفى جنين المركزي، ظناً منها أن مستشفى جنين أفضل وأحدث من مستشفى هداسا⁽²⁾..

(1) سائق السيارة من قرية أم الفحم داخل الخط الأخضر.

(2) مستشفى هداسا تقع داخل الخط الأخضر أيضاً.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. لم تكن الساعة قد أشارت بعد إلى السابعة صباحاً عندما ترامى إلى مسامعي الخبر، وهو أول يوم تشرق فيه الشمس على رجل مثلي يتقلب بين أحضان أهله وأولاده بعد وصوله إلى أرض الوطن..

.. قمت مسرعاً أهيم على وجهي ولا أدري إلى أين أتجه، فقادتني فراستي إلى مستشفى جنين، وإذ بولدي يتلوى على سرير من أسرة المستشفى والنزيف لا يكاد ينقطع، فاتجهت نحو ممرضة من الممرضات والقلب يعتصر ألماً، والنفس في شدة ضغطها..

قلت لها: ألا تتقون الله...!! إنه ينزف...!! فردت عليّ رداً غير مسئول.. بل وبكل استهتار: "إنه ليس دماً"...!! فصعقت لما سمعت.. ثم استرسلت بكلامها قائلة: "يبدو أن الولد قد أكل بالأمس شيئاً من البندورة"...!!

.. يا إلهي...!! يا للهول...!! النفس تتمزق.. والقلب يعتصر ألماً على طفل أراه ما بين الموت والحياة.. إنه موقف لا تصدقه عيناى، ولا تسمعه أذناى، من حديث لا يمت بالمسئولية بصلة، فاكتفيت بمقولة: "شر البلية ما يضحك"...!!

ولكنى في حقيقة الأمر كنت أنتظر من يهتني على ضبط أعصابى تجاه هذه المستهترة...!!

وصل الطبيب المختص فقرر إجراء عملية وبشكل فوري لابنى عُمير.. إلا أن إخوانى اعترضوا إجراء العملية في مستشفى جنين باعتبار أن هذه

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

العملية عملية حساسة تتطلب نقل الولد إلى أقرب مستشفى داخل الخط الأخضر.

.. ورغم إصرار الطبيب على إجراء العملية في جنين إلا أن إصرارنا غالب إصرار الطبيب، وهنا لا بد أن أسجل موقفين:

الموقف الأول:

يتعلق بالطبيب: قال: أنا لا أضمنه إلا ساعتين، فقلت له: ننقله إلى مستشفى العفولة وهو قريب من مدينة جنين، وقد لا تستغرق المسافة سوى ربع ساعة، وعندما فشل بإقناعنا إجراء العملية لعمير؛ قال كلمة لا زالت تتردد في أذناي؛ بل تعشعش بين حناياي، قال: إذن ستدفعون أجرة الإسعاف الذي سينقله إلى مستشفى العفولة، فكانت هذه الكلمة كالصاعقة التي نزلت على نفسي أيضاً.. يا للهول...!! أرى فلذة كبدي يشرف على الموت وهو يقول لي: لا بد أن تدفع أجرة الإسعاف الذي سينقله للمستشفى.. إنها لمأساة بل إنها لمآسي!...

الموقف الثاني:

كان ذلك اليوم من أصعب الأيام.. كان يوم جمعة، وكان عند الصهاينة عيد يُسمى "عيد الغفران"، والحدود ستغلق، وكانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً، وحتى نتأكد أن سيارة الإسعاف قد دخلت الخط الأخضر؛ تبعناها أنا وقريب لي، حتى تأكدنا أنها دخلت الحاجز العسكري، ثم عدنا لنصلي الجمعة، وبعد الصلاة اتجهنا لمكتب الارتباط الفلسطيني، وحصلنا على

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

تصريح ليوم واحد للدخول إلى مدينة العفولة، وبعد اتصال مع زوجتي، قالت: لا داعي للقدوم إلينا؛ لأنَّ المستشفى أعلن الاستتار الكامل لاستقبال حالة عمير، وأدخل مباشرة إلى العمليات، وكان كل هذا في يوم الجمعة وهو اليوم الأول لوصولي أرض الوطن.

وهكذا عدنا مرةً أخرى للارتباط الفلسطيني يوم الأحد في 12/10/1997م لعمل تصريح يسمح لنا بدخول مدينة العفولة؛ فوجدنا موظفاً آخر غير الذي وجدناه يوم الجمعة، وخلال الحديث فهم من صاحبي الذي معي أنني قريب الشيخ عبد الله عزام، وأنا كنت في باكستان، فلم يلبث هذا الموظف قليلاً حتى قام مسرعاً وبشكل مفاجئ...؟؟ ففهمت أنه ذهب كي يكتب بي تقريراً للمخابرات الإسرائيلية، وفعلاً لم يخرج لي تصريحاً في ذلك اليوم، ولا في اليوم الثاني، ولا طيلة الأسبوع، فعرفت أنني أصبحت مرفوضاً أمنياً، ولم أتوقع أنني سأعرض للاعتقال رغم أن كثيراً من الناس كانوا يأتونني ويقولون لي: اذهب وتسلل عبر الحدود حتى تصل إلى ولدك، فكنت أرفض رفضاً قاطعاً؛ إحساساً مني أن هذا الأمر سيقرب عليّ شيئاً ما، وهو إلقاء القبض عليّ من قبل شرطة الاحتلال الصهيوني بتهمة الدخول إلى الخط الأخضر بدون تصريح⁽¹⁾، وبالتالي يصبح التحقيق معي تحت هذا الغطاء، وهكذا بقيت على هذه الحال حتى جاء يوم الاعتقال في 29/10/1997م.

(1) هذا التفسير لم يتضح لي جيداً إلا بعد أن عشت داخل سجون الاحتلال.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. وما أن وصل عمير مستشفى العفولة (1) برفقة أمه وجدته، حتى أعلن المستشفى استنفاراً كاملاً لهذه الحالة ما بين تشخيص وتصوير وتحليل.. ثم إلى غرفة العمليات مباشرة.

.. أما أنا، فقد بقيت على تواصل بيني وبينه وبشكل يومي عبر الهاتف، والقلب يحترق عليه لعدم استطاعتي الحصول على تصريح من الاحتلال يمكنني من ضمه إلى صدري.. وبقي الأمر على هذه الحال إلى ليلة الاعتقال..

.. إنها فرحة.. لكنها لم تكتمل مع الأهل والإخوان والأخوات !!!..
.. عشرين يوماً عشتها في البلدة قبل الاعتقال.. لا أدري أهى حقيقة أم خيال !!!..

.. إنها قصة؛ أهى البداية.. أم هي النهاية !!!..
.. إنها الأيام حبلى.. لكنها ستلد كل أمر عجيب !!

(1) مستشفى داخل الخط الأخضر بالقرب من مدينة جنين.

البداية... خلف القضبان !!

- ليلة الاعتقال..
- بطن الحوت.. والمصير المجهول..
- في التحقيق وجهاً لوجه..
- في غياهب الأقبية..
- وسقط الرهان في بطن الحوت..
- ما بعد الأقبية..

ليلة الاعتقال.. (1)

.. كان الأمل كبيراً.. كان الأمل عريضاً.
.. كان الأمل يحدوني ويدفعني نحو الوطن..
.. كان الأمل أن أحتضن في الوطن، ما بين ذراعيه وما بين جنبيه..
.. كان الأمل أن أسهم في بناء بعض بنيانه، لا أن أكون في أحشائه
وبطون حيطانه، ولكن...! قدر الله وما شاء فعل...!
.. واليوم، طُرق الباب.. بعد أن وطأت قدماي أرض الوطن بعشرين يوماً.
.. طُرق الباب.. ولم يمض على آخر اتصال بيني وبين ولدي عُمر سوى
ساعات.. والذي كان يتعافى في إحدى مستشفيات العفولة داخل الخط
الأخضر..
.. طُرق الباب.. ولم يكن يتبادر لذهني أن عدواً في زمن الغاب يقبع
خلف الباب.. بعد أن اعتدتُ على طرقات الوالد المعهودة عند صلاة الفجر..
.. طُرق الباب.. ولا أدري ما هو آت.. خلال الثواني المتبقية لوصولي
الباب.. المليئة بالمفاجآت..
.. وهكذا.. وبخطوات هادئة نحو الباب.. أحسست بأمر تُذهل ذوي
الألباب.. فكانت المفاجآت أكبر من التوقعات.. جنود يملؤون البيت
والمساحات.. أسلحة مسلطة بكل الاتجاهات.. إضاءات قوية شديدة

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/5/29م.
- ليلة الاعتقال كانت ليلة الأربعاء الساعة الثانية فجراً بتاريخ 1997/10/29م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

اللمعات.. استنفار كامل لأي طارئ، بل جنود الاحتلال على أتم الاستعداد..

.. البوابة الخارجية مشرعة على مصراعها.. الجنود يلملمون سلالهم بعد أن اقتحموا البيت اقتحاماً من فوق أسواره العالية..

الضابط لديه المعلومات الكاملة عن حادث ولدي عمير.. تفتيش لأماكن منتقاة.. الخزانة.. حقيبتى الخاصة.. صور بعينها من ضمنها صور شيخي الشهيد د. عبد الله عزام.. ويتساءل الضابط عنها...؟؟!!
.. انتهى التفتيش..

البيت مقلوب رأساً على عقب..

الختيارية⁽¹⁾ لا زالوا في نوم عميق، لا يعلمون شيئاً عما يجري..

أولادي مستنفرون يبلغون الختيارية بما يجري..

.. الختيارية ينتفضون من فراشهم مفزوعين؛ ويجتازون كل الجنود الذين يملؤون البيت...

.. الضابط يتلقف الختيار ابن الثمانين.. ويمتص غضبه.. أشعره وكأنه صديق حميم..

(1) والدي ووالدتي.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

كنت أقرب ما يجري أمامي، وكل التقديرات تشير لدي بأن ما أشاهده إنما هو بداية لعملية اعتقال.. وفعلاً لم يطل الكابتن كثيراً حتى قال: جهز نفسك! ستذهب معنا!

.. وفعلاً؛ جهزت نفسي..

الضابط: إذن نتحرك..

الأولاد: يصرخون في وجوه الجنود، ويعبرون عن رفضهم لما يحدث على طريقتهم الخاصة..

.. خرجنا من البيت بشكل اعتيادي دون تكييل بأيدي ولا بأرجل.. وإذ بالشوارع مليئة بالسيارات والجنود.. على كل مفرق وناصية طريق، مجموعة من الجنود.. ومركز القوة، مسجد البلدة وما حوله..

.. وهنا قال لي الضابط: نظام الجيش هو تعصيب العينين وكلبشة اليدين...!

عندها.. لم يكن لدي خيار سوى الامتثال!!

.. رائحة الزيت والجفتة ومعصرة الزيتون حددت لي خارطة الطريق⁽¹⁾..

.. سالم⁽²⁾، محطة أخرى للتوقف.

(1) معصرة الزيت في البلدة ورائحة الجفتة هي التي حددت لي الاتجاه الذي نسير نحوه، ففهمت أننا نتجه نحو الشمال.

(2) نقطة حدودية بين الضفة والخط الأخضر في الشمال بالقرب من مجدو.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. الطبيب يسأل عن الحالة الصحية.. والجواب طبعاً كان بالإيجاب..

.. الضابط (ينتحي بي جانباً): سنسلمك للشرطة.. لا تعمل مشاكل...!!

لقد وصَّيتهم عليك!!

.. سيارة أخرى تتطلق بنا بسرعة جنونية.. وعلى رأس تلة، فتح باب كبير.. ومنه إلى العيادة.. ثم إلى الأمانات.. ومنها إلى الزنازين..

.. اشتباه في الاسم لدى الموظف⁽¹⁾.. تحدث مع الآخرين.. خطأ في الاسم.. خطأ في عملية الاعتقال...!!

التأكيد من الطرف الثاني: إن المعتقل هو المقصود بالذات...!!

.. عندها، أُلقيت في زنزانة كبيرة تحت الأرض⁽²⁾.. انتظاراً للتحقيق..

وهكذا كانت الرحلة... من الثانية فجراً حتى الرابعة من صباح الأربعاء 1997/10/29م.

.. إنها رحلة.. لكنها ليست كبقية الرحلات...!!

.. رحلة.. لكنها شاقة بكل المعايير...!!

.. رحلة.. لكنها من عالم الحرية إلى عالم السجون...!!

.. رحلة العذاب العذب، لمن أيقن أن الأمور كلها بيد رب الأرباب...!!

(1) الموظف: مسئول الزنازين.

(2) سجن الجلطة: بالقرب من مدينة حيفا الساحلية وبالقرب من جبل الكرمل.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. رحلة الغربة الثانية من البلدة وأهلها وذاكراتها...!!

.. رحلة التجربة الثانية.. لكنها صاحبة الثمن الغالية...!!

.. إنها رحلة لكنها وعرة.. ثمنها آلام وأحزان...!!

.. والذي كان يطمئنني دائماً ويسليني؛ بأن هذا هو الطريق.. طريق أهل العقائد والمبادئ، طريق التضحيات، ولا يمكن الوصول إلى الهدف الحقيقي إلا عبر هذا الطريق.. وهذا الطريق وحده.

بطن الحوت.. والمصير المجهول!!⁽¹⁾

.. فجأة؛ وإذا أنا بأرض غير الأرض.. وجو غير الجو.. وظرف غير الظرف.. أُلقيت بزنانة منفردة.. موحشة.. مقفهرة.. بعيداً عن الفراش والرياش، والأنس بالأهل والولدان والخلان... لا أرى من حولي سوى فرشاة مقطعة الأوصال، وغطاء لونه كلون القطران.. أما رائحته؛ فحدث ولا حرج واللييب بالإشارة يفهم.

.. فجأة، ذهبت الفرحة والسرور.. وتبددت الآمال، وخيم الظلام.. وأصبح الخيال لا ينسج إلا خوفاً وهلعاً من القادم المجهول، وأصبحت لا أجد تفسيراً واحداً عن سبب وجودي في هذا المكان.. وما أدراك ما ذلك المكان؟ زنانة تحت الأرض، محاطة بأربعة جدران.. إنه جو قاتم بعيد عن كل ما يسمى بحقوق الإنسان.. بل هو عمل جبان، حتى في قانون الشيطان، أن يؤخذ إنسان ويوضع في مثل هذا المكان، دون تهمة أو إجرام أو أي ذنب كان...!!

.. كان الليل.. وجاء الصباح.. صباح الأربعاء 1997/10/29م وإذ بشرطي يفتح الباب، لا أدري ما الذي يريده؟ أو جاء لأي سبب كان.. تفحصت ما بين يديه، وإذا بطبق فيه طعام، يحوي حبة بندورة وبيضة مسلوقة وقليل من المربي.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/9م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لم يعد للنفس شهية، لا لطعام ولا لشراب.. صرخت بوجهه ورفضت ما جاء به.. أدخل الطعام بقوة ثم أغلق الباب..

انقضى ذاك اليوم، ولم يسألني أحد عن أي شيء حتى صباح الخميس.. استدعيت للتحقيق للطابق الثالث، وإذا بممر طويل؛ كان يطلق عليه الأسرى (الباص) وهو مخصص للشبح على الجانبين.. وضعت على كرسي مكبل اليدين، ومقيد القدمين.. واليدان المكبلتان مثبتتان برجل كرسي الشبح.. وفوق كل ذلك تغطية الرأس بكيس من الشادر⁽¹⁾، له رائحة كريهة لا تطيقها النفس البشرية، وزاد الطين بلة، ضيق النفس الذي كنت أعاني منه.

.. كان الممر مليئاً بالأسرى، والجميع على هذه الشاكلة، إلا أننا لم نر بعضنا البعض، بسبب الأكياس التي تغطي رؤوسنا؛ إلا عبر خروق كان يعتمد الأسرى إحداثها في جدران الأكياس عن طريق قضمها بأسنانهم..

ولعل الشيء الملفت في هذا الممر ما تتعمده المخابرات في رفع صوت الموسيقى الصاخبة، الذي يشكل ضغطاً نفسياً للأسرى..

لم يتعود عليها حفظة القرآن الكريم، ولا شباب المساجد، ولا الأتقياء الأخفياء.. لم يكن المقصود من هذه الموسيقى سوى إيقاع أكبر الأذى النفسي بالأسرى بقدر الإمكان، وهذا ما تأكد لي فيما بعد في جلسة من جلسات التحقيق، عندما كنت أحرك إحدى رجلاي أمام ضابط المخابرات، وكأن الظان يظنني أنني منسجم أو مستمتع على وقع الموسيقى التي يتردد

(1) القماش الخشن السميك.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

صداها بين جنبات الممر، وبعض غرف التحقيق.. مع أن حركتي هذه لم تكن مقصودة أصلاً، بل كانت هذه الحركة لا إرادية وهي عادة اعتدت عليها من صغري، فكانت هذه الحركة ملفتة لضابط التحقيق، فسألني عن مدى انسجامي مع هذه الموسيقى فأكدت له أنني في قمة الانسجام، فأمر فوراً بإغلاق الموسيقى، فحمدت الله على ذلك وقلت: الحمد لله الذي أذهب عنا⁽¹⁾ الأذى والحزن.

(1) دعوت لنفسي ولجميع المشبوحين الذين ارتاحوا من اغلاق الموسيقى الصاخبة.

في التحقيق وجهاً لوجه (1)

.. بعد ساعة من جلوسي على كرسي الشبح، طُلبت ولا أدري إلى أين سيقودني ذاك الشرطي الفظ..

وفجأة، رُفع الكيس عن رأسي.. وإذا بي أمام محقق؛ أمثل أمامه وجهاً لوجه ولأول مرة في حياتي..

نظر إلي وقال: ما بك؟ قلت: لا شيء..

قال: أترى أن حماراً أمامك...؟؟ فاعتبرت أنها بداية لحرب نفسية عنوانها: الصدمة!! فلم أرد عليه...!!

ثم قال: هل قابلت مخابرات إسرائيلية في حياتك؟ قلت له: لا..

.. انشغل ضابط التحقيق (2) ولحظات قليلة مع الكمبيوتر، ثم انهال عليّ بأسئلة جميعها فارغة لا قيمة لها.. ثم أعدت مرة أخرى إلى الشبح..

.. وهكذا أصبح الأمر على هذه الشاكلة، يطلبني يومياً وبشكل دوري، يسألني عن أشياء لم أسمع بها، لا في الأولين ولا في الآخرين..

كنت أحرص دائماً أن أجيبه على قدر السؤال الذي يسأله.. مما جعل المحقق يخرج عن طوره قائلاً: ما رأيت شخصاً بخيلاً بالكلام مثلك قط..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/9م.
(2) ضابط التحقيق يكنى نفسه أبو منير.. لأول مرة أمثل أمام ضابط تحقيق في حياتي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. استمر الشبح على هذه الحال.. وكان يبدأ من الثامنة صباحاً على كرسي الشبح حتى الثامنة مساءً، يتخللها جلسة تحقيق لا تزيد عن الساعتين في بعض الأحيان.. لا نسمع فيها إلا السب والشتم بالألوان والأشكال.. وكلما زادت أيام الشبح تنوعت أساليب التحقيق ما بين الترغيب والترهيب..

.. إن مادة الحديث التي كانت سائدة خلال الجلسات مادة سخيفة.. فتارة يذكر قصصاً ينسجها من خياله..

وتارة أخرى يضرب لك أمثلة كان قد سلبها من أسرى سبقونا في التحقيق، ليطبقها علينا وعلى أسرى آخرين.

وقد يسألك أحياناً عن أمور تافهة كسؤاله عن حذائك أو عن قميصك من أين اشتريته؟ لعلها تكون مفتاحاً لأسئلة لاحقة هو يقصدها.. حتى أنه سألني - ذات مرة - عن لباسي الذي كنت ألبسه.. ماذا يعني لك أن تلبس طاقية ودشداشة بيضاء؟ وكأنه يظن أن هذا اللباس، يخص جماعة من الجماعات بعينها..

هذه الأسئلة وغيرها كانت من الأساليب الخسيسة التي يراد بها الضغط على نفسياتي، كأن لا يسمح لي أن أغتسل أياماً؛ ثم يشعروني بأن رائحتي كريهة.. وكأن حال لسانه يقول: ستبقى في السجن حتى تخرج رائحتك (تعفن)!!

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

بقيت على هذه الحال فترة لا تقل عن أسبوعين.. أرسلت بعدها إلى المحكمة العسكرية على بوابة سجن الجملة، وكان قرار التأجيل ينتظرني لثلاثة أسابيع أخرى...

.. عدت مرة أخرى للشبح من جديد وعلى نفس النمط.. والملاحظ أن هذه المرحلة اختلفت عن سابقتها من حيث ارتفاع وتيرة الحرب النفسية، بالإضافة إلى التركيز في هذه الجولات والجلسات على وجودي في باكستان، والعمل الذي كنت أعمله هناك.

ولهذا، كان جوابي دائماً يتركز على الدراسة والتدريس والعمل الإغاثي في مكتب الخدمات، وكان السجال قائم بيني وبين المحقق؛ أن مكتب الخدمات هو مكتب إنساني وإغاثي، إلا أنه كان يصر على أن مكتب الخدمات منظمة من المنظمات، وهكذا...

.. كان يتنقل في أسئلته هنا وهناك، حتى وصلت به الأسئلة إلى السؤال الذي كان يهدف إليه وهو عن الشيخ عبد الله عزام.

قال لي: من قتل عبد الله عزام؟

قلت له: أنتم تعرفون من قتل الشيخ عبد الله عزام؟ فأنتم تقولون دائماً وتدّعون: أن أذرعكم الأمنية طويلة، خاصة الموساد!؟

فرد عليّ قائلاً: نعم؛ نحن نعلم من قتل عبد الله عزام، ولكني أريد أن أسمع منك من الذي قتله؟

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

قلت له: لا أدري.

ولما سألته عمن قتله، رفض الإجابة عن سُؤالي.

ثم سألني مرة أخرى: ألا يدور نقاش داخل العائلة حول من قتل عبد الله عزام؟

قلت له: لا.

ثم قال: فإلى من توجهون التهمة؟؟

قلت له مرة أخرى: لا أدري..

.. انتهى من أسئلته حول الشيخ عبد الله عزام، وانتقل إلى السؤال الآخر الذي كان يهدف إليه أيضاً وهو السؤال عن ابن لادن فقال: ألا تظن أن ابن لادن هو الذي قتل عبد الله عزام؟

قلت له: هذا أمر مستبعد..

قال: لماذا؟؟

قلت له: لأنه مسلم، والمسلم لا يمكن أن يقتل مسلماً.

ثم قال: أين رأيت ابن لادن؟

قلت له: لا أعرفه أصلاً، ولكن في عام 1985م كنت في بيت خالي⁽¹⁾ وكان هناك عدد كبير من الناس فسألت.. من هذا الرجل؟ قالوا: هذا ابن لادن، وابن لادن في حينها؛ لم يكن مطارداً ولا ملاحقاً من أي طرف كان.

(1) الشهيد عبد الله عزام.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. التقط المحقق هذه العبارة واعتبرها إنجازاً أمنياً مهماً في التحقيق، رغم أنها كانت معلومة قديمة مستهلكة وميتة بكل المعايير الأمنية..

.. أقول: اعتبرها ممسكاً أمنياً، وكأنه أمسك بطرف خيط، يمكنه من الوصول إلى شيء ما.. إنه يتعامل معي بهوس أمني، لا بقواه العقلية، الحريص على الوصول إلى حقيقة ما.. وهذا بحد ذاته فشل ذريع بكل المقاييس.

.. وبناء على هذه العقلية، التي يتعامل بها المحقق معي تم تحويلي إلى المحكمة العسكرية مرة أخرى، التي تم بموجبها تأجيلي مرة أخرى شهراً كاملاً بعد الثلاثة أسابيع الأولى..

.. وهكذا.. كلما أجلسوا لي فترة من الزمن، أو زادوا في التأجيل؛ أشعروني المحقق بخطورة الموقف.. حتى يجعلني دائماً في حالة إرباك واضطراب.. وهذا بالفعل؛ كان يترك في نفسي - كإنسان - أثراً كبيراً في كل مرة.

في غياهب الأقيية (1)

لا شك أن التجربة التي خضتها داخل سجون الاحتلال، منحنتني بُعْداً وفهماً بمعظم ما يحيط بي من أحداث، ولمست من خلال معاشتي للأحداث أن التعامل مع الأسرى، من طرف المحققين أثناء التحقيق، يختلف ما بين قضية وأخرى.

فنجد - مثلاً - أن قضية الأسير الذي تتوفر عنه معلومات مسبقة لدى الجهات الأمنية، تختلف عن قضية الأسير الذي لا تتوفر عنه معلومات مسبقة لدى الجهات الأمنية.. (2)

فالأسير الذي تتوفر عنه معلومات أمنية مسبقة أو معلومات ساخنة، كما يسمونها، فهذا النوع من الأسرى غالباً ما يخضع لتحقيق عسكري شديد، بل يستخدمون معه كل الأساليب المشروعة وغير المشروعة، ولو أدى إلى موته، على أمل أن ينتزعوا منه أي اعتراف وبشكل سريع، باعتباره عنصراً يشكل خطراً أمنياً، كما يقولون.

.. فكم من أسير لاقى حتفه وهو تحت التعذيب في أقبية السجون؟

وكم من أسير أصيب بالشلل التام، أو النصفي، أو الجزئي، أو تضرر سمعه، أو بصره، أو أتلّف عضو من أعضائه؟

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/9م.
(2) معظم الأحداث التي جرت معي في التحقيق كانت في شهر (11) وبداية شهر (12) من عام 1997م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. والحديث عن هذا الموضوع يطول، ولا مجال للتفصيل هنا... ولكنني سأحدث اليوم عن نفسي وكيف تعاملوا معي في التحقيق..

.. كان في الأصل أن يتعاملوا معي حسب المعلومات التي يمتلكونها عني، إن كان لديهم معلومات بالفعل، ولكن في حقيقة الأمر لم يكن لديهم أي شيء، ولم يكن لدي أصلاً قضية أو تهمة موجهة ضدي.

ولذلك، لم يستخدموا معي إلا أساليب الشبح، والحرمان والضغط النفسي⁽¹⁾، التي هي أشد من التعذيب الجسدي، فضلاً عن السب والشتم والإيذاء النفسي، والتهديد والوعيد، والإغراءات والعروضات المادية وغير المادية الرخيصة مثلهم، لقولهم: نعطيك كذا، ونعمل لك كذا، ونوصلك لمكانة كذا، وكل ذلك لعلهم يجدون ما يخدم أمنهم.

ولكن، هيهات هيهات لهم أن يصطادوا بالماء العكر.. وعندما قلت للمحقق أبو منير {العبا مع غيري} غضب غضباً شديداً وقال: والله ستذكرني وأنت في القبر..

قلت له: على أي شيء سأذكرك؟ نعم، سأذكرك على السب والشتم والإيذاء وسب الذات الإلهية.

نعم، سأذكرك ولكن.. على طريقتي الخاصة!!

(1) كنت في معظمها في زنازين العزل الانفرادي عدة أسابيع.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

نعم، لا أنسى هذه المواقف الأليمة التي حُفرت في الذاكرة واستقرت في القلب..

.. هكذا كان يستعمل أسلوب الترغيب والترهيب لتحقيق بعض أهدافه، ولكنه فشل والحمد لله.. إلا أنه لم ييأس، ولم يفقد الأمل، بل كانت له آخر محاولة أثناء خروجي من الزنازين الانفرادية إلى معبار الجملة بعد انتهاء التحقيق نهائياً، حيث رفع الكيس الذي يغطي رأسي وقال: خذ هذا الرقم عند الحاجة، وعندما قابلته بعنف، أنزل الكيس على وجهي وبشدة، ثم أمسكه بيده وبدأ يجرنني به جراً، وقال للشرطي بغضب شديد: "خذ هذا...!! لا أريد أن أرى وجهه بعد اليوم".

هذه الأحداث والمواقف كانت تجري معي وأنا أستذكر مواقف الإغراءات التي حصلت مع بعض رموزنا من قادة الحركة الإسلامية؛ فقد سمعت قصة الإغراءات من الشيخ عبد الله عزام⁽¹⁾، التي حصلت مع الدكتور إسحاق الفرحان؛ حيث مُنح الدكتور إسحاق منحة دراسية في تخصص مادة الكيمياء في بيروت أيام المرحلة الجامعية الأولى؛ إذ كان الرجل من الأذكىاء، وقد حاول الماسونيون أن يقدموا له الإغراءات من مال ومنصب وجاه، مقابل أن يكون عضواً في الماسونية، إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً وبقيت الإغراءات تلاحقه حتى على أبواب الطائرة المتجهة نحو بيروت، وكان عرضهم الأخير عليه: نوصلك إلى المركز الذي تريده في الدولة، لكنه رفض رفضاً قاطعاً،

(1) سمعتها من الشيخ مباشرة ولكن يمكن أن يجدها القارئ الكريم في مجلد (في ظلال سورة التوبة) أو بداية المجلد الرابع من (موسوعة الذخائر العظام، للشيخ عبد الله عزام).

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

وما أن وصل بيروت، حتى وجد أن منحة الكيمياء قد ألغيت واستبدلت بمادة التربية..

لم يضعف، ولم يهن، ولم يمل، ولم يكل، فقرر أن يدرس مادة التربية، فنفع الله به المنطقة كلها؛ حيث كان على رأس اللجان التي وضعت المناهج لبلاد الشام، وبعض دول الخليج.

هذا موقف من المواقف البارزة التي واجهها بعض قادتنا، بل ضحوا بكل متاع الدنيا من أجل المحافظة على المبادئ والثبات على المنهج.

ومن أقوى المواقف التي سمعتها من الشيخ عبد الله عزام في مواجهة الإغراءات؛ مواقف سيد قطب رحمه الله، الذي ضحى بنفسه وبكل ما يملك من أجل المبدأ وسلامة المنهج؛ عندما عُرض عليه أن يلغى عنه حكم الإعدام مقابل أن يعتذر لعبد الناصر، فكان موقفه صلباً حيث قال: (إن إصبع السبابة التي تشهد لله بالوحدانية في خمس صلوات في اليوم الواحد لترفض أن تشهد لطاغية بحكم).

وكانت أخته حميدة؛ هي التي نقلت له عرض الاعتذار مقابل إلغاء حكم الإعدام، فقال لها سيد: عن أي شيء أعتذر يا حميدة؟ أعتذر عن العمل مع الله، والله لو كنت أعمل مع غير الله لاعتذرت، ولكني لا أعتذر عن العمل مع الله.

يا حميدة: إن كان العمر قد انتهى فسينفذ حكم الإعدام، وإن كان العمر لم ينته فلن ينفذ حكم الإعدام.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

هذا قليل من كثير من المساومات التي عرضت على سيد قطب رحمه الله وفي مقدمتها الوزارة وغيرها من العروض.

وقد رأينا هذا واضحاً في مواقف الشيخ عبد الله عزام عندما حاولوا أن يساوّموه بالمناصب وزهرة الحياة الدنيا مقابل الخروج من أرض الجهاد قال: لن أخرج من أرض الجهاد إلا بإحدى ثلاث: إما أن أقتل في باكستان وإما أن أقتل في أفغانستان وإما أن تكبلني الحكومة الباكستانية وتلقيني خارج البلاد، بغير هذه الثلاث؛ لن أخرج من أرض الجهاد.

ورأينا مثل هذه المواقف لقادتنا وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، عندما عُرض عليهم أن يؤمنوا على أنفسهم مقابل إيقاف المقاومة، فكانت المواقف رائعة، ثبات على المبدأ، وسلامة في المنهج، كان هذا واضحاً في خلاصة ردهم: "نحن لا نقاتل من أجل أنفسنا، وإنما نقاتل من أجل ديننا وانتزاع حقنا".

كانت مواقف بعض قادتنا حاضرة في ذهني أمام هذه الإغراءات الدنيئة الرخيصة.

ولهذا السبب، بقيت في سجون الاحتلال طيلة هذه المدة الطويلة بدون قضية بناءً على توصية المجرم أبو منير، عندما قلت له: {العبها مع غيري} قال لي: "والله ستذكرني وأنت في القبر".

وسقط الرهان في بطن الحوت (1)

.. كنت قد تحدثت عن عروضات مادية وغير مادية من قبل أبو منير (2)، وكان من بين هذه العروضات التي عرضها: نقيم لك داراً للقرآن الكريم في البلد.. نبني لك عمارة عدة طوابق، نشترى لك سيارة فخمة.. ندفع لك أموالاً كذا وكذا..

.. كنت أنظر إليه وقلبي مفعم بالضحك، سخرية منه واستهزاء به، وما رأيت عدوي أصغر ولا أحقر منه أكثر مما كان عليه في تلك اللحظات، كنت أنظر إليه وأنا أردد في نفسي، (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس)..

.. كنت أنظر إليه ولسان حالي يقول، لم يعلم أبو منير أن النفس التي تقابله.. إنما هي نفس عزيزة.. نفس أبية، نفس لا تباع ولا تشتري، فنفسي ليست سهلة المكسر، ولا لينة المعصر، لا تذوب في الأحماض الصهيونية، وكل ذلك بتوفيق الله تعالى.

لقد خسئ والحمد لله.. وما أن انتهى من عروضه حتى قلت: {العبها مع غيري}.. لا تتعب نفسك، فأنا والحمد لله من الزاهدين في هذه الدنيا وفلوسها ونسائها... لقد عودت نفسي منذ صغري أن هذه الدنيا وزينتها تحت قدمي... وقد سُقْتُ له قصة من حياتي في صغري وقلت له: إن مصروفي اليومي

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/11م.

(2) ضابط التحقيق الصهيوني الذي حقق معي.

الذي كنت أحصل عليه من أهلي لا أجد له تصريحاً سوى حاجة من حاجات البيت.

ولهذا، كانت الوالدة تعاتبني عتاباً شديداً وتقول: نحن نعطيك المصروف لتصرفه على نفسك.. فكانت إجابتي لها دائماً: أنا لست مدخناً كغيري، ولا هاوياً للسينمات كأقراني، ولا مدمناً على القهوات ولعب الشدات⁽¹⁾ كأبناء جيلي، ولهذا، فإن أي مبلغ كان يقع بين يدي لا أجد له طريقاً سوى طريق الخير (بإذن الله)..

... كنت أحدث وضابط التحقيق ينصت لي ويسمع، ولا يدري ماذا يقول.. ولكن أما وقد وجد باب الإغراءات المادية قد سد أمام ناظريه؛ لذا اتجه لطرق الباب الثاني وهو باب النساء، فقال: أنت تشعرني وكأنك لم تزن في حياتك، فقلت له: الحمد لله، وهذا تاج أفخر به، وأحمد الله وَعَلَى أنني لم أتعرض لعرض فتاة من الفتيات في حياتي.

فرد عليّ قائلاً: سندخل عليك فتاة إلى زمرانتك بالقوة...!!

وهنا، أصبح الموقف يتجه نحو المواجهة والتحدي.. فقلت في نفسي: وأنا لها إن شاء الله تعالى..

قلت له: فلتفعل!

(1) لعبة الورق.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. قلت هذا الكلام حقيقة ويدي على قلبي، خاصة وقد حملت هذا الأمر على محمل الجد، وأصبحت أفكر ما الذي سأفعله فيما لو نفذ ما قاله؟ وأصبحت أنسج سيناريوهات لمواجهة هذا الموقف فيما لو حصل..

.. هذا الموقف ذكرني بما حصل مع الحاجة زينب الغزالي عندما أدخلوا عليها رجلاً ليفعل معها الفاحشة.. وما أن دخل عليها حتى أخذت بخانقه وأخرجته خارج زنزانتها وهو في عداد الموتى.

.. ثم أدخلوا عليها ساحرة من الساحرات حتى تسحرها، فتابت الساحرة على يديها وأصبحت من المؤمنات الصادقات..

ويحدث الشيخ عبد الله عزام عن هذا الموقف فيقول: عندما كنت أقدم الدكتوراة في الأزهر⁽¹⁾، زرت الحاجة زينب الغزالي في مصر، وبينما كنت في بيتها وإذ بفتاة تدخل ويدها طبق عليه فناجين من الشاي.

قالت الحاجة زينب: هل تعلم يا شيخ من هذه الفتاة؟؟

قال الشيخ: لا.

قالت: هذه الساحرة التي أدخلوها على زنزانتني لتسحرني، لقد تابت إلى الله توبة نصوحاً، وهي الآن نذرت نفسها لتخدمني طيلة الحياة..

(1) عام 1972م-1973م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

هذه القصص وغيرها كنت أستحضرها دائماً وأنا أمام المحقق، أستأنس بها وأقتدي بقادتنا وبتجاربهم العظيمة، التي أنارت لي الطريق طيلة مسيرة الأسر.

أقول: لقد أخذت الأمر على مأخذ الجد، وخشيت أن يفعلوا معي كما حصل مع الحاجة زينب الغزالي وغيرها، ولكن الله سَلَّمَ..

.. لقد سقط الرهان.. رهان الإغراءات المادية والحمد لله، وسقط الرهان الآخر.. رهان النساء الذي كان يراهن عليه ضابط التحقيق.. والحمد لله الذي جعلنا مسلمين ملتزمين بدينه، وملتزمين بأخلاقنا النابعة من هذا الدين العظيم..

.. ولا يفوتني في هذا الجانب أن أقول استدراكاً مني على ما فات: فإن المحقق أقسم بالله ألا أرى بيتي في سيلة الحارثية⁽¹⁾.. ظناً منه أن ينال من عزيمتي ومعنوياتي، ولكن هذا الأمر في حقيقته، لم يهز شعرة واحدة من بدني أبداً، ولم يثن من عزيمتي قيد أنملة؛ لأن نفسي التي بين جنبي أقسمت قبل أن يقسم المحقق، بأنها صاحبة مبادئ، وليست صاحبة منافع.. آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً، واعتبرت هذا الدين في سلم أولوياتها، فسواء حلف ألا أرى بيتي أو لم يحلف، وسواء رأيته أم لم أره، فكل الأمرين عندي سيان، ما دمت سالماً في ديني وإيماني وإخلاصي لله الواحد القهار.

(1) بلدتي تقع في الشمال الغربي من مدينة جنين وعلى مسافة 8 كم منها.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. ومن هنا أقول: إن المحقق قد أكد على الأمرين معاً:

الأمر الأول: أن أتذكره ولو في القبر، وقد خسئ أن أتذكره إلا في مآسيه.

الأمر الثاني: ألا أرى بيتي في قرיתי، وهذا الأمر ليس بيده أيضاً، وإنما بيد الواحد القهار، قاهر الطغاة والمتجبرين.

.. وثقتي بالله كبيرة.. سأعود آجلاً أم عاجلاً إلى بيتي بإذن الله تعالى، مهما طال الفراق رغماً عن أنوف الظالمين، وعلى رأسهم المحقق الصهيوني المجرم أبو منير..

ما بعد الأقيية (1)

.. بعد أربعة أسابيع ونيف من اعتقاله، نُقلت من زنازين الطابق الأرضي الواقع أسفل بناية التحقيق في سجن الجلعة، إلى الطابق الثاني أو الطابق الأول الذي يتساوى مع سطح الأرض.

.. كان الطابق الأرضي مخصصاً للأسرى الجدد، ممن لم يسبق اعتقالهم حتى يكونوا فريسة أو لقمة سائغة بين براثن العصفير⁽²⁾، لأن العصفير في هذه المرحلة يعملون رديفاً للمحققين، بل يقومون بدور مهم، وهو حلب ما تبقى من معلومات لدى الأسير.

ويتحرك هؤلاء بطرق متعددة، ويتخفون بأشكال مختلفة، ويتقمصون أسماء شرفاء، وكنى وطنيين معروفين لاستغلال الأسرى الجدد وتضليلهم، فتارة يكونون في زنازين التحقيق، وتارة أخرى في البوسطات⁽³⁾، وتارة ثالثة في السجون المركزية بين الأسرى، بل تارة يكون لهم غرفاً كاملة أو أقساماً بكل غرفها، وهكذا..

فكم من أسير حكم سنوات معينة، ثم سحب من السجون المركزية للتحقيق، وحكم مرة أخرى بحكم ثانٍ وثالث أحياناً، سواء عن طريق هؤلاء العملاء أو عن طريق اعترافات من أسرى آخرين.

(1) كُتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/12م.

(2) العصفير: جواسيس إدارة السجون.

(3) سيارات نقل الأسرى من سجن إلى سجن أو نقلهم إلى المستشفيات للعلاج.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

فالأسير ليس في مأمن من هؤلاء، حتى ولو انتهى من التحقيق وذهب للسجون المركزية.

.. أما الطابق الثاني، الذي انتقلت إليه، فهو خاص بالأسرى الذين كان لهم سابقة في الاعتقال، وهم يعرفون العصافير وطرقهم وأساليبهم الخبيثة الماكرة بشكل جيد..

ولهذا، كانت المخابرات تجنب هؤلاء الأسرى القدامى الطابق الأرضي، حتى لا يكشفوا العصافير للأسرى الجدد، وبالتالي، يؤدي إلى إفشال المهمة التي أوكلت إليهم ...

.. ومن خلال مجريات الأحداث التي عشتها في هذه المرحلة، كان لا بد لي من أن أسجل بعض المواقف المهمة التي حصلت في هذه الفترة من شهر نوفمبر 1997م:

أولاً: لم يمض على وجودي في الدور الثاني في سجن الجلطة سوى أسبوع، حتى استدعتني لجنة مكونة من ثلاثة ضباط مخابرات، من بينهم المحقق أبو منير، الذي حقق معي طيلة فترة التحقيق، وأبلغوني أن "حكومة إسرائيل" قررت إبعادي إلى الأردن، فأحسست من داخلي أن هناك خدعه تنتظرني دون أن تتضح معالمها...

وفعلاً، تقرر بعدها بساعتين نقلي إلى سجن مجدو مباشرة، انتظاراً لصدور قرار الإبعاد من "وزارة الخارجية الإسرائيلية" حسب ادعائهم..

ثانياً: أن المكان، الذي نزلت فيه كان غرفة من الغرف الكبيرة في سجن مجدو، تتسع لأكثر من عشرة معتقلين ممن يقومون بدور التمثيل من أبناء ابن سلول، ممن يتقنون قراءة القرآن وتجويده وتفسيره، والمأثورات واستعمال المسابح واللى الطويلة، ولا يكاد شاك أن يشك بهم، ولا ظان أن يظن بهم ظن السوء، إنهم حفدة ابن سلول وأبي رغال.. وسواء عرفناهم أم لم نعرفهم لم يكن لدينا ما نقوله أكثر مما قلناه خلال التحقيق.

والشيء الملفت لدي، أن اسم العصفير ما كان يغيب عن ذهني أبداً، لأنني كنت أسمع باستمرار هذا الاسم يتردد من قبل الإخوة الأسرى المحررين، ولكن الشيء الذي ما كنت أتوقعه أن تكون غرفة بكاملها، أو قسم بكامله، عملاء لإدارة السجن ممن يحفظون القرآن والمأثورات وإمامة الصلاة.

.. لم يطل بنا المقام عندهم أكثر من أسبوع، نقلنا بعدها إلى محكمة الجلمة مباشرة لنجد الأهل والمحامي بانتظارنا هناك..

ثالثاً: وهنا، أقف لحظة عاطفية مؤثرة ومؤلمة، أتذكر فيها كيف أدخلوني لقاعة المحكمة، وأنا مكبل اليدين، ومقيد الرجلين، أمام أهلي، ومعارفي مما أثار حفيظة والدتي - رحمها الله - أمام هذا المنظر المؤلم، الذي انتهى باندفاعها نحوي وهي تصرخ في وجوه الجنود.. أدى بالتالي لإخراجي بسرعة خارج المحكمة.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. إنها لحظات عاطفية، مؤثرة، ومؤلمة أن ترى الوالدة ولدها وهو على هذا الحال، مكبل اليدين ومقيد القدمين..

.. غُيِّبَتْ عن الأنظار قليلاً ثم أعادوني مرة أخرى بدون قيد، وكان التأجيل بالطبع ينتظرني..

أما الأهل فلم يكن لديهم شيء أكثر مما كانوا يتمنون اللقاء معي، واشتياقهم لرؤيتي، والحديث معي، إلا أن الأوامر المشددة لدى الجنود الذين كانوا يقودونني إلى الزنازين كانت صارمة بعدم السماح لأي إنسان أن يتحدث معي أبداً..

.. لم يكن هناك رافة بأم يحترق قلبها حناناً على فلذة كبدها، وهي تتمنى أن تحتضن ابنها ولو للحظة من اللحظات..

.. ولم يكن هناك رحمة بشيخ كبير يتشوق لرؤية ولده والحديث معه.

.. ولم يكن هناك شفقة بزوجة كي توصل مشاعرها لزوجها، إلا من خلف السياج، وبكلمات خاطفة رغماً عن إرادة الجنود المحاطين بالأسير إحاطة السوار بالمعصم.

.. نقلت مرة أخرى إلى الزنازين من جديد، لكن الزنزانة التي نقلت إليها هذه المرة تختلف عن سابقتها؛ لا تتعدى مساحتها مترين بعرض حجم الفرشة المقطعة الأوصال التي وجدتها أمامي.. لا يوجد فيها دورة مياه (حمام)، لذا لم تغمض لي عين في تلك الليلة أبداً.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

إنها ساعات.. لكنها طويلة، كان لا بد لي من قضاء الحاجة على أقل تقدير، فضربت الباب بقوة، فلم يسمع أحد.. وهنا، لم أجد طريقة لإيصال صوتي لمن يهمه الأمر إلا عبر حذائي.. فطرقت به الباب وبكل ما أوتيت من قوة، حتى رأيت شرطياً مستنفراً ومنفعلاً وهو يتمم ببعض الكلمات العبرية، فأشرت إليه ببعض الإشارات، ففهم أنني بحاجة لدورة المياه.

أقول: فهم مقصدي، واستجاب لدعوتي، فقضيت حاجتي ثم عدت إلى زنزانتني، وللأسف الشديد تكرر الأمر معي قبل الفجر، ففعلت كما فعلت في المرة الأولى..

وهكذا، قضيت تلك الليلة العصبية التي لم أذق فيها طعم النوم، ولا طعم الحياة، ولا تقدير لإنسانية الإنسان..

رابعاً: في الثامنة صباحاً استدعاني المحقق (أبو منير)، وأخبرني بأنني كنت عند العصافير، ثم سألني هل عرفتهم؟؟ فقلت له: إن الأمر لا يعني، سواء عرفتهم أم لم أعرفهم، فليس عندي ما أقوله أكثر مما قلته لك..

عندها، أخرج رسمة من الرسومات وهي عبارة عن هيكلية لأعمال مكتب الخدمات، تتعلق بالأمور الإغاثية، وهي معلومة معروفه لدى القاصي والداني، فقلت له: لا تفرح، فهذا الأمر ليس سرّاً، فهو منشور في كتاب⁽¹⁾ أعمال مكتب الخدمات منذ سنوات ووزع في جميع أنحاء العالم..

1 (كتاب أسميناه دور مكتب الخدمات في خدمة الجهاد الأفغاني.

عندها، لم يجد ما يلبي طموحاته، فحولني إلى زنزانة رقم (11) التي كنت فيها سابقاً (1) ..

.. وهكذا كنت ولا زلت بالملابس التي اعتقلت بها، وبقيت على هذه الحال طيلة فترة التحقيق في الجلابية والطاقيّة البيضاء، وخلال وجودي في تحقيق سجن الجملة، داخل زنزانة رقم (11) حصلت عدة مواقف، كان من أهمها (2):

الموقف الأول: ذات ليلة، كان الصداق قد أخذ مني مأخذه، حيث استدعتني لجنة أخرى من المخابرات بعد أن عدت من استضافة العصافير!! ويبدو أنّ هذه اللجنة قدمت من خارج السجن حسب اعتقادي وتقديري والله أعلم، وقد جلست معي بعد الثامنة مساءً، واستفسرت مني عن بعض الأمور أيام أن كنت في باكستان، كان من بينها حيازة سلاح شخصي جرى ذكره أثناء التحقيق، فقلت: هذا أمر طبيعي في تلك البلاد؛ لأن المنطقة كلها منطقة قبلية ولا يخلو بيت إلا وبداخله سلاح شخصي للحماية الفردية من اللصوص وقطاع الطرق المنتشرين في تلك البلاد.. فأنا أستاذ جامعي، كنت أدرس في الجامعة، فنصحني أحد طلابي بأن يكون لدي سلاح شخصي للحماية الشخصية، وهذه هي الخلاصة..

(1) نزلاء هذه الزنزانة لمن انتهوا من أعمال التحقيق ولم يبق لهم إلا تشطيب وإغلاق ملفاتهم وهي توطئة لإرسالهم فيما بعد إلى معيار الجملة كمرحلة ثانية ثم إلى السجون المركزية وهي تتسع لأربعة أسرى.

(2) هذه الأحداث جميعها حصلت في شهر ديسمبر 1997م في عزل سجن الجملة.

قالوا: أين تدربت على هذا السلاح؟؟

قلت لهم: الأمر في غاية البساطة، ولا يحتاج إلى تفكير أو استغراب، فالحدود الباكستانية تعتبر كلها أحزمة قبلية مفتوحة للجميع، وهذا الأمر ليس سراً أيضاً..

أما بقية أسئلتهم فكانت أسئلة عابرة، ولكنني في نهاية الأمر لم أتمكن من تقييم مقصد هذه اللجنة، اللهم إلا أن هذه الخطوة إنما هي الخطوة الأخيرة في البحث عن بند واضح لتقديم لائحة اتهام لإنهاء ما تبقى، لإغلاق ملف التحقيق حسب اعتقادي وفهمي وتقديري من خلال الأسئلة التي كانوا يطرحونها.

الموقف الثاني: استدعاني بعدها بأسبوع، رجل مخابرات يتكلم العربية بطلاقة ولهجة مصرية، إلا أن اللقاء كان مختصراً حيث انصبت أسئلته حول ما تم التحقيق فيه معي... ولكنني - أيضاً - لم أتمكن من معرفة المغزى الحقيقي لهذه الجلسة، سوى البحث عن بند واضح لتقديم لائحة اتهام ضدي، ولكن دون جدوى...

الموقف الثالث: استدعاني المحقق الصهيوني -أبو منير- إلى مكتبه، وأحضر قائمة من الأسماء، وسألني عنهم، فأجبته بعدم معرفتي بهم جميعاً، عندها طلب مني أن أكتب هذه القائمة بخط يدي، فرفضت ذلك... ثم أحضر بعدها خريطة وطلب مني تحديد الموقع الذي تدربت فيه على سلاحي الشخصي فقلت له: لا أعرف للخرائط...

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ترك الخريطة أمامي وكان شخص آخر على باب المكتب، فطلب مني المحقق أن أعطيه الخريطة من أمامي، وما أن حملت الخريطة حتى فاجأني الذي على الباب بصورة يلتقطها لي، وكأنه يريد أن يُخيفني بصورة والخريطة بيدي، وقد فسرتها بأنها أسلوب من أساليب الحرب النفسية، وقد يكون لهم أهداف أخرى غير هذا التفسير، والله أعلم.

.. فأساليب المخابرات الصهيونية كما هو معروف خبيثة، لا يعلمها ولا يعرفها إلا من كان له باع طولى في هذا المجال.

الموقف الرابع: هكذا كان وضعي، ما بعد فترة التحقيق والزنازين الانفرادية، فمعظمها عملية استدعاءات ما بين الفينة والأخرى.

فقد استدعاني المحقق ذات مرة إلى مكتبه، ولم أكن أعلم ما في جعبته من أسئلة، وإذ به يسألني بسؤالٍ لم أكن أتوقعه، باعتباره خارجاً عن نطاق التحقيق وخلاصته: هل الجن يدخل في الإنسان؟؟

ففهمت فوراً أن أسيراً من الأسرى حاول أن يمثل عليهم بشيء من هذا القبيل، فقلت له: نعم، الجن يدخل في الإنسان..

قال: هناك أسير يدّعي أن فيه جنياً، هل تستطيع أن تخرج الجن من هذا الأسير؟

قلت له: لا أستطيع.. وفجأة، وإذ بشرطي يقود أسيراً مغطى الرأس بكيس من أكياس التحقيق المعروفة، ثم أجلسه بجانبني ورفع الكيس عن رأسه، وإذا

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

بشباب جهم وجدته أُمامي، ووجدني أُمامه وجهاً لوجه، لا أعرفه ولا يعرفني، فتوجست منه خيفة، وتوجس مني خيفة.. كيف لا؟؟ وقد وجد نفسه فجأة أمام شيخ ملتجٍ، يلبس جلابية وطاقية بيضاء..

.. نظرت إليه، وإذا بينطاله ممزق بين رجليه، مكسور النفس والخطر.. عرفت عندها أن هذا الأسير واجه تحقيقاً صعباً مصحوباً بالضرب والتعذيب، ومع هذا لم يشفع له عندي بأن يصبح هذا الشاب مصدر ثقة.. وكنت ولا زلت أعتقد أن كل ما يجري حولي وأُمامي إنما هو من فعل المخابرات، ومصيدة من المصائد؛ لاستغفالي ودفعي إلى مطب مجهول... .. حاول ضابط المخابرات (أبو منير) أن أتحدث معه وأن يتحدث معي، ولا أذكر أن عدد الكلمات التي تحدثناها معاً لا تزيد عن العشر كلمات، كان من ضمنها التعارف الذي حصل بيننا.. ولم أحفظ منه إلا اسم بلال⁽¹⁾ الاسم الذي يحمله.

.. افترقنا لالتقي بعدها بسنتين في سجن عسقلان، ولكن في جو غير الجو الذي التقينا فيه أول مرة، وإذا هو أخ حبيب من خيرة إخواننا. .. إنه (بلال أبو عصبه).. فتعارفنا وتذاكرنا الأحداث في ذلك الموقف، وهكذا، كلما تذكرت هذه القصة يغلب عليّ الضحك أحياناً على المشهد الذي كان يمثله على المخابرات، وأحياناً أخرى أتذكر هيبة ذلك الموقف الرهيب.

(1) بلال أبو عصبه من قرية رفاة " الضفة الغربية "، ولم أعرف اسم العائلة إلا بعد أن التقينا في سجن عسقلان فيما بعد.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. إِنَّ من يعيش حياة التحقيق، غالباً ما يجد نفسه أمام واقع موبوء ومشحون، بل يعيش في هوس أمني أحياناً، قد يصل به الأمر إلى عدم الثقة بأحد ممن يلتقيهم داخل أقبية التحقيق.

.. ومن هنا، فإنني أقول: إن فترة التحقيق فترة خداع بمجملها، رغم الحذر الشديد، والهوس الأمني الرهيب، الذي يعيشه الأسير⁽¹⁾..

الموقف الخامس: تفاجأت ذات مرة عند غروب شمس يوم من الأيام، وإذا بالشرطي يخلي من معي من الأسرى في زنزانة رقم (11)، التي تتسع لأربعة أسرى.. فبقيت وحدي، فذهبت بي الظنون، أنهم سيحضرون لي مجموعة من العصافير بدلاً منهم..

هذا هو التفسير المنطقي، الذي يمكن أن يفسره أي أسير من الأسرى في مثل هذه الحركة، التي تخلو من البراءة، أو أن يظن بها أي أسير الظن الحسن.

أُذِنَ للمغرب، فقامت وصليت، ثم أُذِنَ للعشاء، وفي أثناء صلاتي دخل الزنزانة أسيران، تمتم أحدهما بشيء من الكلمات.. فهمت منها جملة واحدة، على سبيل الاستغراب، خلاصتها: ما الذي جاء بنا هنا؟؟ ثم جلسا حتى انتهيت من صلاتي.. فعرفنا بنفسيهما.. أنهما من حزب التحرير الإسلامي..

(1) كان العصافير يقولون لمن ينزل عندهم: إياك أن تعيش في هوس أمني، وهذا نوع من التمهيد للأسير حتى يسترخي ويثق بهم ويكون فيما بعد لقمة صائغة لهم.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ولا أخفي عن قارئِي الكريم، أنني تشككت بحقيقتهما منذ اللحظات الأولى؛ لأن حزب التحرير - أصلاً - ليس له ناقة ولا جمل على الساحة الجهادية في فلسطين، وهذه قرينة قوية ساقنتني لعدم الاطمئنان لهما...

.. بعد التعارف، طال الحديث بيني وبينهما، وفجأة أشعل أحدهما سيجارته وطرح عليَّ سؤالاً يختص بحكم الدخان، فقابلته بسؤال آخر، واشترطت عليه إن أجاب عن سؤالِي فسندخل في نقاش بشأن حكم الدخان، فوافقتني على ذلك..

قلت له: هل الدخان من الطيبات أم من الخبائث؟ فرد عليَّ بجواب سريع قائلاً: بل من الطيبات، فقلت له: سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، ثم أنهيت النقاش نهائياً، فتبين لي فيما بعد من إخواننا الأسرى، الذين التقيت بهم في معبار الجلعة، أنهما عصفوران، بل جاسوسان من جواسيس إدارة السجون..

الموقف السادس: كنت على موعد أخير للمحكمة العسكرية في الجلعة بتاريخ 1997/12/17م، تقابأت في صباح ذلك اليوم وفي الساعة الثامنة صباحاً، أي قبل أن أمثل أمام المحكمة بساعة، وإذ بضابط أمن يدخل عليَّ في زنزانة رقم (11) ويده ورقة وقلم، وطلب مني أن أوقع على عملية إبعاد نحو الأردن، فرفضت وقلت له: إنَّ موعد المحكمة بعد ساعة من الآن، وسيكون بيني وبين المحامي مشورة حول هذا الموضوع..

قال لي وبغضب شديد: سواء وقَّعت أم لم توقع؛ فسنستصدر قراراً من المحكمة بإبعادك إلى الأردن..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وبعد ربع ساعة، عاد وأخذني من الزنزانة للمحكمة، ثم أرجعني وبشكل سريع لأقرب زنزانة صغيرة، فشعرت بوضعهم المضطرب والمرتبك، وقد مكثوا على هذه الحال ما يقارب الساعة، ثم عاد وأخذني إلى المحكمة، فوجدت الأهل والمحامي بانتظاري، ونطق القاضي بقرار خلاصته: إهمال النيابة ثلاثة أيام لتقديم لائحة اتهام، وإلا سيُخلي القاضي سبيلي فوراً..

.. نقلت بعدها مباشرة إلى معبار الجلطة، وهو لا يبعد عن المحكمة والزنازين سوى عشرات الأمتار.

الموقف السابع: في الزنزانة الصغيرة، التي أُلقيت فيها قبل ذهابي إلى المحكمة العسكرية للنطق بالحكم النهائي صباح يوم 1997/12/17م.

تفاجأت؛ وإذ بباب الزنزانة يفتح على غير العادة، وبشكل جنوني، ليتبعه مباشرة شاب يلقي في داخلها، مكبل اليدين، ومقيد الرجلين، فنظرت إليه بتوجس، ونظر إليّ بمثلها، ولا أحسب أحداً من العقلاء يستغرب مثل هذا الموقف، خاصة ونحن نعيش في ظل ظرف قاس، وأجواء تحقيق، ولكن في حقيقة الأمر سرعان ما تبددت هذه الشكوك وانقلب الخوف تجاه بعضنا البعض إلى طمأنينة وسكينة، وإذ بحديث يجري بيننا بانفتاح قلما يحصل بين أسيرين في أول لقاء بينهما، ولا أدري - والله - كيف حصل هذا التآلف، وهذه المودة التي بُنيت بيني وبينه في لحظات سريعة، رغم العقلية المهووسة، التي يعيشها الأسير تجاه أي أسير آخر، خاصة أثناء التحقيق.

أقول: بدأ الاندماج والتعارف فيما بيننا، وبشكل سريع، وبكل أريحية؛ حيث بدأ بنفسه أنه (تيسير جابر) من طولكرم، واستمر بحديثه عن حياته وحياته أهله، وذكر، فيما ذكر في حينها، أنهم أصحاب مخازن موز وأبو كادو في وسط طولكرم على دوار المدينة، ثم ساق لي منهج والده في تربية أبنائه في الحياة، وأنه لا فرق عنده ما بين صغير وكبير في الحياة المادية، وأن الذي يجمعهم حصالة واحدة، ومائدة واحدة، بعيداً عن التمييز والأنانية، إلى أن يتأهل منهم الولد الأصغر، ثم يترك الخيار بعدها لكل واحد منهم، ليعيش حياته المستقلة، فيكون الوالد قد اطمأن على سلامة مسيرة الولد الأصغر قبل مغادرته الدنيا.

حقاً، كان الرجل يحدثني وأنا أستمع إليه، فقلت له: لا أخفيك أخي الحبيب، ما يدور في نفسي بأن المنهج الذي خطه والدك تجاه أبنائه هو نفس المنهج الذي انتهجته تجاه أبنائي، وأن القناعة التي حملها هي نفس القناعة التي حملتها.

وأن كل واحد من أبنائي ربيته على هذا النهج، بأن يعمل كل منهم في بناء العائلة، والمشاركة في هموم أفرادها المادية والمعنوية إلى جانبي.. إلى أن يتأهل الولد الأصغر في العائلة، ثم يعيش بعدها كل واحد منهم حياته المستقلة.. مع حرص الجميع على تماسك أفراد العائلة.

وما أن وصل الحديث بيننا، إلى ما وصل إليه، حتى تقاجأنا بشرطي مهووس يفتح باب الزنزانة من جديد، وينترع صاحبنا بشكل جنوني، وينقله إلى مكان آخر.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ومنذ تلك اللحظة لم ألتق معه، لا في داخل السجون ولا في خارجها، لكن ما دار بيني وبينه لا أنساه أبداً.

ويشاء القدر أن أتسم نسمات الحرية، بعيداً عن مسقط رأسي، لأتمكن بعدها من العثور على رقم جوال أخي الحبيب (تيسير) من أحد زملائه، وذلك بعد ثلاثة أعوام من انعتاقي من سجون الاحتلال، ليتم التواصل بيني وبينه عبر الجوال، بعد خمسة عشر عاماً من ذلك اللقاء، فكانت المفاجأة.. حيث تذاكرنا كل ما جرى بيننا في تلك الزنزانة الظالم أهلها..

وخلاصة الموضوع، أن هذه القصة إنما هي قصة حقيقية، وهي من أكثر القصص غرابة حصلت معي داخل سجون الاحتلال، وتكمن غرابتها في أمرين:

الأمر الأول:

الاندماج السريع الذي حصل بيني وبين هذا الأسير من غير معرفة سابقة، كان حقيقة أمراً ملفتاً، بل كان مستغرباً، وهذا لم ينطبق على أي أسير آخر عشت معه داخل سجون الاحتلال؛ أن اندمج معه بمجرد رؤيته، وبهذه الثقة الكاملة، مما قد يستدعي البعض إلى القول، ولأول وهلة في تقدير موقفهم لهذه الحادثة: إنَّ هذا غياب بكل معنى الكلمة في المقياس البشري.

الأمر الثاني:

أن هذا اللقاء، الذي تم بيننا على غير موعد، كان لا يتجاوز سقفه النصف ساعة أو أكثر بقليل، الذي انطبعت كل تفاصيله في ذهني، ومن الصعوبة

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

نسيانه على مدار السنوات الماضية، علما أنني التقيت وخالطت كثيراً من الأسرى من ذوي الأحكام القصيرة، إلا أنني نسيت كثيراً من القصص والأحداث التي كانت تدور بيننا.

ويبقى السر قائماً، لا يفسره إلا حديث رسول الله ﷺ (الْأَزْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)(1).

وكذلك: (إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)(2).

1 (حديث صحيح رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم.
2 (حديث صحيح رواه أنس بن مالك وأخرجه الترمذي.



المقام في معبار الجملة

وما تلاه من أحداث

- المقام في المعبار.
- الطريق نحو الأردن قسراً.
- شجار.. انتهى بي المقام مرة أخرى في المعبار.
- الخطوة اللاحقة.
- الأسير والضغط النفسي.
- الخطوة الاضطرارية.
- الإضراب يتواصل لأيام ثمانية.
- زيارة الأهل بعد الإضراب.
- محكمة حيظا المركزية.
- إلى الأردن مرة أخرى.
- الإضراب مرة ثانية.. والصيد في الماء العكر.
- إلى المحكمة العليا في القدس.



المقام في المعبار (1)

.. انتهى بنا المقام في معبار الجملة (2)... وبعد أن أعطت المحكمة مهلة يومين اثنين للنيابة لتقديم لائحة اتهام ضدي، جاءني (3) ضابط الأمن مرة أخرى، يطلب مني التوقيع على عملية الإبعاد للأردن دون الرجوع للمحكمة. لم أكن حقيقة أصدق ما تراه عيناى، ولا ما تسمعه أذناى، خاصة بعد أن أعطاني المحامي الأمل، بأن الإفراج على الأبواب، بل قد لا يتعدى الوضع الساعات القادمة.

هذا الأمر جعل ردة الفعل عندي قوية على ضابط الأمن، وانتهى بنا الأمر برفض التوقيع على الإبعاد.

عندها، انتظرت أياماً لعلني أظفر بخبر يقين من المحامي، ولكن دون جدوى.

.. فكرت كثيراً، وطال بي التفكير في خلوتي لبعض الوقت، وأصبحت أستخير وأستشير، فجاءتني بعض النصائح من بعض المحامين عن طريق بعض الأسرى القادمين من المحاكم، نصحوني بالموافقة على الخروج للأردن؛ وإلا فقد يكون مصيري البقاء في السجن لمدة طويلة..

.. بعد هذه الاستشارة والاستشارة، وبعض النصائح ممن نظن أنهم عقلاء من إخواننا الأسرى، امتثلت لنصائحهم، ووقعت على الإبعاد، ظناً مني أنه بهذا التوقيع سيكون الطريق مُعبداً للخلاص.. ونوراً يتلأأ في نهاية النفق.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/19م.

(2) معبار الجملة: هو عبارة عن غرفة أمنية في سجن الجملة الجنائي، ينتهي إليه كل من انتهى من عملية التحقيق ليتم توزيعهم فيما بعد على السجون المركزية حسب قضاياهم..

(3) هذه المرحلة كانت ما بين تاريخ 1997/12/17م وما بين تاريخ 1997/12/28م.

الطريق نحو الأردن قسراً⁽¹⁾

.. في اليوم التالي⁽²⁾، تم نقلي بواسطة سيارة فورд إلى الحدود الأردنية عبر بوابة أريحا... وبعد الإجراءات الروتينية على الجسر تم إخلاء سبيلي داخل الحدود الأردنية وبشكل اعتيادي، وكأي مسافر عادي إلى أن وصلت مبنى الجوازات الأردنية، فأحالوني على ضابط أمن، أخبرت من خلاله أنني مبعد من قبل الإسرائيليين⁽³⁾، والأردن لا يقبل مبعدين.. فأنت فلسطيني.. أهلك وأرضك وبيتك وزوجتك وأولادك في فلسطين، لا بد من العودة إليهم.. حاولت أن أتحدث معه لأقنعه بأن رجوعي معناه رجوعي إلى السجن مرة أخرى، ولكن دون جدوى.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/20م.

(2) هذا الحدث كان في 1997/12/28م، وهي محاولة الإبعاد الأولى إلى الأردن.

(3) كان اليهود قد ختموا على جوازي الأردني كلمة "كروش" باللغة العبرية ومعناها؛ مبعد أو مطرود.

شجار... انتهى بي المقام مرة أخرى في المعبار (1)

وخلال هذا الجو الذي خيمت عليه ظلمة الليل البهيم، كان شجاراً حاداً يدور بين الضابط الأردني والضابط الإسرائيلي على الحدود، في الوقت الذي كانت الساعة تشير فيه نحو الثانية عشرة ليلاً⁽²⁾.

أقول: وبينما كان السجال على أشده بين الضابطين، ما بين سب وشتم، وجدت نفسي أتمشى على الجسر الحديدي الذي يربط بين نقطتي العبور⁽³⁾، ولسان حالي يردد عبارة بما يتفق مع الأغنية المشهورة، أيام أن كنا نسمعها ونحن في مرحلة الطفولة: "جسر الحديد انقطع من دوس رجلي".

.. ولعل القارئ لهذه المعاني لا يدرك الأحاسيس والمشاعر الأليمة التي كانت تعتريني في تلك اللحظة، وبالتأكيد سيتفق معي في تصوير هذا الواقع الأليم، ليقول في النهاية: (شر البلية ما يضحك)..⁽¹⁾

.. انتهى النقاش والجدال بين الإسرائيليين والأردنيين -بعد ساعات- بإعادتي إلى الجانب الإسرائيلي في أواخر ساعات الليل من نفس اليوم، وقضيت ليلتي في أريحا داخل زنزانة جرداء بلا ماء أو دورة مياه وأنا في حالة نفسية صعبة.

كان من المتوقع في ليلتها أن نصح على أول يوم من أيام رمضان، ولك أن تتصور أخي الحبيب، كيف يمكن أن تكون المشاعر في مثل هذه الحال، وفي ظل هذه الظروف القاسية الصعبة داخل هذه الزنزانة؟

أقول: حقاً، لا أجد في مثل هذه اللحظات إلا المشاعر الفياضة من خلال شريط الذكريات، وهو يعود بنا إلى الخلف قليلاً لنعيش مع تلك الذكريات

(1) كُتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/21م.

(2) مساء 1997/12/28م

(3) الجسر الذي يربط بين فلسطين والأردن ويطلق عليه جسر النبي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

والمناسبات.. كيف كنا نعد فيها ونستعد لليوم الأول من رمضان ونحن بين الأهل والخلان؟

والذي زاد الطين بلة أن الوالد بعطفه وحنانه، عندما علم أنني سأنقل إلى الأردن كان قد سبقني بيوم، وكان ينتظرني هناك وهو يعيش لحظات على أحر من الجمر⁽¹⁾، ولكن الصهاينة أعداء الله ﷻ لم يتركوا فسحة لعطف أب يحتضن ابنه بين يديه بعد غياب طويل.

.. إنها ليلة مشهودة.. انقضت على مضض، بعد أن عانيت فيها من عدم وجود دورة مياه لقضاء الحاجة..

كانت تلك الليلة من الليالي المشهودة في حياتي، وفوق كل ذلك لم أكن أعلم إلى أي الجهات سيتم نقلي، حتى جاء وقت العصر من اليوم التالي، لأنقل مرة أخرى إلى معبار سجن الجلمة.

الخطوة اللاحقة (2)

.. في ظل هذا الوضع، كان لا بد لي من التشاور مع المحامي حول الخطوة اللاحقة⁽³⁾، فاتفقنا على أحد خيارين:

1. إما أن ترفع القضية للمحكمة العليا الإسرائيلية في القدس.
 2. وإما أن يذهب المحامي إلى الأردن، لعله يجد مخرجاً لما نحن فيه...
- وفعلاً، استقر الرأي على الخيار الثاني، فقام المحامي بزيارة خاطفة للأردن على حسابي الخاص⁽⁴⁾ إلا أنه، وللأسف الشديد، عاد بخفي حنين..

1 (عندما علم والدي أن اليهود أرجعوني إلى السجن مرة أخرى، صُدم وأصيب بنزيف شديد نقل على أثرها إلى المستشفى.

2 (كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/22م.

3 (كانت أوائل عام 1998م.

4 (دفعت مصاريف المحامي من مالي الخاص (\$2000).

الأسير والضغط النفسي (1)

.. من الطبيعي ألا يفهم القلق والضئك ومدى المعاناة، التي يعيشها الأسير، إلا من كابد معاناة الأسر، وأحس بآلام الاعتقال..

.. وقد يجد الأسير نفسه قبل الحكم في قلق دائم، لا يزوق معها طعماً لحياة، ولا لذة لطعام، ولا راحة لبدن، إلا بعد أن ينتهي من المحاكم والمحاكمات.

بخلاف الأسير المحكوم من حيث الراحة النفسية النسبية، والجسدية، والتفرغ للاستفادة من واقع الأسر، وذلك عبر برنامج يومي أو شهري أو سنوي..

.. من هنا، فإنني لا أبالغ إن قلت: إنني عشت - داخل نفسي - طيلة سنوات الأسر في وضع مضطرب، لا يعلمه إلا الله ﷻ ..

ولقد عشت هذه الفترة الطويلة بنفسية الأسير الموقوف دون تهمة (2) ومن غير حكم، بل وتحت ضغط نفسي كبير.. وهذا من طبيعة النفس البشرية.. ولولا توفيق الله ﷻ، وصلتي القوية بالله منذ اللحظات الأولى من أسري، لكان الأمر على غير الذي أنا عليه، ومن كان في شك مما أقول: فليسأل من كان به خبيراً..

.. فكم من أسير محبط متضجر، رأيناه على الساحة الاعتقالية...؟؟

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/23م.

(2) هذه الفترة كانت في أوائل عام 1998م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. وكم من أسير يعيش داخل الساحة الاعتقالية، قد فقد أعصابه، إلا من استمسك بالعروة الوثقى...؟؟

إن موطن الأسر، يحتاج إلى أن يربط الأسير نفسه بالله أولاً وأخيراً، حتى يستطيع أن يتحمل العبء الكبير وثقل المعاناة إلى أن يتجاوز محنته بفرج من الله ﷻ .

ومن هنا، فإنني أقول: كل من عاش واقع الأسر، وتذوق طعم الاعتقال، ثم تنكب المنهج الرباني، وقطع صلته بالله ﷻ، وربط نفسه وأمره بعبد الله والبشر؛ فإن مصيره - لا محالة - كمصير الذين تحدثنا عنهم آنفاً.

وفي هذا المقام، فإنني أتحدث عن وضعي كأسير عاش معلقاً تحت الضغط النفسي، في وضع اللا تهمة واللا حكم.. فإنه، رغم هذا الجو القاتم، والظلام الدامس، والواقع الأليم الذي عشته في المعتقل، إلا أنني لم أفقد الأمل أو أي بصيص من نور والحمد لله.

لقد كنت أعيش داخل سجون الاحتلال طيلة سنوات الأسر الاثني عشر عاماً، غالباً بنفسية المستبشر⁽¹⁾، حتى وصل بإخواني أن يقولوا لي: وكأنك لست مسجوناً يا أبا عادل..

1 (كنت حقيقة لا أظهر المعاناة التي كنت أعانيها حتى لا أحبط غيري ولكن الابتسامة غالباً ما كانت تفارقني بين الشباب.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

فكنت أقول لهم: ليتكم تأتون وتطلعون على قلبي وداخلي حتى تروا ما فيه من جراح وآلام، ولكن التضجر يفرح سجاني، ويقلق إخواني، ويحرق حسناتي، ويبدد آمالي.

إن الأسير في غالب حياته يعيش على بعض الآمال، فإذا فقدت هذه الآمال يصبح مهملاً ومحبطاً، بل لا يرى في الحياة إلا من خلال نظارة سوداء.

ولذلك كلما لاحت فرصة من الفرص يراها الأسير فرجة أو فسحة للإفراجات، تجد نفسه تنتعش وتتجدد على هذا الأمل الذي يراه قادم من بعيد.

ولكن سرعان ما تتبدد هذه الآمال، وينتكس هذا الطموح إذا غابت هذه الآمال؛ لتعود نفس الأسير تتحسس على أمل آخر من جديد، وهو يطوي حياته في غياهب ظلمة السجن والسجان.

ومن هنا، كان الأمل واسعاً، في محطات أسري، فما أن يتبدد أمل حتى يتبعه أمل آخر، حتى يتجدد في أعماق النفس، وكان من بين هذه الآمال، التي أنظر إليها في مرحلة من المراحل، أن كلفت المحامي بالذهاب إلى الأردن لعل الله يُقَدِّر أن يجد لقضييتي مخرجاً وفرجاً..

ولكن المفاجأة، سرعان ما تبددت الآمال، بعد أن عاد المحامي بخفي حنين من الأردن، ما دفعني للتفكير بخطوة لاحقة، كان لا بد منها وبشكل جدي، لعلها تكون خطوة الخلاص من الواقع الذي أعيش فيه (1).

1 (هذه المرحلة كانت أوائل ١٩٩٨م، ويقصد بالخطوة اللاحقة: عملية الإضراب.

الخطوة الاضطرارية (1)

.. لم يبق لدي سلاح أَدافع به عن نفسي، وأُلفت به انتباه الآخرين، وأعبر به عن احتجاجي لدى الاحتلال، سوى خطوة واحدة حسب اعتقادي (2) ألا وهي خطوة الامتناع عن الطعام.. فكان الإعلان، عن هذه الخطوة، أمراً ضرورياً وملحاً لعلّي أحقق مطلبي الشرعي، بإنهاء مأساتي وإطلاق سراحي. .. بعد ثلاثة أيام من بداية الإضراب، استدعاني نائب مدير السجن (3) وسألني عن مطلبي.. فعبّرت له بالاحتجاج على احتجائي في المعتقل دون أي تهمة أو محاكمة عادلة..

.. لم يكن لديه أي جواب سوى التبرير والدفاع عن موقفه، وأن أمر قضيتي ليس بيده، وما أنا عندهم إلا وديعة حتى يجدوا حلاً لمشكلتي، حسب قوله. .. حاول أن يُثنييني عن موقفي، وإقناعي بفك الإضراب فرفضت، ولم يزدني هذا إلا تصميماً وإصراراً على موقفي؛ لأنه ليس لدي حل حينها إلا هذا.

.. تدخل مرة ثانية لعله ينفذ إليّ بشيء قد يكون عاملاً من عوامل الضغط النفسي، يثنييني به عن موقفي، ويضع حداً لإضرابي.. قال: إن لم تفك إضرابك، فنحن مضطرون أن نضعك في "البدود" (4)!!..

(1) كُتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/24م.

(2) هذه المرحلة أواسط عام 1998م، في سجن الجلمة، والخطوة الاضطرارية هي الإضراب.

(3) نائب المدير في سجن الجلمة: كان اسمه أبو داود.

(4) كلمة بالعبرية تعني: زنزانة صغيرة مكونة من سرير ليس فيها دورة مياه.

.. لم أكن أعرف حقيقة ما هو البدود، ولم أكن أريد حينها أن أعرف أي شيء سوى الخروج من السجن، وبالتالي؛ قررت أن أتحدى الواقع، وأواصل إضرابي على أن يتحقق مطلبي، أو أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

.. ولم أكن - أيضاً - أعرف ما نوع الإضراب الذي أقدمت عليه، باعتباري أسيراً جديداً، ليس لي معرفة بمصطلحات الأسرى والمعتقلين، إلا بعد أن تجولت عبر الساحة الاعتقالية، وعلمت في حينها أن هذا النوع من الإضراب يسمى إضراباً سياسياً.

.. وفعلاً أُلقيت في بطن هذه الزنزانة، التي يطلق عليها "البدود"، وإذ بي على فرشاة مقطعة الأوصال، تعبق من داخلها رائحة كريهة، لا أكاد أطيقها، ويملاً أرضها نجاسات من كان قبلي من الجنائين..

حاولت أن أصلي، فلم أجد مكاناً طاهراً حتى مكان السجود.. فصليت على سريري وأمرني إلى الله تعالى..

.. في ظل هذه الأجواء النفسية الصعبة، غالباً ما يكون الإنسان أقرب إلى الله تعالى، والقلب عادة يكون متصلاً بالله في مثل هذه الظروف، والنفس منكسرة لربها، فهي أقرب إلى طاعة الله تعالى في هذه الحالات، لأن النظر إلى أعلى في هذه الأوقات، وطلب المعونة من رب السماوات، يخفف على الإنسان مصابه.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ففي الحديث الشريف: { إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ الْمَعُونَةَ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ ، وَ يُنْزِلُ الصَّبْرَ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ }⁽¹⁾.. بل يُسخر الله ﷻ له من يخدمه..

وفعلًا، ساق الله ﷻ لي شرطياً عربياً، كان يخدمنا ونحن في المعبار، لانتزال عنده بقية باقية من الإنسانية، فتقاجاً بوجودي داخل هذه الزنزانة فقال: ما الذي جاء بك هنا؟ فشرحت له مطلبي.. فنصحتني بأن هذه الطريقة ليست هي الطريقة المثلى، وقد لا يتحقق لي مطلب، وأن التوجه الصحيح لمثل هذه القضايا هو القضاء..

ثم تابع معي، وطرح عليّ أن أفك إضرابي ويرجعني إلى غرفتي -المعبار- التي كنت أعيش فيها حياتي الطبيعية كأسير⁽²⁾، إلا أنه لم يجد مني إلا الإصرار على موقفي، الرفض لكل طرح لا يحقق مطلبي..

ومع هذا، كانت شفقتة واضحة نحوي، خاصة بعد أن رأى حالي وحال المكان الذي يملؤه البول والروائح الكريهة، فطلب مني الخروج من الزنزانة، واستدعى عمال النظافة، وقاموا بتنظيفها بالماء الساخن والصابون بشكل جيد، وعدت إليها، ولكن شتان شتان بين وضعها قبل التنظيف وبعده.

وهكذا، أصبح الجو أكثر راحة للنفس - رغم صعوبته - وأطهر للمكان، وأكثر اطمئناناً لأداء الصلاة والعبادة.

(1) حديث صحيح رواه أبو هريرة، صحيح الجامع.

(2) لا يوجد أصلاً حياة طبيعية داخل السجن أبداً باعتبار؛ أن المكان الطبيعي للإنسان هو الحرية خارج السجون. أقول: يخرج الأسير عادة إلى المستشفى للعلاج، أو إلى المحاكم، فيعاني ما يعاني في الطريق من قساوة عملية التنقل وطول السفر، ولا يتمنى غالباً سوى العودة إلى سريره الذي لا يتعدى مساحته سوى متر بمترين ومع ذلك؛ يعتبره الأسير الراح والمستراح له.

الإضراب يتواصل لأيام ثمانية (1)

.. بدأت الأيام تجري بصعوبة، وأنا قابع وحدي داخل هذه الزنزانة الصغيرة، وكنت أعتها دقيقة بدقيقة، ولحظة بلحظة، وأنا أصارع الجوع بمفردي، فضلاً عن معاناة الحبس الانفرادي..

.. في ظل هذا الظرف الصعب، كان من الطبيعي أن أخبر أهلي بعدم القدوم لزيارتي (2)... وحتى يكون الأمر مقنعاً لهم، كان لا بد لي من إيجاد مبرر مقبول لديهم، فقلت لهم: إنَّ وضع السجن مضطرب وغير مهياً للزيارة، ويشهد مشاكل داخلية، فلا داعي لزيارتي هذه المرة، وبناء على ذلك؛ اقتنع الأهل والحمد لله بعدم القدوم للزيارة..

.. كنت حريصاً ألا يعلم الأهل بإضرابي؛ لئلا يحزنوا أو أكون سبباً في معاناتهم، إلا أن أحد المحامين علم بإضرابي فانطلق مجتهداً بنشر الخبر في جريدة القدس، فعلم الأهل بذلك، فحزنوا حزناً شديداً؛ ما دفع الوالد إلى إعلان الإضراب عن الطعام تضامناً معي، ثم تبعته الوالدة، وهما أبناء الثمانين عاماً...

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/25م.

(2) القصد من إبلاغهم بعدم زيارتي، لأمرين:

الأمر الأول: أن المعزول لا يسمح له بالزيارة.

الأمر الثاني: حتى لا يحزنوا ويعانوا معي كما أعاني.

وهنا؛ لا بد من التوضيح؛ أن المكان الذي كنا فيه (المعبار) يجمع الأسرى الموقوفين -غير المحكومين-

وبالتالي؛ فإن الأسير الموقوف له زيارة أهل واحدة في كل اسبوع مرة بينما الأسير المحكوم في السجون

المركزية؛ له زيارة واحدة في كل اسبوعين.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. وهكذا استمر إضرابي ثمانية أيام متتالية، لا أتناول فيها سوى قليل من الماء بين الفينة والأخرى⁽¹⁾ ولحسة من لحسات الملح، لعلها تطهر المعدة والأمعاء من التعفن..

.. لم ينته الإضراب إلا بعد أن جاء المحامي، وقد وعدته إدارة السجن ببعض الوعود، وكان على رأسها، العمل على التسريع في تحريك ملف القضية..

وبناءً على هذه الوعود أنهيت إضرابي..

(1) مع العلم أنَّ الماء لم يكن يستقر في الجسم أكثر من دقائق معدودة.

زيارة الأهل بعد الإضراب⁽¹⁾

.. كانت الوالدة تنتظر زيارتي على أحر من الجمر، فما أن جاء موعد زيارتي التي تلت الإضراب، حتى انطلقت هي وزوجتي وأولادي كالبرق الخاطف، تريد أن تطمئن عليّ بعد هذا الإضراب المضني..

.. انهالت الوالدة عليّ بالأسئلة، كان من بينها السؤال البريء؟ كيف قضيت هذه الأيام دون أن تأكل شيئاً من الطعام؟ ألم تأكل شيئاً خلال هذه الأيام الثمانية؟

فقلت لها وبجواب سريع: كيف لم آكل...؟؟ وعندما أكّدت لها أنني كنت آكل.. ارتاحت نفسيّتها وانفجرت أساريرها، فشعرت أنها اطمأنت على صحتي..

كان لا بد لي أن أقول لها ذلك لكي لا يتقطّر قلبها عليّ، فلو قلت لها: إنه طيلة هذه الأيام الثمانية، لم يدخل فمي أي شيء من الطعام، لأصيبت بسكتة قلبية أو بجلطة دماغية - والله أعلم -؛ لأنه لا يمكن لها أن تستوعب مثل هذا الأمر..

كيف لا وقد كانت أُمّي في صغري لا تستوعب أن أنام بدون عشاء، فكيف لها أن تستوعب ثمانية أيام بلياليها، قضيتها بدون طعام...؟؟

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/26م.

محكمة حيفا المركزية⁽¹⁾

كنت أنتظر حدثاً معيناً مهماً⁽²⁾ وذلك بناء على الوعود التي أعطتها إدارة سجن الجلطة للمحامي.. كنت أنتظر مثل هذا الحدث لعله يكون سبباً في تحريك ملف قضيتي...

.. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى طُلبت إلى محكمة حيفا المركزية، وما أن وصلت قاعة المحكمة حتى تبددت تلك الآمال، فقد تم تحويل القضية برمتها إلى محكمة العدل العليا في القدس، باعتبار أن مثل هذه القضايا، ليست من اختصاص محكمة حيفا المركزية، وإنما هي من اختصاص المحكمة العليا في القدس.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/27م.

(2) أواسط عام 1998م.

إلى الأردن مرة أخرى (1)

.. توالى الأحداث، حدث بعد حدث، وكانت كلها عام 1998م، وبينما كان العمل جارياً لرفع القضية لمحكمة العدل العليا، استدعتني إدارة سجن الجملة وأبلغوني بأن السفارة الأردنية اتصلت بالنيابة العامة، وأبلغتها بأنه لا مانع لدى الأردن من استقبالي... وأسرع المحامي على أثرها ليخبرني - أيضاً- بأن السفارة الأردنية اتصلت به وأبلغته بنفس القرار.

هذا الأمر جعلني أعيش في أجواء متفائلة، باعتبار أن هذه الخطوة مقدمة من مقدمات الإفراج، واعتبر المحامي أن الإسراع بالتوجه نحو الأردن أمر ضروري قبل أن يتراجعوا عن قرارهم.

.. نقلت في اليوم التالي إلى الحدود الأردنية، ودخلت بنفس الطريقة التي دخلت فيها أول مرة، إلى أن وصلت نقطة العبور والجوازات الأردنية.. ولكن الأمل سرعان ما تبدد - أيضاً - بعد أن رفضوا استقبالي بنفس المبررات التي ساقوها في المرة الأولى، وأن حالتي حالة إبعاد، والأردن لا يقبل المبعدين.. وعلى هذا؛ اعتبروا بيتي وأهلي وأرضي في فلسطين.. فضلاً عن أن الأردنيين أصلاً متخوفون من عملية تهجير مماثلة في المستقبل كما يقولون.. وحتى يمنعوا مثل هذه الهجرة، اعتذروا عن استقبالي، رغم التوضيح والتأكيد لهم، بأن سفارتهم في تل أبيب هي التي اتصلت ورحبت باستقبالي

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/6/28م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

في الأردن.. إلا أنهم كانوا يؤكدون بعدم وصول أي تعليمات إليهم بهذا الشأن..

وبينما كان الخلاف قائماً بين الأردنيين والإسرائيليين على نقطة العبور في منتصف الليل، كنت أتمشى على الحدود بمطلق الحرية، وبرفتي جواز سفري، ويبدو، والله أعلم، أن الإسرائيليين كانوا يهيئون لي كل الأجواء والظروف المناسبة للهروب..

.. لقد لمست هذا بشكل واضح.. خاصة بعد أن سمعت أحد الضباط الإسرائيليين يقول لي: لماذا لم تهرب، مع أن إمكانية الهروب كانت متوفرة ومتاحة لك؟ إلا أن ردي كان حاضراً، بأن هذا الأمر لم يكن وارداً في حساباتي، ولا في ذهني مطلقاً..

.. وما أن حسم الخلاف بين الأردنيين والإسرائيليين، حتى وجدت نفسي في مقر السلطة الفلسطينية على الجسر، أصرخ في وجوههم بعبارة استعرتها من مواقف غوار الطوشة: أعطوني خيمة.. سأعيش على الحدود كما فعل غوار..

وعندما استفسروا عن المشكلة ووضحت لهم وضعي، أسرع إليّ أحد الضباط الفلسطينيين وأخذ مني جواز السفر، ثم غاب عني قرابة نصف ساعة.. وإذا بالجنود الإسرائيليين يبحثون عني كالمهوسين في قاعة الانتظار..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. قادوني إلى مكتبهم في منتصف الليل، ومكثت أقل من نصف ساعة، ثم انطلقوا بي بعد أن كبلوني وقيدوني معهم إلى أريحا، حيث زنزانتي المشؤومة تنتظرني، التي كنت قد قضيت فيها ليلة مشهودة قبل هذه المرة بستة أشهر..

وفي اليوم التالي، نقلنا بسيارة فورد لينتهي بنا المقام في معبار سجن الجملة مرة أخرى..

الإضراب مرة ثانية والصيد في الماء العكر

.. دخلنا في العام الجديد لعام 1999م وأنا أتلقي التأجيل تلو التأجيل من قبل المحكمة، وبشكل تلقائي، ولكن دون تفصيل عن الأسباب الحقيقية لهذا التأجيل، ما جعلني أعيش في دوامة داخل معبار الجملة، خاصة وأنَّ المعلومات لدي حول وضعي كانت شحيحة من قبل المحامي..

.. هذا الوضع دفعني نحو الإضراب المفتوح مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان لمدة ستة أيام..

.. استدعاني مدير السجن⁽¹⁾ إلى مكتبه وسألني: ما المشكلة؟

قلت له: أنت أكثر الناس علماً بالمشكلة..

قال: ماذا تريد؟

قلت له: أريد أن أعرف لماذا أنا هنا؟؟

فرد عليّ قائلاً: إن الأمر ليس بيدي.. لقد فعلت ما في استطاعتي تجاه قضيتك، وأرسلت رسائل كثيرة عبر الفاكس وإلى من يهمل الأمر.. حتى أنه أصبح لدي رزمة من الأوراق بشأن قضيتك لو أنها قلبت أموالاً لأصبحت أغنى الأغنياء في الأرض.

فقلت له: هذا الأمر لا يهمني كثيراً، أريد حلاً لقضيتي، فماذا كان جوابه...؟؟ إنه عرض رخيص...

(1) مدير السجن كان يعمل مديراً للسير لمدينة نابلس قبل مجيء السلطة، حسب ادعائه.

.. لا تياس المخابرات لحظة واحدة في استغلال الظروف الصعبة التي يعيشها الأسير؛ حيث فاجأني هذا المدير بعرض رخيص لم أكن أتوقعه بعد مرور سنتين على اعتقاله، مستغلاً الظروف القاسية التي أمر بها قائلًا: من السهولة بمكان أن ترجع إلى قريتك بأمان واطمئنان إذا تعاونت مع الشاباك...!!

.. كان ردي قاسياً، قلت له: نحن أصحاب مبادئ، لا ننتظر لعاعة من لعاعات الدنيا مغمسة بدماء الشرفاء من أبناء وطننا.. إن التعامل مع الشاباك في ديننا معناه خيانة لله وللرسول وللمؤمنين.. فما أن وجد الباب موصداً أمامه حتى توجه هارباً نحو موضوع الإضراب مرة ثانية قائلًا: ماذا تريد؟؟

قلت له: أنتم تعتبروني أسيراً أمنياً في سجلاتكم.. فأنا أطالب بحقوقى كأسير أمني..

قال: فماذا تريد إذن؟؟

قلت له: أريد أحد أمرين:

إما أن تنقلوني إلى سجن أمني حتى أحصل على حقوقى كأسير أمني، وإما أن توفر لي احتياجات كحق من حقوق الأسير الأمني هنا.

قال: مثل ماذا؟؟

قلت: أن تدخلوا لي مواد غذائية مثل: الزيت والزعتر وغيرها من المأكولات..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

قال: هذا سجن جنائي، والمواد الغذائية يمنع دخولها حسب القانون المتبع في السجن..

قلت له: إذن انقلوني إلى سجن أمني.. فأنا لم أجلس هنا باختيار.. أو أن تدخلوا لي زيت زيتون على أقل تقدير..

قال: الزيت ممنوع؛ لأنه يحتاج إلى فحص، ثم قال: اقفز إلى المطلب الثاني.. ماذا تريد؟

قلت له: مادام أمر قضيتي ليس بأيديكم كما تقولون: فأنا بحاجة إلى اتصال هاتفي مع المحامي وأهلي باستمرار، لعلني أجد حلاً نهائياً ينتهي بالإفراج عني، وهذا الأمر بأيديكم..

سكت قليلاً ثم قال: سأعطيك اتصالاً على مسؤوليتي مرتين في الشهر، بشرط أن تتصل فقط بزوجتك والمحامي، على أن يكون مسئول القسم⁽¹⁾ معك في وقت الاتصال.

قال: ثم ماذا أيضاً؟؟

قلت له: لم يزرنني الصليب الأحمر منذ ثمانية عشر شهراً، فرد عليّ بشكل سريع قائلاً: الآن سأرسل لك الصليب الأحمر.

.. تنهد قليلاً ثم قال: ماذا بعد؟

(1) مسئول القسم في سجن الجلطة الذي كنت فيه؛ ضابط درزي اسمه باسم، كان حاضراً في هذه الجلسة، حتى أنه علق على كلام المدير قائلاً: هو سيتصل بزوجه وبالمحامي ولن يتصل بخالد مشعل!

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

قلت له: إن قانون السجن هنا⁽¹⁾ يسمح لنا بزيارة الأهل زيارة مفتوحة في كل شهرين مرة، وأنا أسير ليس عندي تهمة ولا لائحة اتهام؛ لذلك فأنا أطالب بزيارة مفتوحة كل أسبوع مرة.

وما أن سمع هذا المطلب، حتى انتفض وقال: ماذا سيقول بقية السجناء عن هذا؟

قلت له: فليقولوا ما يقولون، فمن حقي أن يزورني أهلي مرة كل أسبوع.. خاصة وأنني لست متهماً.

وفي النهاية، قال: سأسمح لك في الشهر مرة واحدة.. عندها صمت...!!

.. انتهى الحوار، وطلب مني أن أكسر إضرابي بكأس من الشاي على مرأى عينيه.. وفعلاً انتهى الإضراب والشك يساورني تجاه تنفيذ هذه التعهدات، وما أن خرجت من مكتبه حتى نُفذ مطلب من مطالبي في الحال عبر اللقاء مع الصليب الأحمر⁽²⁾ ثم تبعتها الخطوات الأخرى وهي خطوة الاتصال الهاتفي والزيارة المفتوحة للأهل، وبقيت أتمتع بجميع هذه الإنجازات حتى انتقلت من سجن الجلمة إلى سجن عسقلان..

(1) قانون السجن: المقصود سجن الجلمة الجنائي، والمقصود بالزيارة المفتوحة، أي أن تجلس عائلتين أو ثلاثة في غرفه بشكل مباشر دون حواجز أو غيرها.

(2) أهمية زيارة الصليب للأسير:

أولاً: إن زيارة الصليب للأسير مهمة جداً خاصة الزيارة الأولى، وذلك لطمئنة الأهل عن وضع ابنهم. ثانياً: إن كل المؤسسات في خارج السجن لا تتعامل مع أهل الأسير إلا بورقة من الصليب تثبت أن ابنهم أسير، والصليب لا يعطي ورقة للأهل إلا إذا الصليب زار الأسير في سجون الاحتلال. ثالثاً: هذه الزيارة كانت بعد (18) شهر من اعتقالي.

إلى المحكمة العليا في القدس

.. لم يبق أماناً طريق سالك سوى محكمة العدل العليا⁽¹⁾ في القدس، فكانت الجلسة الأولى أواخر عام 1998م، انتهت الجلسة بالتأجيل لعدة أسابيع على أن نبحت عن مكان أذهب إليه..

.. جاء موعد الجلسة الثانية لتنتهي - أيضاً - بالتأجيل على أن تجد النيابة حلاً للمشكلة..

(1) محكمة الظلم العليا وأنا حقيقة لا أتجنى عليها أبداً وهذا ما عبر عنه المحقق أبو منير، عندما قلت له: إن القضاء عندكم ديموقراطي وسوف يفرج عني في أقرب وقت، فرد عليّ قائلاً بتهكم: من قال لك هذا؟ أنت واهم، والذي قال لك هذا يضحك عليك، ثم قال: كل قضية إسرائيل في جيوبنا.

مواقف في معبار الجملة

عام 1999م

- تعارفي بالأسيرين خويلد ونزار رمضان.
- بأمثال هؤلاء الشباب نرزق ونتنصر.
- محاولة هروب الأسيرين خويلد ونزار رمضان.
- خويلد يقضى العيد في الزنزانة.
- حوار مع إدارة السجون.
- أنتم لستم في فندق!!..
- مواقف مع العصافير.
- إنه يوم حزين... إنه يوم صعب..!!
- صدمة بعد صدمة.
- مواقف إنسانية.
- مواقف حياتية مع الأهل.
- ضغوط نفسية.
- نظرة الجنائيين تجاهنا.

تعارفي بالأسيرين خويلد ونزار رمضان

في أواخر عام 1998م؛ كنت في معبار الجلعة، وكان معي في الغرفة مجموعة من الأسرى، وكنت ولا زلت أذكر منهم الأسير (عبد الباسط معطان) من قرية برقة⁽¹⁾، وهو من خيرة ما رأيت من حفظة كتاب الله ﷺ، نحسبه كذلك والله حسيبه.

أقول: وفي اليوم التالي تم نقل جميع الأسرى من المعبار⁽²⁾ وتوزيعهم على السجون المركزية باستثناء الأسير (عبد الباسط) الذي نقل إلى المحكمة، بينما تركت وحيداً داخل الغرفة، حتى ذهبت بي الظنون أن تفرغ المعبار كان الهدف منه لشيء ما .. ولكن الله سلم!!

عاد الأسير (عبد الباسط) من المحكمة في نفس اليوم، قبل أن تلم الشمس أذيالها، وقد أخذ الجوع منا مأخذه، فأخذنا نتناول شيئاً من الطعام الموجود لدينا في الغرفة، وما أن بدأنا في الطعام، حتى تقاجأنا بأسيرين يدخلان علينا بتوجس، يقدمان خطوة ويؤخران أخرى، وهما يتهامسان ظناً منهما أنهما يدخلان على مكان لا بد من الحذر من ساكنيه.

بعد الطعام والتعارف عليهم، التزم أحدهم وهو (خويلد رمضان) سريه والشك يلفه من كل جانب خشية أن يكون قد وقع بين براثن جواسيس إدارة السجون، التي يطلق عليها عادة داخل سجون الاحتلال (عصافير).

أما الثاني وهو (نزار رمضان) فكان واضحاً كل الوضوح منذ اللحظة الأولى بتفاعله معنا بشكل طبيعي، بل بقي يسهر معي بشكل خاص

(1) قرية من قرى مدينة رام الله.

(2) المعبار: غرفة خاصة بالأسرى الأمنيين في سجن الجلعة، وكانت أول غرفة في مدخل القسم، ثم تم نقلنا إجبارياً إلى غرفة أخرى في نهاية القسم.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

لمنتصف الليل وهو يحدثني عن قصص بعض العجائز القديمة؛ كقصة الزير وغيرها من القصص التي قد تكون في الغالب ممتعة للأطفال.

كنت أسمع وأقيم نفسية هذا الأسير، التي قد لا تخرج فطرته السليمة الطاهرة عن فطرة طفل من الأطفال الصغار، لا يخالجها لوثة أو فساد، علماً أنه كان في حينها في الثالثة والعشرين من عمره.

أما (خويلد)، فقد التزم سريره وانشغل بتصفح جريدة القدس التي كانت تصلنا عبر إخواننا العرب أبناء الداخل المحتل.

أقول: تفاجأ (خويلد) بخبر منشور على صفحة من صفحات الجريدة يتعلق بقضيتهما، فارتبك وهمس بأذن نزار قائلاً له: إياك أن تخبر أبا عادل عن هذا الخبر!!

هذا الفهم الذي يحمله هؤلاء الإخوة، إن دل على شيء فإنما يدل على بساطتهما، ولا سيما أن (خويلداً) لم يبلغ في حينها العشرين من عمره.

وفي الحقيقة، أنا أعذر هؤلاء الشباب من أمثال (خويلد)، في تلك اللحظة من لحظات الأسر، على هذا الهوس الأمني الذي كان يسيطر عليه، بل على كل أسير جديد داخل سجون الاحتلال، خاصة بعد أن استغفلت إدارة السجون - عبر عملائها الذين يطلق عليهم العصابير - عدداً كبيراً ممن وقعوا ضحايا بين براثن ومخالب عملاء يعيشون بينهم.

هذه هي المرحلة الأولى التي تم التعارف فيها بيني وبين الأسيرين (خويلد ونزار رمضان)، فوجدتهم في حقيقة الأمر إخوة أحبة من خيرة من التقيت بهم - فطرة وخلقاً وحياءً وصدقاً - على الساحة الاعتقالية، ومثلهم كثير والحمد لله.

بأمثال هؤلاء الشباب نرزق ونتتصر

سبق أن قلت: إنه تم التعارف بيني وبين الأخوين (خويلد ونزار) في معبار الجملة، وقلت: إنهما شابان من الشباب الذين يغلب على هيئتهما الهدوء والطيبة والخلق الحسن ولكن، لا تجد هناك أي مؤشر حقيقي في حينها أن لهما أي علاقة في تنظيم أو بطرف من الأطراف، بل لا تجد أي مظهر لهما يتعلق بأي أمر أو قضية من القضايا العسكرية، في نظر أهل قريتهم على أقل تقدير.

هؤلاء وأمثالهم كانوا يعملون بصمت مطبق، ولسان حالهم كلسان حال الشاعر القائل:

صامت لو تكلمنا لفظ النار والدما

كانا يخرجان في كل يوم لرصد المستوطنة المجاورة لقريتهما، ويعودان في أوقات متأخرة من الليل، إلى أن حانت ساعة الصفر، بعد أن رصدنا دورية صهيونية تقل اثنين من أبناء حاخامات المستوطنة، ففاجأوهما بوابل من الرصاص، ما أدى إلى قتلتهما واغتنام سلاحهما و(100) شيكل وجدوها في ملابس القتيلين.

لم يكن يدور بخلد الأخوين الحبيبين خويلد ونزار، أن جثتي القتيلين لهما قيمة كبيرة قد تساوي الإفراج عن مئات من الأسرى الفلسطينيين لدى الاحتلال.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

أقول: لم يكن نضوج نزار وخويلد في حينها، قد وصل بهما إلى هذا الوعي، وإنما اكتفيا بالغنيمة الزهيدة⁽¹⁾ التي اغتتماها، وهذا إن دل على شيء - أيضاً - فإنما يدل على بساطتهما في حينها، ومع هذه البساطة يجب ألا نقلل من هذا العمل البطولي الذي عجز عنه الكبار.

.. هذه هي خلاصة الموقف الثاني مع الأخوين الأسيرين خويلد ونزار رمضان.

وفي هذا المقام، لا بد لنا أن نسجل ثلاثة أمور مهمة:

الأمر الأول: أن ما قام به هذان الأسيران بمفردهما ودون توجيه من أحد - رغم صغر سناهما - إنما يسجل لهما بماء الذهب.

الأمر الثاني: كان بإمكانهما أن ينشغلا بدنياهما كغيرهما من أقرانهما أو أندادهما؛ ولكنهما أبيا إلا أن يكون لهما سهم قوي في خدمة وطنهما، وبصمة واضحة تسجل لهما في تاريخ الأجيال.

الأمر الثالث: أن أمثال هؤلاء الإخوة البسطاء، لم يكن يشار إليهم بالبنان، وإنما كانا جنديين مجهولين. وهنا، لا بد أن نعلم جيداً أن بأمثال هؤلاء نرزق وننتصر.

(1) أقصد بالزهيدة: أي مقابل الجثتين التي يمكن أن يتم التبادل بهما بمئات الأسرى.

أجواء ما قبل العملية..

وقبل أن أغادر هذا المربع، كان لا بد لي أن أذكر بالمعاناة التي كان يواجهها خويلد مع أهله أيام أن كان يخرج للرصد قبل تنفيذ العملية، كما حدثني.

فقد كان والده يعاتبه عتاباً شديداً على كثرة تأخره ليلاً، ولشدة حرصه وتخوفه؛ كان لا ينام إلا بعد أن يطمئن على عودته إلى البيت.

وكان والده أحياناً يغلبه النعاس فينام، فيأتي خويلد متخفياً وبخطوات هادئة كدبيب النمل على الصخرة الصماء، فيأوي إلى فراشه قبل أن يستيقظ والده وبالتالي يسلم من العتاب الذي ينتظره.

لكن والده لم يهمل هذا الموضوع، بل يلجأ إلى حيلة لا تخطر على بال أحد من الناس؛ لمعرفة اللحظة التي يدخل فيها خويلد البيت.

بدأ بتنفيذ هذه الحيلة، وذلك بوضع ملعقة على مقبض الباب، فما أن يضع خويلد يده على مقبض الباب حتى تسقط الملعقة على الأرض فتحدث ضجيجاً كبيراً فيستيقظ والده؛ ليبدأ بعدها العتاب والتأنيب.

سقت هذه القصة ليدرك الجميع كيف كان يعيش خويلد الظروف العائلية قبل تنفيذ العملية؛ حيث كان بين المطرقة والسندان، فلا هو يستطيع أن يبيع لوالده بما يفعل؛ وذلك لحساسية الموقف، ولا والده يعي الأبعاد التي يفكر بها خويلد.

أما نزار رمضان؛ فكنت أتمنى أن أعرف حقيقة الأجواء التي كان يعمل بها قبل تنفيذ العملية حتى أنصفه كخويلد.

محاولة هروب الأسيرين خويلد ونزار رمضان

لا شك أن فكرة الهروب من السجون، حق طبيعي لكل أسير تتاح له فرصة الإفلات من قبضة سجانيه، ولما تجد أسيراً يعيش خلف القضبان لا يفكر كيف يمكنه التخلص من هذه السجون الظالم أهلها، خاصة من ذوي الأحكام العالية.

واليوم، بين أيدينا قصة محاولة الهروب من سجن الجلطة وبطلاها خويلد ونزار رمضان.

فكرة الهروب:

سبق أن تحدثنا أن كل من يعيش في معبار سجن الجلطة فترة طويلة إنما يجد نفسه يستقبل ويودع الأسرى الذين ينتهون من عملية التحقيق، ثم يوزعون فيما بعد على السجون المركزية.

كنت من بين الذين لبثوا في عزل معبار سجن الجلطة بشكل إجباري فترة طويلة لا تقل عن السنتين، وكان ممن مكثوا معي فترة طويلة الأسيران (خويلد ونزار رمضان) وآخرون من الأسرى القدامى، ممن يسحبون عادة من السجون المركزية للتحقيق معهم، فاستطاع بعضهم أن يقنعوا (خويلد ونزار) بعملية الهروب، وأكدوا لهما أن هذا حق طبيعي لكل أسير تتوفر لديه فرصة الهروب بأن لا يفوتها على الإطلاق.

الزمان والمكان:

أما المكان: الهروب من داخل معبار سجن الجلمة عبر فوهة الشفاط.
وأما الزمان: أوائل عام 1999م.

آلية التنفيذ:

قبل البدء بعملية الحفر وضعنا في خطتهما كيفية العمل ما بعد الحفر.

تضليل الشرطة:

كان لا بد من عمل خدعة لتضليل الشرطة حتى لا يلفت انتباههم، فقررا أن يعالجان آثار الحفر بواسطة لب الخبز المعجون بالماء، لسد الفراغ الذي تخلفها عملية الحفر⁽¹⁾، ثم يختما عملهما بتعليق قميص على إنجازهما اليومي، فيصبح للناظر وكأن شيئاً لم يكن، وهكذا كان العمل في كل يوم من أيام الحفر.

بداية التنفيذ:

كان عدد الأسرى في معبار سجن الجلمة قليلاً، خاصة بعد أن تم ترحيل معظمهم إلى السجون المركزية، فاستثمر الأخوان هذا الوضع الهادئ وقررا المباشرة بالعمل.

على وقع صوت الحفر في اليوم الأول، استيقظت مفزوعاً في الساعة الثانية ليلاً، وبدأت أتحدث معهما كأنني أعيش في حلم، فهرول خويلد

(1) سيما وأن الجدار لم يكن مطلياً بالدهان فينطبق لون الجدار على لون لب الخبز تماماً.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

باتجاهي وجلس بجانبى على السرير.. حاولت أن أنصحه بما عندي من تجربة، ولكن دون جدوى.

قال لي: لا عليك يا أبا عادل، فالأمر يتعلق بنا ونحن نتحمل المسؤولية الكاملة، وما عليك إلا أن تواصل نومك.

وفعلاً، تركتهما وشأنهما، وأكملت النوم الطويل حتى الفجر وأنا أعتقد أنهما لن يستطيعا أن يصلا إلى مبتغاهما، حسب نظري، وذلك لأمرين اثنين أخبرتهما بهما آنذاك:

الأمر الأول: أن هذه الغرفة كان يسكنها جنائيون من قبلنا، وقد حاول بعضهم الهروب من نفس النافذة، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، وألقت إدارة السجن القبض عليهم، وأرسلتهم لزنازين العزل، وبالتالي قامت إدارة السجن بتمكين هذه النافذة بالأسمنت المسلح.

الأمر الثاني: أن الحراسة الليلية من الشرطة الصهيونية كان مقرها أصلاً قريباً من شفاط المعبار، مع تأكيدي للأخوين هذا الأمر، ومع ذلك لم يقتتعا، وبالتالي لم تباغت الشرطة المعبار، ويبدو أنه كان تضليلاً لهما.

فشل المحاولة:

كان الأخوان يظنان أن يوماً أو يومين يمكنهما أن ينجزا عملية الحفر، ثم يصلا إلى عالم الحرية، وهذا أيضاً، إن دل على شيء فإنما يدل على بساطتهما، إلا أنهما اصطدما بجدار سميك، وحديد قوي، لا يمكن اجتيازه أبداً إلا عبر قطعه بآلة قطع للحديد، وفي هذا المقام وجد الأخوان نفسيهما

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

في وضع حرج، واستسلما للواقع، ولكن كيف يمكنهما التخلص من آثار الحفر الذي جرى في الجدار أياماً متتالية!!

وهنا، قررا وقف العمل على الفور، وإلغاء الفكرة نهائياً من ذهنيهما، ليس لقناعتهما بعدم جدوى فكرة الهروب، وإنما لعدم استطاعتهما إنجاز هذه المهمة، لأنها ضرب من المستحيل.

اكتشاف آثار المحاولة:

قلت آنفاً: إن الأخوين اصطدما بواقع صعب، بعد مرور فترة من عملية الحفر، فقررا وقف مواصلة العمل في هذا الجانب.

ولهذا، كان لا بد لهما من علاج آثار الحفر من خلال تضليل الشرطة، عبر تعبئة الحفر بلب الخبز المعجون بالماء (1) ثم إلقاء قميص عليه يظهر للرائي أن الأمر طبيعي لا يثير الشك.

ولبسطة الأخوين وظناً منهما، أن الأمر قد انتهى، إلا أن الإدارة حسب اعتقادي؛ كانت تراقب الوضع في السجن عن كثب دون أن تشعر أحداً أن هناك شيئاً ما، وإلا ما الذي منع الإدارة من اقتحام الغرفة من أول لحظات الحفر؟

أقول: بقيت إدارة السجن تراقب الوضع عدة أشهر، خاصة وقد نسينا الموضوع نهائياً إلى أن فاجأتنا إدارة السجن بكاملها، وعلى رأسها مدير

(1) نشير هنا؛ أن الجدار كان غير مدهون، ولون الخبز ينطبق على لون الجدار، وبالتالي؛ كان الأمر طبيعياً لا يثير الشك.

السجن بالقدوم إلى غرفتنا بحجة التفتيش الطبيعي، وكان من المعتاد في مثل هذه الحالات أن يبقى أسير في الغرفة لمتابعة عملية التفتيش، فتولى (خويلد) هذه المهمة وخرجنا جميعاً إلى الفورة، ظناً منا أن الأمر يقوم على التفتيش العادي؛ لأن موضوع الحفر كنا قد نسيناه نهائياً، خاصة وقد مضى عليه عدة أشهر.

بعد الانتهاء من عملية التفتيش؛ رجعنا لغرفتنا فتفاجأنا بعدم وجود (خويلد)، وبعد السؤال عنه قالوا⁽¹⁾: بأن الإدارة أرسلته إلى الزنازين، وبعد الاستفسار عما جرى ادعى (أبو داود)، نائب مدير السجن، أن (خويلداً) حاول ضرب المدير، ولهذا السبب تم نقله للزنازين.

ولم نعلم تفاصيل ما حصل إلا بعد خروج خويلد من الزنازين، ففهمنا القصة كاملة منه وخلصتها:

عندما دخلت إدارة السجن إلى الغرفة، قفز مسئول الأمن⁽²⁾ مباشرة إلى شفاط المعبار، فأخذ القميص وإذا بعملية الحفر واضحة للعيان، عندها أمسك مسئول الأمن إطار النافذة المغطاة بلب الخبز اليابس، وإذا بالإطار يسقط على الأرض، فنظر المدير إلى خويلد وأشار بيده ليقول له: ما هذا؟! فظن (خويلد) أن المدير يريد أن يضربه، فأخذ خويلد بيده على وجهه بشكل سريع حتى يحمي وجهه من الضربة، إلا أن بعض أصابع يده أخذت معها نظارة المدير، فطارت عن عينيه، فادعت الإدارة أن (خويلداً) كان يقصد ضرب المدير.

1 (سألنا الجنائيون المجاورون لغرفتنا عن خويلد فقالوا لنا: أخذته الإدارة إلى الزنازين.

2 (كان يطلق على المسئول الأمني (أبو زقلة).

خويلد يقضى العيد في الزنزانة

في طريقهما نحو المحاكم من سجن عسقلان إلى سجن الجلطة، كان لا بد لـ (خويلد ونزار) ولغيرهما من الأسرى المرور بزنازين سجن الرملة⁽¹⁾ سيئة الذكر، وهي معروفة لدى الأسرى ممن عاش فيها تحت الأرض، ولا تتسع إلا لاثنتين فقط.

أقول: في أثناء قضاء ليلتهما في إحدى هذه الزنازين، دار حوار هادئ وعفوي بين خويلد، الذي كان يستلقي من فوق البرش⁽²⁾ العلوي وما بين نزار الذي كان مستلقياً على أرض الزنزانة، خلاصته:

- نزار لخويلد: إذا استشهدت أين سندفك يا خويلد؟!

- خويلد: إذا استشهدت ادفنوني تحت التينة!

وكل ذلك؛ كان الحديث يجري على سبيل المزاح، ونزار كان يكتب على دفتره من باب اللامبالاة، ثم نادى المنادي في الساعة الثانية ليلاً، وهما على هذه الحال، أن استعدوا للسفر إلى سجن الجلطة.

انتهى الأمر على هذه الحال، وكأن شيئاً لم يكن، ولم يأخذوا ولم يعطوا في هذا الموضوع، باعتبار أن ما جرى إنما هو من باب المزاح واللعب لا غير.

1 (يوجد بها زنازين تحت الأرض.

2 (كلمة عبرية تعني السرير الذي ينام عليه الأسير.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وصلت البوسطة⁽¹⁾ إلى سجن الجلمة، وكان بانتظارهما حينذاك ضابط درزي حاقداً سيء الصيت؛ اسمه (باسم)، كان يعرفهما جيداً أيام أن كانا في سجن الجلمة، خاصةً أنهما بطلاً تجربة عملية الهروب من معبار الجلمة أوائل عام 1999م فاستقصدهما في عملية التفتيش الدقيق، فوجد الدفتر الذي كان يكتب فيه نزار، وإذا به يقرأ الحوار الذي دار بين خويلد ونزار رمضان، فما كان منه إلا أن صور هذه الأوراق وأرسلها فوراً إلى سجن عسقلان⁽²⁾، حيث فُسرت؛ أن خويلداً كان يستعد لتنفيذ عملية استشهادية.

وهكذا، عندما عاد خويلد لسجن عسقلان خضع مباشرة للتحقيق بسبب هذه الأوراق المكتوب عليها تلك العبارات، وكانت تلك الليلة تصادف ليلة عيد الأضحى، وبناء على ذلك تم عزل خويلد لعدة أشهر، وبهذا دفع ثمن هذا الحوار، وقضى العيد في الزنازين لمجرد مزحة بسيطة من قبل زميله نزار.

(1) كلمة عبرية تعني السيارة التي تنقل الأسرى للمحاكم والمستشفيات أو السجون.
(2) أرسلت صورة الأوراق لسجن عسقلان، لأن خويلد سيرجع أصلاً لسجن عسقلان الذي يقيم فيه.

حوار مع إدارة السجون

كانت العادة المتبعة يومياً أن نأخذ الطعام إلى غرفتنا بعد انتهاء كل فسحة صباحية..

.. فوجدنا ذات مرة بقرار من إدارة السجن، بأن الطعام لا بد أن يكون داخل المطبخ، وهذا يشمل الأمنيين والجنائيين، تحت ذريعة أن نقل الطعام إلى الغرف لا يتوافق مع الناحية الصحية..

.. دخلنا المطبخ كعادتنا في كل يوم، وإذا بالمدير وكافة الضباط من طاقم الإدارة يصطفون بجوار الطعام وهم يشيرون إلينا بالتوجه نحو صالة الطعام داخل المطبخ لتناول وجبة الغداء..

.. بدأنا نتحاور معهم لعلنا نصل معهم إلى اتفاق يرضي الطرفين:

قلنا لهم: إن كان الأمر يتعلق بالناحية الصحية فلا حاجة لنا بالطعام المطبوخ، ويكفي أن تعطينا الأصناف الجافة كالبندورة والبطاطا والخبز والخيار وما شابه ذلك، وما تبقى سنغطي طعامنا من الكنتين، إلا أنهم رفضوا أن يتعاطوا معنا في أي اتجاه..

عندها، خرجنا من المطبخ بعد أن أبلغناهم؛ بأننا لسنا مضربين عن الطعام..

وهنا، لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة يمتاز بها الأسرى الأمنيون، عندما يحصل حوار مع الإدارة، تجد أن من يمثلهم في الحوار يتقدم دائماً وينطق

باسمهم، بخلاف الجنائيين، فلا ممثل لهم أمام الإدارة وكل له مآربه الشخصية..

.. دخلنا إلى غرفتنا دون أن نأخذ أي شيء من الطعام.. وجاء الدور على الجنائيين لتناول طعامهم فاصطدموا بالقرار، ووقفوا أمام الإدارة حائرين، لم يتقدم من يمثلهم أو ينطق باسمهم.. فتجراً أحدهم بطريقة فوضوية وقال: الأمنيون رفضوا الطعام، وتبعه آخر وقال: الأمنيون أضربوا عن الطعام، وتبعه ثالث بكلام آخر.. ثم حصل هرج ومرج وفوضى وهم يتدافعون خارج المطبخ والبعض منهم يقول: نحن مضربون عن الطعام كما أضرب الأمنيون..

وهكذا، دخلوا إلى غرفهم دون أن يأخذوا وجبة الغداء..

.. أما الإدارة، فقد أصبح وضعها صعباً، بعد أن رفض القرار من قبل الأمنيين والجنائيين، وأصبحت هناك مشكلة لا بد من علاجها، بل اعتبرت أن ما حصل تمرداً على قرارها، فكان لا بد من خطوة من طرفها..

ويبدو أن الإدارة ساورها الشك بأن الأمنيين وراء هذا التحريض، فأرادت أن تجس نبضنا، هل نحن مضربون عن الطعام؟ وربما أرادت أن تفصل ما بين وضعنا ووضع الجنائيين.

.. ومن هنا، كانت أول خطوة من خطوات الإدارة، بتكليف أحد أفراد الشرطة بأن ينقل طعام الغداء إلى غرفتنا، وكان هذا أصلاً هو مبتغانا ومطلبنا في الحوار الذي دار بيننا وبين الإدارة داخل المطبخ..

.. أما الجنائيون فقد أعلنوا إضرابهم عن الطعام، وهو موقف خارج عن العادة؛ إذ من الصعب أن يتوحد موقفهم على أمر واحد لاختلاف مآربهم ومشاربهم وشهواتهم، ولكن الذي جمعهم هذه المرة على موقف واحد، حسب اعتقادي، هو بطونهم..

تهمة في غير محلها:

.. جاء اليوم الثاني من إضراب الجنائيين، فنُقل لي قول أحدهم: لقد غدر الأمنيون بنا، فاقتتصت فرصة الخروج إلى الفسحة ووقفت على بابهم وقلت: لقد علمت أن بعضكم يقول كذا وكذا.. فأسرع أحدهم وقال: أنا من أم الفحم من أبناء الحركة الإسلامية، أنا الذي قلت ذلك.. وعندما استفسرت عن السبب قال: الأصل أن تفقوا معنا..

قلت له: مهلاً يا أخي ولا تتسرع، فنحن لم نجلس معكم ولم نتفق على أي أمر من الأمور..

والأمر الآخر: لقد أضربنا مرات عديدة، ولم نر أحداً منكم يتضامن معنا، فقضايانا يا أخي تختلف عن قضاياكم، فضلاً عن خطواتنا الكثيرة التي ليس بإمكانكم مجاراتنا فيها، وأنتم تعلمون هذا جيداً.

فرد عليّ قائلاً: والله يا أخي إنَّ ما قلته هو الصواب، وها أنا أعترز لك أمام أبناء غرفتنا جميعاً.

.. وبعد ظهر اليوم الثاني يبدو أن الجوع قد عضهم بنابه، ولم يبق أمامهم فرصة للصبر، فكان لا بد من التصعيد للتعبير عما يجول في نفوسهم،

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

ولدفع الإدارة للإسراع في حسم موضوعهم وإنزالهم عن الشجرة التي صعدوا عليها، فاتفقوا على خطوة جماعية لعلها تكون أقصر الطرق لاستدعاء الإدارة وجلبها للحوار..

.. وهكذا بدأت الخطوة بحمل الطناجر من جميع الغرف وقرعها بالأبواب، وبصوت مرتفع، وفي وقت واحد، مما دفع الإدارة إلى التحرك فوراً نحو القسم، وطلبت مندوباً واحداً عن كل غرفة من الغرف يمثلها أمام المدير، الذي قال لهم: ليس أمامكم إلا خيار واحد، إما أن تفكوا إضرابكم أو سأضعكم جميعاً في العزل الانفرادي.

وبما أن الجنائيين أصلاً ليسوا على قلب رجل واحد؛ فإن الخور والجبن قد أصابهم، وبالتالي: أعلنوا فك إضرابهم، وتبعهم الجميع، وأصبحوا يأكلون طعامهم في المطبخ حسب إرادة إدارة السجن..

أما نحن، فقد بقي الوضع على حاله، نأخذ الطعام ونصنعه في غرفتنا.. وهنا، بقي لنا حق كأمنيين لا بد لنا أن نحققه، ألا هو وقت فترة الطعام الصباحية، التي مدتها نصف ساعة، نستثمرها خارج الغرفة في الهواء الصباحي الطلق.

.. دار حوار بيننا وبين الإدارة فقالوا: لا يحق لكم أن تخرجوا؛ لأنكم تأخذون طعامكم إلى الغرفة..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

قلنا لهم: نريد أن نقضي هذه الفترة في الساحة، على اعتبار أنها فترة طعام للجميع، وهذا حق طبيعي لنا، إلا أن الأمر أخذ طابعاً، لا نقول رسمياً، وإنما تُرك الوضع لاجتهاد الشرطي، يغض فيها الطرف عنا..

وفعلاً، أصبحت هذه فرصة لنا نتمشى في الساحة طيلة فترة الطعام.. وقد بقي الإخوة يستفيدون من هذا الإنجاز حتى انتقلت إلى عسقلان نهاية عام 1999م، حيث أضاع إخواننا الذين جاؤوا من بعدنا هذا الإنجاز المهم.

أنتم لستم في فندق!!

كان من عادة مدير السجن أن يتجول داخل السجن في أي مناسبة من المناسبات، ففي أول ليلة من ليالي رمضان عام 1998م كان يستمع لبعض مطالبنا ويسجل طرفاً منها، فوجد أن المطالب المقدمة كثيرة.. عندها توقف عن الكتابة، ثم نظر إلينا وقال: أوتظنون أنكم تعيشون في داخل فندق من الفنادق؟؟ نحن نقدم لكم طعاماً فقط لتبقوا على قيد الحياة!! ثم انصرف من الغرفة..

لقد كانت رسالته واضحة لنا وبكل وقاحة!! إنكم أسرى في السجن، ولستم ضيوفاً في فنادق، فهلاً عرفتم قدركم؟

مواقف مع العصافير

.. لا زلنا نتحدث عن بعض المواقف التي عشناها في سجن الجلعة، التي كان من بينها، موقف أسير من الأسرى مع العصافير، وذلك لاستخلاص العبر منها..

قصة طارق زيدان؛

.. في معبار سجن الجلعة، التقيت بشاب في مقتبل العمر اسمه (طارق زيدان) من طولكرم وهو صيدلاني، كان قد زار العصافير في سجن مجدو، وقد قادته فراسته لمعرفة هؤلاء، فنصح ممن معه بأن ينتبهوا وأن يحذروا ممن حولهم، فاقتنع أحدهم برؤيته، فطلب منه أن يتبعه بكل حركة يتحركها تمهيداً لخطوة لاحقة ولعمل - ميمعة - داخل غرفة العصافير.

وفعلاً بدأ بخطوته الأولى في القفز على البرش⁽¹⁾ الذي يجاور التلفاز، ثم كانت الخطوة الثانية بإلقاء التلفاز من أعلى إلى أسفل فأصبح في خبر كان.. مما دفع العصافير إلى الهجوم عليه وعلى زميله الذي لحق به، وأرادوا أن ينتقموا منهما، إلا أن (طارق) وزميله تسلحوا بسلك التلفاز الذي بقي بيديهما يدافعان به عن نفسيهما، مما حدا بالاحتلال للتدخل السريع، فطلبوا منه ومن زميله أن ينزلا عن البرش، إلا أن طارق وزميله رفضا النزول إلا بعد أن أدخل العصافير إلى داخل الحمامات تحت رغبة الأخوين..

(1) البرش: كلمة عبرية يقصد بها السرير العلوي الذي ينام عليه الأسير.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وفعلاً، وبعد أن دخلوا للحمامات، نزلاً ووضعت القيود بأيديهما وأرجلهما، ثم قادوهما نحو سجن الجملة، حيث التحقيق هناك ...

.. لم يكذ طارق أن يدخل على ضابط التحقيق، حتى بادره بالقول استهزاءً به: (عامل حالك أبو علي^{(1)؟؟!!}).

فرد عليه طارق: أنا لست (أبو علي) ولكن، لماذا ترسلونا عند هؤلاء الأوباش؟ - وقصد بذلك العصافير -.. لو كان عندي شيء لقلته هنا...!! وبعد جدل طويل بينهما قال المحقق لطارق: ستدفع قيمة التلفاز الذي كسرته.

فرد عليه طارق: لن أدفع شيئاً واحداً...

قال المحقق: إذن، قل لي كيف عرفت أنهم عصافير ونحن سنتجاوز عن قيمة التلفاز؟ ففعل...!!

وهنا، لا بد من التذكير أن المخابرات غالباً ما تصر على معرفة بعض الثغرات التي يتمكن فيها الأسرى - أحياناً - من كشف حقيقة العصافير، حتى تقوم بسد هذه الثغرة لتصحيح مسارها، وحتى يبقى هؤلاء يستغلون بعض الأسرى الجدد، الذين لم يسبق لهم الاعتقال، لإيقاعهم في مزيد من الفخاخ الخطيرة، التي تساعد الضباط في مهامهم..

(1) مصطلح غالباً ما يطلق على البعض، كناية عن التحدي للآخرين

.. ولكننا نقول وللأسف وبكل مرارة: إن 90% من الأسرى، يقعون في الفخ عند العصافير، فمنهم من يُؤبَد أو يُؤبَدُ غيره بسبب كلمة قالها عند العصافير، لم يلق لها بالاً، أو ألقى لها بالاً، ولكنه لم يعلم أنه وقع في فخ العصافير...

وهكذا، وقع كثير من الأسرى في مثل هذه الفخاخ، رغم أنهم كانوا يعطون دروساً للتنبية من العصافير، ويبدو -والله أعلم- أن سبب كل ذلك يرجع إلى أن العصافير يستخدمون أساليب متنوعة، وطرقاً متعددة في التعامل مع الأسرى للتحايل عليهم والتغريب بهم..

قصة (أوبهاء) مع العصافير:

.. كنا قد فرغنا من صلاة العشاء، وإذ بابن العقد الخامس من عمره يدخل علينا وهو مفعم بالحيوية وكأنه قادم من طرف أحبابه..

كان السؤال الأول بعد التعارف: من أي الأماكن أنت قادم يا أبا بهاء؟ قال: من عند إخواننا.. فالتبس الأمر على السامعين، والكل يعلم أن التتقلات لا تحصل إلا في النهار.

قالوا له: أنت قادم من طرف العصافير يا أبا بهاء...!!

ما أن سمع هذا الكلام حتى بدأ شريط الذكريات يعود به إلى الخلف ليتذكر كل ما جرى من مواقف وأحداث عند من سماهم إخوانه..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

كنا نلاحظ ردة الفعل عنده، التي بدأت علاماتها على الوجه لتنتقل فوراً إلى إجراءات على الأرض.

كانت صدمة كبيرة قد أصابت الأخ أبو بهاء، حتى وصل به الأمر أن يضرب رأسه بالجدار إلى أن أغمي عليه، لينقل بعدها فوراً إلى العيادة.. عاد إلينا في اليوم الثاني وقد هدأت نفسه وبردت أعصابه.

قلت له: ما الذي حصل معك يا أبا بهاء؟

قال: في الوقت الذي كنت أتحدى فيه كل الناس وأقول: لا يستطيع أحد في الأرض أن يضحك عليّ أو أن يخدعني؛ لأتفاجأ بعدها بشرذمة قليلة قد أوقعنتي بفخاخها!!

ماذا سأقول لأبناء بلدتي، وقد ذكرت أسماء كثيرة منهم عند العصافير؟ بأي عزة وبأي كبرياء سأسير بين أبناء بلدتي، بعد كل الذي حصل معي عند العصافير؟

لقد كنت أدرس الشباب عن الأساليب الخطيرة التي كان يستخدمها العصافير ضد الأسرى.. فماذا سأقول لهؤلاء الشباب، بعد أن وقع أستاذهم في هذا المطب الرهيب، وذكر عندهم أسماء ومعلومات كثيرة؟

حقيقة كنت أسمع له وأنا أدرك النفسية المنهارة التي لا يحسد عليها أبداً، خاصة بعد أن وقع في فخاخ المنافقين..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لذا، فهذا الرجل نموذج من النماذج المحترمة ممن كان يعتبر نفسه واعياً وصاحب تجربة ومدركاً لخطورة العصافير وأساليبهم، بل كان يدرس الشباب في بلده عن مكرهم وخداعهم، ها هو اليوم يقع في براثنهم، فما بالكم بالبسطاء من صغار السن ممن لا يوجد عنده معرفة أو تجربة بأمثال هؤلاء؟ ومن هذا المنطلق؛ كنت وما زلت أقول إن 90% من الشباب المجاهد الفلسطيني يعترفون عن إخوانهم عند العصافير وليس تحت التحقيق والتعذيب...!!

ومن هنا، ما تركنا قيادياً من قادتنا ممن مروا بنا في معبار سجن الجملة إلا وأكدنا لهم هذه الحقيقة، لعلها تصل إلى من يهمه الأمر؛ لإيجاد العلاج الناجع لهذا الداء الخطير، عبر التوعية الإعلامية المكثفة من مسلسلات وقصص وتوجيه في المدارس ومؤسسات رسمية ومدنية، وتسخير الفضائيات والإذاعات المحلية مع مراعاة التغيير المستمر بأساليب العصافير المتنوعة، لعلنا نخفف من خطورة هذه الآفة التي حلت بشعبنا المجاهد.

من عوامل الوقوع بين مخالب العصافير:

.. من العوامل المهمة المساعدة التي تجعل الأسير يقع بين مخالب العصافير -والله أعلم- أن الأسير غالباً ما يخضع لظروف نفسية قاسية من حيث العزل عن الآخرين وسوء الطعام، وما يتلقاه من سب وشتم وإهانة وتعذيب جسدي لفترات طويلة، فيحرم من كل نعيم ورفاهية وحنان، وعزل انفرادي طويل، حتى أنه يشتهي أن يداعب دابة من دواب الأرض كصرصور

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

يتحرك، أو الحديث مع الآخرين من البشر فضلاً عن شهيته للطعام اللذيذ الذي فقدته طيلة عزلة، ثم يلقي فجأة - دفعة واحدة - وهو مكسور خاطر بين أحضان أناس يلبسون ثوب التقوى والإحسان والقرآن.. ظاهراً فيه الرحمة، وباطنهم من قبله العذاب..

هؤلاء يخفون خيانتهم ومخالبهم تحت مظلة التسبيح والتهليل والمأثورات، مما يغرر بكثير من الأسرى، ظناً منهم؛ أن أمثال هؤلاء من إخوانهم الأولياء الأتقياء الأخفياء...!!

أكل الرجال على قدر اعترافاتها؛

والشيء الغريب والملفت؛ أنه بالرغم من أن بعض العصافير يلقون كلمات طائشة أثناء الطعام الدسم الذي افتقده الأسير أشهر أحياناً، وهو يعيش خلف قضبان زنزانته، إلا أنه لا ينتبه لبعض هذه الكلمات التي تدل غالباً على عنوانهم، ولكن المثل القائل {إذا حضرت البطون تغيب الذهون} تجعله ينطبق تماماً على بعض من يعيش الجمعة المشمشية عند العصافير.. وليس أوضح على عنوانهم من المثل الذي يكرره دائماً العصافير أثناء الطعام، عندما يقولون ويكررون: {أكل الرجال على قدر اعترافاتها}..

.. فكم من أسير أخذ راحته في الحديث أثناء الطعام عند العصافير، وهو يكشف أسرار إخوانه وهو يقول: إن فلاناً في المكان الفلاني أو في الكهف الفلاني؛ فيكون سبباً مباشراً في تصفية مجاهد أو مجاهدين، وهو يتفكه في حديثه من حيث لا يشعر...

.. إنها معضلة يعيشها الشعب الفلسطيني.. كانت ولا زالت من أكبر القواصم للحركة الوطنية والإسلامية منذ بدايتها على الإطلاق.. فهل من حل سريع لهذه الظاهرة الاستنزافية والخطيرة للشعب الفلسطيني؟

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما هو الحكم الشرعي لمن كان سبباً في تصفية مجاهدين في مثل هذه الحالة؟

أو كان سبباً في تأييد بعض المجاهدين وهو يتفكه بأسرار إخوانه عند العصافير من حيث يدري أو لا يدري؟؟

هل فعلاً أن مثل هذا الإنسان ليس عليه إثم من الناحية الشرعية والأخلاقية، تحت ذريعة الاستغفال أو التغيرير به...؟؟

.. إنها أسئلة تحتاج إلى أجوبة أتركها إلى من يهمه الأمر من المقاومة وعلماء الإسلام!؟

إنه يوم حزين... إنه يوم صعب...!!

.. إنه يوم حزين⁽¹⁾.. إنه يوم من الأيام العصيبة التي عشتها في سجن الجلعة، ذاك اليوم الذي كُنت فيه على موعد مع الأهل في الزيارة الأسبوعية⁽²⁾.

هذه الزيارة التي كانت تختلف تماماً عن مثيلاتها... حيث واجهني الوالد بسؤال صعب قبل أن يتحدث معي بكلمة واحدة...! إذ فاجأني بجملة كان وقعها على نفسي كوقع السيف من الجسد، بل كان وقعها على نفسي أشد من الأيام التي قضيتها في أعماق الأقبية بين يدي زبانية البشر.. لقد قالها بملء فيه وبكل صراحة وبدون تردد: هل تريد يا بني أن تفضحنا بين الناس؟؟

.. لم أكن أصدق ما تسمعه أذناي، ولا ما تراه عيناي.. لقد قُطعت الأنفاس، وخرست الألسنة بُرهة من الزمن، ولم يعد بمقدوري أن التقط أنفاسي لشدة وقع هذه الكلمات على نفسي...!!

إلا أن جدية هذا السؤال الصعب، جعلت صداه يتردد داخل نفسي، كما يتردد صدى الصوت بين جبلين كبيرين، أو في عمق بئرٍ خالٍ من الماء وهو يدوي بما قاله الوالد: تفضحنا...!! تفضحنا بين الناس...!! بين الناس...!! بين الناس...!! وكل ذلك في لحظات...!!

(1) أوائل عام 1999م.

(2) الأسير الموقوف يزور أهله كل أسبوع مرة، والأسير المحكوم يزور أهله كل أسبوعين مرة.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

إنها لحظات.. لتعود الروح مرة أخرى إلى نفسي لمواجهة الواقع الذي فرضه الوالد عليّ في تلك اللحظات...!!

.. لم أكن أتوقع في يوم من الأيام أن أسمع من والدي مثل هذه الكلمات الجارحة، ولم أعود عليها أبداً منذ صغري، فقلت له وبكل لطف:

يا والدي الكريم، هلا وضحت لي ما تريد؟؟

فرد عليّ قائلاً: أنت تحدث الناس بأننا لا نرسل لك شيئاً؟؟ ففجعت مرة أخرى وأنا استمع لمثل هذه الكلمات.

قلت له: من قال لك هذا الكلام يا والدي؟؟

فرد عليّ وبغضب: الذين يأتون من عندك...!!

حزنت كثيراً لهذا الواقع الذي نعيشه!

قلت له: يا والدي الكريم، هل تصدق عني مثل هذا الكلام؟؟

قال: لا أصدق ولم أعهد عليك مثل هذا الأمر.

ثم قلت له: هلا قلت لي من هو بالضبط الذي نقل لك هذا الكلام؟

قال: لماذا؟؟

قلت له: حتى أحاسبه في يوم من الأيام..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

والشيء الذي أحزنني أكثر، أنه رفض أن يفصح عن اسمه، ولكنني قلت في نفسي: إن كنت لا أعرفه فإن الله يعرفه، وأوكل أمره إلى الله، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

.. ولنعد إلى الوالد، فقد حاولت أن أقنعه أن مثل هذا الأمر ما كان ولم يكن في يوم من الأيام أن يخرج من فمي.. ولن يكون في المستقبل إن شاء الله، وأنت يا والدي تعرفني جيداً، بأنني لا أتكلم أبداً على الناس البعيدين، فما بالك على أقرب المقربين؟؟

ثم حلفت له بالله ثلاثاً حتى قال لي: خيراً.. أنا أصدقك يا بني، ثم دعا لي بالخير والرضا والبركة....

سخرت نفسي لغيري؛

بقي أن أقول كلمة من أعماقي: لقد كنت مقيماً في معبار سجن الجلمة بحكم العزل الإجباري⁽¹⁾، استقبل فيه أسرى قادمين من أقبية التحقيق، حالتهم النفسية يرثى لها، وأقل ما يمكن أن نقول فيهم: مكسوري الخاطر...

وكنت في نفس الوقت أودع فيه أسرى إلى بقية السجون، ولا أبالغ إن قلت: إن عدد الذين مروا بنا عبر المعبار؛ لا يقل عن ألفي أسير من جميع

(1) بقيت في عزل الجلمة سنتين كاملتين بحكم:

أن السجون المركزية لا تقبل أسيراً بدون لائحة اتهام.

والأمر الثاني: لا توجد دولة تقبل باستقبال أسير من داخل السجون، نظراً لإصرار العدو ابعادي إلى خارج فلسطين.

الفصائل، ومن جميع قرى ومدن الضفة الغربية بما فيها الدوريات من البلاد العربية.

أقول: لقد قمت بخدمتهم حسب إمكانياتي المتواضعة لله، والله فقط، دون أن أُمَنَّ على أحد، وسَخَرْتُ نفسي ووقتي لهم، أعاملهم كما أعامل أحبائي، وأعطيهم من عطفِي وهم في أشد الحاجة إليه، في مثل هذه الأوقات العصبية، وفي مثل هذه الأماكن المهيينة، كما يعطي الأب حنانه لأبنائه، خاصة وأن معظم أعمارهم كان لا يتجاوز العقدين من الزمان، ولكن الشيء المحزن في نهاية الأمر، بل المؤسف، أن ألقى من بعضهم الدسيسة بيني وبين أعز الناس لدي، والدي وأهلي، ولا أبالغ إن قلت: إن ذلك اليوم الذي واجهني فيه والدي بهذا الموقف؛ من أصعب الأيام في حياتي، خاصة وأنا أعيش خلف القضبان..

.. إنه يوم حزين.. إنه يوم صعب.. فإلى الله المشتكى من ظلم الظالمين..

صدمة بعد صدمة

.. وقبل أن أغادر الحديث عن فترة وجودي في معبار سجن الجلطة، كان لا بد لي أن أتحدث ولو قليلاً عن صدمة الأهل بسبب اعتقالي بعد صدمة حادث ولدي (عمير).

.. لقد شكل اعتقالي صدمة كبيرة ثانية بعد عودتي من الخارج لدى العائلة بكاملها، باعتبار أنها لم تكن تتوقع أبداً ما حصل، رغم أن الأمر لا يعدو عن كونه طبيعياً في أوساط الشعب الفلسطيني، ورغم أن أخوين من إخواني سبقوني في الاعتقال في مرحلة من المراحل، وتعود الأهل على مثل هذه الصدمات، إلا أن اعتقالي تميز قليلاً عن الأجواء التي اعتقل فيها إخواني بعد أن جاء اعتقالي في ظروف إنسانية صعبة، حيث كان ولدي (عمير) ولا زال، في حينها، يتعافى في مستشفى العفولة، ترافقه زوجتي، وباعتقالي بقي الأولاد من غير أم أو أب داخل البيت، مما شكل صدمة للأولاد وعلى رأسهم زوجتي وولدي المصاب بعد أن ترامى لمسامعهم خبر اعتقالي أثناء وجودهم في المستشفى..

أما أنا، فلا شك أن مشاعري وأحاسيسي بقيت معهم، لكنها كانت تحدثني دائماً أن ما يحصل إنما هو ضريبة الطريق، ولا يمكن الوصول إلى الهدف الحقيقي إلا بدفع الثمن عبر هذا الطريق وبالتالي؛ فالخير فيما يختاره الله وَعَلَى

مواقف إنسانية

.. قد ينسى الإنسان كثيراً من الأحداث، ولكن قد يصعب عليه أن ينسى مواقف أحدثت جروحاً غائرة في القلب، قد لا تتدمل في سنوات أو عقود من الزمان.

.. وإن كنت أنسى، فلا أنسى ذلك الموقف الإنساني الرهيب، في الأيام الأولى من اعتقال، وأنا أرى زوجتي خلف الأسلاك الشائكة، تحاول، ولأول مرة بعد اختطافي، أن توصل لي صوتها أثناء خروجي من المحكمة في سجن الجلطة، ولكن دون جدوى..

.. لم تخف عليّ أحاسيسها تجاهي، وهي ترى الشرطي الذي يقودني، وأنا مقيد اليدين والرجلين، يمنعني من الرد عليها... إنها مواقف إنسانية لا تُقدر بثمن إلا بالصفقة التي وعدّها الله ﷻ لعباده المؤمنين..

.. ولم أنس - أيضاً - ذلك الموقف الإنساني المحزن، وأنا أرى والدي ابن الثمانين عاماً وهو يحاول أن يوصل إليّ كتيباً من كتيبات الأدعية والمأثورات، والناس ينظرون إلى الشرطي وهو يقف حائلاً بيني وبينه..

إنها مواقف إنسانية، ومعانٍ تنغرس في الأعماق، لا يمكن أن تمحى من الأذهان، وعلى كر الأيام وطول الأزمان...

مواقف حياتية مع الأهل

وهكذا تمر الأيام ونحن نعيش في ظروف صعبة في سجن الجملة،
وزيارات الأهل لا تكاد تنقطع عنا في غالب الأحيان..

.. ذات يوم، فاتحتني زوجتي بموضوع يهم حياتها اليومية وحياة الأولاد..
وكانوا آنذاك يعيشون في بيت العائلة..

قالت لي: أنت تدرك أننا نعيش في بيت العائلة، فإخوانك وأولادهم وأخواتك
وأزواجهم وأولادهم وأصهارهم؛ يعتبرون أن بيت العائلة كبيتهم، فيدخلون
متى يريدون ويخرجون متى يريدون باعتبار البيت للجميع، وأنت تعلم الحكم
الشرعي حول هذا الأمر، فابنتك أصبحت كبيرة، وأولاد إخوانك أصبحوا
كباراً، وأزواج أخواتك يدخلون البيت؛ مما يسبب لي إحراجات شرعية في
غالب الأحيان، خاصة عندما أريد أن أنظف لولد من الأولاد، فلا أجد ممراً
نحو الحمام إلا من أمام الجميع، وأنا على قناعة، أن بيتكم متدين، وأهله
متدينون أباً عن جد، ولكنك تعلم حال المرأة عند قيامها بالأعمال البيتية،
قد تكون في وضع لا يسمح لها بالحال الذي نحن عليه.

ولهذا، فإن مثل هذه الحال لا ترضيك من الناحية الشرعية..

قلت لها: عندنا ثلاث غرف علوية، بإمكانكم أن تعملوا فاصلاً خشبياً،
والمجال يتسع لبناء دورة مياه، فالأمر ميسر وسهل إن شاء الله..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. وما أن عادت زوجتي من الزيارة، ولامس هذا الرأي مسامع والدي حتى استشاط غضباً وحمل المسؤولية الكاملة لزوجتي باعتبارها صاحبة الرأي، وأن كل ما يجري إنما هو بترتيب منها..

.. لم يمض على هذا الموضوع سوى أيام قليلة، حتى جاء والدي في زيارة خاصة لي إلى سجن الجملة، وكان أول كلمة قالها لي بعد السلام: أتريد أن تخرج عني يا بني؟؟

قلت له: كيف...؟؟

قال: أراكم تخططون لإقامة فواصل خشبية بيني وبينكم وما إلى ذلك؟؟

قلت له: يا والدي، هذا حق شرعي للزوجة والأولاد....!!

قال: يا بني، ليس هناك غرباء بيننا...!! فهم إخوانك وأولاد إخوانك....!!

قلت له: يا والدي، الناحية الشرعية تحتم علينا هذا الأمر.. حاولت أن أقنعه، ولكن دون جدوى.

.. حاولت أن استرضيه، فقلت له: يا والدي، والله لا يمكن أن أفعل شيئاً يغضبك ولو بكل أموال الدنيا، فاطمئن، ما دمت أنك لا توافق على هذا، فلن أتصرف أي تصرف لا يرضيك، أما أنا وزوجتي وأولادي فبإمكاننا أن نتكيف مع الواقع الذي سنعيشه بالطريقة التي ترضي ربنا بقدر استطاعتنا، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها..

.. بعد انتهاء الزيارة، انطلق والدي ووالدتي وزوجتي إلى البيت ونحن على هذا الرأي، وما أن وصلت والدتي البيت وحدثت به إخواني حتى انتقضوا وقالوا: نحن مع رأي أخونا الأسير، ولا بد من إنفاذ رأيه، فقاموا على الفور بإقامة ساتر خشبي يفصل الغرف الثلاث عن بقية البيت، فضلاً عن بناء دورة مياه.

وبهذه المناسبة، فإنني أقدر هذا الموقف النبيل الذي قام به إخواني، حيث وفروا الراحة والطمأنينة لزوجتي وأولادي بما يتوافق مع شرعنا الحكيم، فضلاً عن أنهم حملوا عني عبئاً كبيراً في هذا الجانب، وفوتوا على الشيطان حظاً من حظوظه، وأغلقوا عليه باباً من أبوابه، فنجانا الله ﷻ من الانزلاق في معصية من المعاصي مع الوالد، ولولا لطف الله ﷻ لوقعنا فيها، والحمد لله على نعمه وفضله...

.. وهنا، تعلق زوجتي بعد الانتهاء من مجريات الأحداث، فتقول: لم يكن عندي مقدرة على ضبط الأولاد، إلا بعد أن أصبح هناك باب مستقل لغرفنا، ولم أرهم في راحة نفسية أكثر مما رأيتهم في مثل هذا اليوم.

ضغوط نفسية

.. لم تتوقف الضغوط النفسية التي كانت تواجهني داخل السجن، وهي ضغوط غير مقصودة من الأهل، ولكن الواقع أصبح يُفرض علينا باعتبار أن الزمن يسير، ولا بد أن يعيش الناس حياتهم الطبيعية، فلا يجوز أن تتوقف حياة الآخرين بسجن رب العائلة.

وعلى هذا الأساس، بدأ الأهل يأتونني في كل زيارة أسبوعية ويقولون لي: إن طلاباً كثيراً جاؤوا لخطبة البنت، التي لم تتجاوز في حينها العقد والنصف من العمر، ولم يكن ردي عليهم إلا بكلمات موجزة: رويدكم، فالبنت لا زالت صغيرة، فلم العجلة؟؟ فهلا تركتموها تكمل دراستها الثانوية...

.. لقد كان هذا الموضوع يشكل ضغطاً نفسياً على حياتي داخل السجن، فلا أنا أعلم لحظة محددة لخروجي من السجن.. ولا أنا أعلم إلى أي البلاد ستقذفني الأقدار؟؟ وكنت أحاول إقناع الأهل بما يدور في نفسي، ولكن دون جدوى..

.. لقد كنت أشعر أحياناً أنهم يسكتون، لكنني أعلم جيداً أن ما في أنفسهم لا يتطابق مع ظاهر حالهم، فسكوتهم أحياناً كان احتراماً لمشاعري، لا لأنهم اقتنعوا برأيي.. وهذا ما تبين لي فيما بعد، عندما جاءني الوالد وقد فرغ صبره، فداهمني بسؤال دون مقدمات قائلاً: يا ولدي: أنا لا أستطيع أن أرد الناس من الباب، فالناس يطرقون البيت في كل يوم، يطلبون البنت، والكل يريد أن يصاهر ك في البلد، فماذا أفعل؟؟

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

قلت له: يا والدي الحبيب: نحن لا نتكبر على الناس، ولكن وضعي الراهن لا يسمح بتزويج البنت في هذا الموقف، لصغر عمرها أولاً ولوضع قضيتي ثانياً.. آمل يا والدي الحبيب أن تتفهموا موقعي ووضعي..

وهكذا، بقي الأمر على هذه الحال، إلى أن قررت المحكمة العليا قرارها النهائي بإبعادي إلى الخارج...

عندها قلت للأهل: الآن بإمكانكم أن تزوجوا البنت، وها أنا أرفض قرار الإبعاد، وسأنتظر في سجن عسقلان إلى أن يشاء الله "وما تشاءون إلا أن يشاء الله".. وسأنتظر أمر الله.. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...

نظرة الجنائيين تجاهنا

لا شك أن معيار سجن الجلطة كان يتمتع بدرجة عالية من الاحترام لدى الجنائيين، ولدى الإدارة أيضاً، وهو عبارة عن غرفة خاصة بالأمنيين من بين (28) غرفة للجنائيين، وهو بمثابة ممر للأمنيين لكل من أنهى مرحلة التحقيق.. على أن يوزع هؤلاء على بقية السجون الأخرى لاحقاً.

فالجنائيون - مثلاً - كانوا غالباً ما يقفون على باب غرفتنا ويقولون: ليتنا معكم، فنحن نغبطكم على ما أنتم عليه، تأكلون بشكل جماعي، وتصلون بشكل جماعي، وتطفئون الأنوار في وقت واحد، ولكم أمير واحد، فنحن نتمنى أن نعيش معكم حتى ولو زادوا على حكمنا سنتين...

.. فهؤلاء الجنائيون، يشعرون عادة بعقدة الذنب والنقص بسبب قضايا بعضهم المخزية، مقارنة مع قضايا الأمنيين الوطنية العادلة والمشرفة..

علاقتنا بالجنائيين:

لم يكن هناك أي علاقة أو احتكاك بالسجناء الجنائيين أبداً، فالطعام والفسحة والعيش منفصل تماماً عنهم، اللهم إلا أن زيارة الأهل كانت مشتركة معهم...

ومع هذا المنطق، فإن صاحب الفراسة إذا نظر إلى الأهالي يستطيع أن يميز بين أهالي الجنائيين وأهالي الأمنيين، سواء كان عن طريق اللباس أو السلوك أو التعامل أو غير ذلك..

نظرة الإدارة تجاه الأمنيين؛

أما إدارة السجن فكانت تنتظر إلينا نظرة احترام وتقدير، وبفضل هذه النظرة تم نقل اثنين من الشرطة كعقوبة لهم حاولوا الاحتكاك بنا والإساءة إلينا، وقد وصل بنائب المدير ذات مرة أن يحذر مسئول القسم بعدم الاحتكاك مع الغرفة الأمنية أبداً...

لم يكن للجنايين أي احترام أو تقدير عند شرطة السجن، ومن هنا كان أحد أفراد شرطة السجن يقول: لو خيرت في المسؤولية على مائة أسير أمني وعشرة سجناء جنائيين، لاخترت الخيار الأول... وكان شرطياً آخر اسمه "أبو أمير" لا يصفهم إلا بالسراقين وينعتهم بمصطلحات أخرى..

ولذلك، فإن حياة هؤلاء صعبة جداً، خاصة عندما سمعت أحد السجناء الجنايين العرب يقول: كنت أعيش بين ستة من اليهود مدمني الحشيش، فانظر لحالنا ونحن نعيش في مثل هذا الواقع الأليم...!!

ما بعد معبار سجن الجملة

- إلى سجن عسقلان ..
- الانتقال تحت الضغط ..
- رمضان في سجن عسقلان ..
- وقفة قبل مغادرتي سجن عسقلان نحو سجن نفحة ..
- إلى سجن نفحة ...
- موقف مهم في سجن نفحة أوائل الألفية الثانية ..
- المفاجأة في عسقلان ..
- تأجيل تلوثاً جيل ..
- القرار بين يدي وزير الأسرى الفلسطيني .
- رفض الإبعاد على طريقتهم ..
- دفع الثمن .. بدون أثمان .. !!
- أربع إضرابات (فردية وجماعية) خلال عقد من الزمان .
- مفاجأة أخرى ..

إلى سجن عسقلان (1)

صحيح أن وجودي كان مُتعباً ومُرهِقاً في سجن الجملة، إلا أنه كان عبئاً ثقيلاً على إدارة السجن بحكم قدمي في المكان، فكلما قدم أسير جديد، شرحت له كل ما يتعلق بالسجن والسجانين، وكيفية الأساليب التي تتعامل بها إدارة السجن، فضلاً عن لفت انتباه الأسرى الجدد والقادمين للقوانين التي تخص حقوقهم، التي تحاول الإدارة هضمها.

.. إنَّ من أهم المميزات، التي امتازت بها فترة وجودي في سجن الجملة، العناد الذي كنت أجابه به الإدارة، ومناقشتهم حول قضيتي، فكلما كُنت أرى مسئولاً من المسؤولين يمر بجوار غرفتنا⁽²⁾؛ كنتُ استوقفه وأسأله إلى أين وصلت قضيتي؟! .. فبعضهم كان يستغرب من مثل هذه القضية الخالية من التهم، وبعضهم كان يعد بالفحص للتأكد، ولكن دون جدوى..

.. كنت أناقشهم بشكل استفزازي، حتى قال لي بعضهم ذات مرة: لو كانت عندك قضية لفعلنا بك كذا وكذا⁽³⁾ - يقصد إنزال العقوبة الشديدة بي - ولكن أنت هنا بدون تهمة، لا نستطيع أن نفعل معك شيئاً..

.. وذات مرة، استوقفت المدير في الفسحة (الفورة)، وسألته عن قضيتي، فقال: ليس عندي حل.. ماذا أفعل بك؟

قلت له: أن تضعني في تلك الزاوية وتطلق عليَّ النار.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/08/12م (كانت عملية نقلي من الجملة إلى عسقلان في 1999/12/09م).

(2) خاصة؛ وأن غرفتنا كانت تقع أول غرفة في القسم، تماماً على بوابة القسم، ولا مفر لأي مسؤول إلا وأن يمر من باب غرفتنا، فكان كلما مر مسؤولاً محلياً أو وفداً من المسؤولين الكبار من خارج السجن؛ كنتُ أستوقفه وأسأله عن قضيتي، وما أن يسمع هذا المسؤول أنني موجود في السجن سنوات بدون لائحة اتهام؛ حتى يأخذ رأسه الدوار، فيعد بدراسة موضوعي مع إدارة السجن.. ولكثرة مراجعة هؤلاء المسؤولين للإدارة؛ شكل لها عاملاً من عوامل الإزعاج، مما دفعها لاتخاذ قرار بنقل غرفتنا إلى نهاية القسم حتى يتفادوا هذا الأمر.

(3) كناية عن أن من ليس عنده قضية، قد يوقعه تحت طائلة المسؤولية.

عَقْدُ فِي جِيفِ الرَّدَى

فقال: لا يوجد عندنا رصاص...!! الرصاص هناك، وكان يشير إلى الحكومات العربية(1) ..

.. لم أترك فرصة سانحة يمكن أن أتحدث فيها عن قضيتي إلا وطرحتها وتناقشت فيها مع المسؤولين في إدارة السجن.

وهكذا بقي الأمر على هذه الحال حتى كانت هناك زيارة مفاجئة للمدير، فقال لمسئول القسم: لا أريد أن يبقى هذا الأسير هنا.. لا بد من نقله إلى أي سجن من السجون..(2)

وفعلاً تم نقلي في اليوم التالي إلى سجن عسقلان أوائل شهر ديسمبر 1999م.

الانتقال تحت الضغوط (3)

كان كلما مر علينا أسير من الأسرى الأمنيين القدامى، القادمين من السجون المركزية، يقول لي: نحن لا نستطيع أن نتضامن معك وأنت في سجن الجلطة، فإذا انتقلت إلى سجن عسقلان، ستري أننا سنفعل وسنعمل وسنقدم وسنبذل... الخ حتى أصبحت عندي قناعة تامة أن الخلاص الحقيقي بالوصول إلى سجن عسقلان بأي وسيلة كانت.

وفعلاً بقيت أستفز إدارة سجن الجلطة وأضغط عليها للانتقال إلى سجن عسقلان، حتى قرر المدير نقلي كما أشرت آنفاً..

(1) هكذا طبيعة اليهود؛ يمتازون بالعنجهية في حالة ضعفنا، بينما يمتازون بالذلة والمهانة، ما دامت العصاة فوق رؤوسهم من طرفنا.

(2) لا بد من التذكير هنا بأن السجون المركزية كانت ترفض استقبالي لعدم وجود لائحة اتهام، وكذلك؛ لا يوجد أي دولة من الدول عندها الاستعداد لاستقبالي باعتبار أن حالتي حالة إبعاد وهذا مخالف لاتفاقيات جنيف الرابعة كما يدعون...!! فضلاً عن أن هذه الدول لا تقبل أي مبعد من السجون.

(3) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/8/18م.

رمضان في سجن عسقلان⁽¹⁾

.. بعد سنتين من الزمان، قضيتهما على أحر من الجمر في عزل سجن الجلعة، حط بنا المقام في سجن عسقلان في أول يوم من أيام رمضان، الموافق 1999/12/9م، ولم يبق على نهاية العام سوى الأسابيع الثلاثة الأخيرة للدخول في الألفية الثانية...

.. كان نظام خط السير المتبع في النقلات من سجن الجلعة إلى سجن عسقلان، بأن يقضي الأسير ليلة واحدة في معبار الرملية في الغرف المعروفة تحت الأرض، فكان أول من التقيته في هذه الليلة⁽²⁾، الأخ (حاتم إسماعيل) من غزة، ولم أكن أعرفه مسبقاً، فصلى بي العشاء واعتذرت له عن صلاة التراويح، نظراً للتعب والإرهاق الذي لحق بي خلال السفر الطويل من سجن الجلعة إلى سجن الرملية..

.. وبعد أن طويينا ليلتنا في الرملية، توجهنا في الصباح نحو سجن عسقلان، وكان أول من استقبلني هناك الشيخ (صالح العاروري)، جزاه الله خيراً، وكان يقف بجانبه الأخ (رائد السعدي) من قرينتنا.. وقد استقر بي المقام في غرفة من غرف حماس رقم "4" قسم "أ" وكان بداخلها في ذلك الحين الأخ (سالم أبو غليون) من الأردن، والأخ (أبو سيف السموعي) و (أبو تقي، جمال الهور) وهما من الخليل، وغيرهم من الأسرى.

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) بتاريخ 2008/8/20م.

(2) كانت هذه الليلة قد وافقت أول ليلة من شهر رمضان.

وقفة.. قبل مغادرتي عسقلان نحو نفحة⁽¹⁾

.. وهنا - أيضاً - لا بد من التذكير بأمر مهم قبل مغادرتي سجن عسقلان باتجاه سجن نفحة؛ حيث أصيب معظم الأسرى في سجن عسقلان بالإنفلونزا الشديدة - إلا من رحم ربي وقليل ما هم - وكنت من بين هؤلاء القلة الذين لم يصابوا، مما دفع إدارة سجن عسقلان إلى إعلان حالة الطوارئ بين الطواقم الطبية في العيادة، وقد وصل الأمر بطاقم ضباط العدد⁽²⁾ إلى استخدام الكمادات عندما كانوا يدخلون إلى غرف الأسرى لعددهم..

وخلال هذه الأجواء الموبوءة بالإنفلونزا، كانت عملية نقلي إلى سجن نفحة وأنا في أتم الصحة والعافية، والحمد لله، مما حدا بي إلى شكر الله ﷻ على هذه النعمة والتباهي بها أمام إخواني في نفحة؛ بأنني خرجت بسلامة الله ورحمته من هذه الأزمة الصحية التي ضربت أسرى سجن عسقلان..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) عام 2008م.
(2) العدد: هو طاقم مكون من مجموعة من ضباط السجن يقومون بتعداد الأسرى ثلاث مرات يومياً على الأقل.

إلى سجن نفحة

أقول: لم يطل بنا المقام طويلاً في سجن عسقلان، أسبوعان، أو ثلاثة، حتى تم نقلي إلى سجن نفحة ليلة عيد الفطر، وما أدراك ما نفحة.. حيث بُعِدها عن الأهل وطول مسافتها، وشدة حرارتها صيفاً، وقساوة برودتها شتاءً، وصعوبة أجوائها في غالب الأحيان، وسوء تعامل إدارتها مع الأسرى..

.. هناك في قسم (6) كان المقام.. وفي غرفة (2) كان المنزل.. حيث بعض الإخوة من أحببنا.. من بينهم (زين شبانة) من الخليل، و(جمال علقم) من بيت لحم، و(نايف غيضان) من رام الله.. وكان ذلك في الشهر الأول من الألفية الثانية للميلاد..

.. لم يمض على وجودي في نفحة عدة أيام حتى أصبت بالإنفلونزا، وكانت أشد مما وقع بها إخواني في عسقلان... إنها وقعة، ولكنها شديدة في حرارتها وبرودتها، وشدة كحتها وارتخاء مفاصلها..

.. في هذه اللحظات، كان أكثر ما يتمثل لي في الخيال، وأنا على هذه الحال، صورة أهلي وأولادي وزوجتي جلية واضحة كل الجلاء أمام ناظري، لشدة حاجتي لهم، وذلك لخدمتي وتنفيذ طلباتي، مع أن إخواني ممن حولي لم يقصروا أبداً تجاهي، ولكنني كنت بأمس الحاجة إلى عائلتي، للوقوف بجانبني ولأراهم حولي، ولو عن طريق الإحساس برؤيتهم عبر الخيال..

موقف مهم في سجن نفحة أوائل الألفية الثانية

في أواخر عام 1999م كانت إدارة السجون قد فصلت أسرى منظمة التحرير عن أسرى حماس، وذلك تمهيداً للإفراج عن جزء من أسرى المنظمة، وذلك بناء على اتفاق تم ما بين المنظمة والصهاينة، وبالتالي، أصبح سجن نفحة تجمعاً لأسرى حماس.

وفي ظل هذه الظروف القاهرة، وغياب الفصل المنافس، الذي كانت كل الجهود تنصب تجاهه لحماية الذات، تفاجأ الجميع أن المنافسة التي كانت ما بين فصيل وفصيل انتقلت إلى ما بين الفصل الواحد، وأن الطاقات التي كانت تصرف وتفرغ في الفصل المنافس أصبحت تفرغ ما بين أفراد الفصل الواحد.

وهذا ما رأيناه واقعاً، عندما كانت الفصائل تعيش مع بعضها البعض في السجون الأخرى، كنا نجد شدة التماسك ما بين التنظيم الواحد.. أشد بكثير من أن يعيش التنظيم الواحد منفصلاً عن بقية التنظيمات الأخرى.

وعلى هذا الأساس، حصل الذي حصل من خلاف بين بعض إخواننا في حركة حماس من أسرى غزة وأسرى الخليل، مما أدى إلى تعقيد المشهد على ساحة سجن نفحة.

كانت هناك محاولات صادقة لرأب الصدع ولجمع الكلمة، فتشكلت لجنة قضائية للبت في القضية، إلا أن طرفاً من الطرفين رفض الحكم، وبقي الأمر عالقاً لإيجاد حل للموضوع..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

استدعاني الأخ (روحي مشتهى) من غزة والأخ (موسى عمرو) من الخليل، وقالوا لي: يا أبا عادل، أنت رجل حيادي وليس لك ناقة ولا جمل في الموضوع، وقد اخترناك لتكون عضواً في لجنة قضائية مع أخوين كريمين آخرين، للبت في هذه القضية، فما رأيك؟

قلت لهما: رأيي، أقترح أن تكون اللجنة إصلاحية وليست قضائية، وذلك لتقريب وجهات النظر؛ لأن أي قرار يخرج عن اللجنة القضائية - حسب تجربتي - يحتاج إلى قوة لتنفيذه.

إلا أن الإخوة رفضوا اقتراحي وأصروا على تشكيل لجنة قضائية واسمي من ضمنها، ثم أنزلوا تعميماً بالخصوص على القاعدة.

لم نكن نتوقع أن الإدارة كانت لنا بالمرصاد؛ حيث تفاجأ الجميع بقرار نقلي إلى سجن عسقلان في اليوم الثاني مباشرة، وفعلاً غادرت سجن نفحة باتجاه سجن عسقلان.

وهكذا استمر الإخوة في سجن نفحة بخطواتهم الصادقة، بعد أن أضافوا عضواً بديلاً عني، إلى أن حكمت اللجنة في القضية، إلا أن طرفاً من الطرفين (من حكمت اللجنة ضده) رفض الحكم.

وهكذا بقي الأمر معلقاً كما أعتقد حتى اشتعلت الانتفاضة الثانية بتاريخ (2000/09/28م) لتعود الأمور إلى مجاريها بالشكل الطبيعي بتوفيق الله وفضله.

المفاجأة في عسقلان⁽¹⁾

في الشهر الثالث من الألفية الثانية، عدت مرة أخرى إلى عسقلان، وكانت غرفة (9) في قسم (2) تنتظرني، وهي تتسع لثمانية عشر أسيراً.

.. لم أتوقع الوضع الذي رأيته في سجن عسقلان كما كان مرسوماً في مخيلتي، فأصبحت لا أستطيع أن أتحرك بقضيتي كما كنت أتحرك فيها في سجن الجلمة..

لقد كنت أشعر بعدالة قضيتي، وأتحرك فيها بنفسي بشكل مباشر مع المسؤولين، سواء كان مديراً أو نائب مدير، بينما وجدت نفسي محصوراً في سجن عسقلان..

فكلما راودني التفكير بالتحرك للاحتجاج نحو الإدارة، أجد نفسي مقيداً بقيود متعددة، وعلى رأسها: أن الحديث مع الإدارة لا يمكن أن يكون إلا من خلال ممثل الأسرى، وأن أي تصرف فردي أتصرفه أو أي خطوة أخطوها كنت أحسب لها ألف حساب حتى لا أجر المعتقل إلى "قمعة"⁽²⁾ أو أكون سبباً مباشراً في تعكير صفو الأسرى داخل سجن عسقلان⁽³⁾..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة (14) عام 2008م.
(2) "القمع" هو حالة استنفار قصوى تمارس فيها إدارة السجن كل حقهها، عبر رش الغاز الخانق في غرف الأسرى التي لا تتعدى مساحتها العشر امتار، وبعد دقائق تفتح قوات القمع في سجون الاحتلال أبواب الغرف وينهالون على الأسرى - المخنوقين بالغاز - بالضرب بالهراوات والارجل.
(3) وهذا لا يعني أن إخواني في عسقلان لم يقوموا بالواجب، بل بذلوا جهداً كبيراً، ولكن وجودي في سجن الجلمة كانت قضيتي حية ومتفاعلة نظراً لوجودي في وجه الإدارة بشكل مباشر، والذي كان موضوعي يشكل صداماً مزمناً لها بسبب هذا الاحتكاك المباشر.

.. ومن هنا، وجدت نفسي في وضع مختلف بشكل كلي عن الوضع الذي كنت فيه في سجن الجلمة، فمثلاً:

أولاً: أن زيارة الأهل في الجلمة كانت سهلة جداً لقرب المكان من البيت والقرية، فكانت زوجتي - مثلاً - تقطر الأولاد وترسلهم إلى المدرسة ثم تأتي لزيارتي وتعود إلى البيت قبل أن يعود الأولاد من المدرسة.

بينما في سجن عسقلان كانت زيارتهم تستغرق يوماً كاملاً من الفجر حتى المساء، فضلاً عن الإرهاق الشديد لها ولوالدتي صاحبة الثمانين عاماً بسبب بُعد المكان..

ثانياً: صحيح أن خروجي من سجن الجلمة جعلني أتخلص من العزلة التي كنت فيها، ولكن الإيجابيات التي تركتها هناك لا يستهان بها، فالإنجازات التي حققتها في سجن الجلمة لم أتمكن من تحقيقها في سجن عسقلان، والمتمثلة بهاتف أتحدث فيه مع الأهل والمحامي لمتابعة مشكلتي خارج السجن، بالإضافة إلى الزيارة الأسبوعية للأهل والمسافة القريبة.. والزيارة المفتوحة المباشرة مع الأهل دون حواجز في كل شهر مرة.. كل هذه الإنجازات سحبت مني في سجن عسقلان..

تأجيل تلو التأجيل

سبق وأن تحدثنا عن محكمة العدل العليا بالقدس، التي كان حال الجلسات فيها التأجيل تلو التأجيل.

لقد منحت النيابة مدة ثلاثة أشهر أكثر من مرة، من قبل المحكمة لإيجاد حل للقضية، ولكن هذه الجلسات كانت تتأجل الجلسة تلو الجلسة تلقائياً بناءً على طلب النيابة؛ مما دفع المحكمة إلى إعطاء النيابة فترة نهائية للبت في المشكلة وإلا ستضطر المحكمة أن تتصرف بإيجاد حلٍ مناسبٍ من طرفها..

وهكذا حُشرت النيابة في الزاوية من قبل المحكمة، واضطرت مرغمة في نهاية عام 1999م أن ترفع قراراً للمحكمة، خلاصته: لا مانع لديها بأن يذهب الأسير المذكور إلى غزة إن تعذر الحل لقضيته. فكان باباً من أبواب الفرج بالنسبة لي - حسب اعتقادي - انتظرته سنتين كاملتين..

القرار بين يدي وزير الأسرى⁽¹⁾

.. إذن، كان لا بد من التذكير بأن قراراً قد صدر من النيابة موجهاً إلى المحكمة العليا خلاصته: لا مانع لدى المخابرات من ذهابي إلى قطاع غزة، إن لم يتوفر مكان آخر للذهاب إليه في الخارج..

.. هذا القرار وصلني عبر المحامي، وقد توافق وصول القرار مع وجود وزير شئون الأسرى - آنذاك - لدى السلطة الفلسطينية هشام عبد الرازق في سجن عسقلان.. وقد قمت بشرح واقعي وموضوعي للوزير بوجود ممثلي الفصائل، إلا أنه رفض أن أتوجه إلى غزة، بذريعة أن غزة لن تكون في يوم من الأيام منفى لأي فلسطيني، وقد أصرَّ على موقفه هذا، وأنه لا بد أن أذهب إلى قريتي في الضفة الغربية عند أهلي وأولادي وزوجتي - في بلدة سيلة الحارثية - جنين - رغم توضيحي له أن المخابرات الإسرائيلية ترفض ذهابي إلى بلدتي، ولا إلى أي مكان في الضفة الغربية.. فكان جوابه الأخير: لا بد من الضغط عليهم حتى يوافقوا على عودتي للضفة، وهو يدرك تماماً أنه من الصعب موافقتهم على مثل هذا الأمر حينها... ولم يكن عنده استعداد لسماع رأيي، بدليل أننا كنا نتحدث معه وهو منطلق لمغادرة سجن عسقلان، مع سبق الإصرار بالرفض التام لوجهة نظري ورغبتي..

(1) وزير الأسرى في حينها هشام عبد الرازق.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

وكان يشهد هذا الموقف ممثل فتح، الأخ (أبو الناجي) وممثل حماس الأخ (زاهر جبارين) وممثل الجهاد الإسلامي (رائد السعدي) وممثل الرفاق (عصمت)، على ما أعتقد..

.. بعدها بأيام توجهنا نحو المحكمة العليا، فوجدنا أن كتاباً قد وصل الادعاء من وزير الأسرى هشام عبد الرازق يرفض فيه استقبالي في غزة، مما دفع القضية بالعودة إلى المربع الأول مرة أخرى من جديد. وبهذا نكون قد خسرنا فرصة ذهبية لإنهاء مأساتي في وقت مبكر..

رفض الإبعاد على طريقتهم

بعد شهرين من دخول السنة الجديدة من عام 2000م، انعقدت جلسة للمحكمة العليا، انتهت - أيضاً - بالتأجيل دون أن يتحقق شيء.

وفي أواخر الشهر الرابع من عام 2000م، كانت هناك جلسة أخرى، وفي هذه المرة يبدو أن النيابة كانت قد رتبت أمرها، فأحضرت التلفاز الإسرائيلي ليقوم بتغطية عملية الإبعاد، وقد كنت في حينها مصراً على عدم الموافقة على عملية الإبعاد حسب طريقتهم.

كان موقفي أن أسافر وحدي وبشكل اعتيادي وبطريقتي الخاصة، وخلاصتها: أن يطلقوا سراحي إلى بيتي ثم أغادر في اليوم الثاني بشكل طبيعي دون أي تدخل منهم، مما جعلهم يرفضون ويصرّون على ترحيلي بطريقتهم الخاصة، مما دفعني لرفض هذا الأسلوب، لما له من محاذير أمنية نحو المنطقة المجهولة التي سأرسل إليها.

دفع الثمن.. بدون أثمان...!!⁽¹⁾

عدت إلى عسقلان، بعد انتهاء جلسة المحكمة العليا بالقدس، في أوائل الشهر الخامس من عام 2000م، دون أن يتحقق أي تقدم تجاه قضيتي..

في هذا الوقت بالذات، أعلن الإخوة الأسرى في سجن (هداريم) الإضراب المفتوح عن الطعام، وكان من المقرر أن يشترك في هذا الإضراب جميع السجون وتكون ساعة الصفر فيه يوم الأحد 2000/5/2م، إلا أن سجن (عسقلان) تأخر عن إضراب سجن (هداريم) أسبوعاً كاملاً بسبب النقاش، الذي كان يدور بين الفصائل، في محاولة لإقناع حركة فتح في المشاركة في هذا الإضراب.

وفعلاً، بعد التغلب على هذه المشكلة، تم الاتفاق بين جميع الفصائل على أن يبدأ سجن عسقلان وغيره من السجون الأخرى بالإضراب المفتوح في الأسبوع الثاني من إضراب سجن هداريم، وقد استمر هذا الإضراب 24 يوماً، إضافة إلى أسبوع سجن هداريم الذي تقدم به عن بقية السجون..

وهكذا تفاعل الشارع الفلسطيني مع هذا الحدث الكبير بشكل ملحوظ؛ حيث نُصبت الخيام التضامنية مع إضراب الأسرى في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتفاعل الفلسطينيون في أماكن تواجدهم بشكل ملفت مع هذا الإضراب، عُرف في وقتها بانتفاضة الأسرى، التي سقط فيها مجموعة من الشهداء، وعشرات الجرحى، كان من بينهم الشهيدة أم الأسير (عمار الزين) من

1) كتبت في سجن شطه 2008م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

نابلس وغيرها من الشهداء، وذلك نتيجة لتضامن الشارع الفلسطيني مع هذا الإضراب..

.. حقاً إنه إضراب ناجح.. لم يتوقف إلا بتدخل رئيس وزراء العدو باراك، طالباً من السلطة الفلسطينية العمل والمساعدة للتوسط في حل هذه المشكلة، وبناءً على ذلك وصل وفد من طرف السلطة إلى سجن هداريم ممثلاً بوزير الأسرى هشام عبد الرازق آنذاك، تعهد في حينها للأسرى بتحقيق مطالبهم، مما دفعهم للموافقة على تعليق إضرابهم لحين تنفيذ ما تم الاتفاق عليه...

وعلى إثر هذا الاتفاق، قامت السلطة بإزالة جميع خيام الاعتصام المتضامنة مع إضراب الأسرى في الضفة والقطاع بالقوة.. وقد قبل هذا الموقف باتصال هاتفي من قبل باراك برموز السلطة، عبّر فيه عن شكره التام لمساعدتهم في إنهاء هذه المشكلة...

أما الإنجازات الموعودة، التي تتعلق بثمار هذا الإضراب، فلم يتحقق منها إلا الشيء اليسير، كان أهمها: إنهاء عملية العزل للإخوة المعزولين.. وبعد مرور شهور قليلة، اندلعت انتفاضة الأقصى في 28/9/2000م؛ حيث عمّت الضفة الغربية وقطاع غزة، مما أدى إلى انقلاب الأمور رأساً على عقب، وأصبح ما اتفق عليه في خبر كان...

.. وفي ظل هذه الأحداث، والمواقف الكثيرة التي كانت تجري، كان لا بد لي من أن أقتصر موقفاً واحداً أو إشارة من الإشارات البسيطة التي تتعلق

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

بقضيتي؛ حيث لفت انتباهي حوار هادئ كان يدور بجانبني من قبل أسيرين غيورين، إذ كنت استمع إليهما.

يقول أحدهما لصاحبه، وهو يشير إليّ: ما هو ذنب هذا الرجل حتى يُقحم في كل ميمعة، أو أن يكون وسط كل قمعة، أو يزج به في كل خطوة عقابية تقوم بها إدارة السجون، خاصة وأنه لا ناقة له فيها ولا جمل، ولا تهمة ولا اتهام طيلة فترة وجوده داخل هذه السجون الظالم أهلها...؟؟

.. كان صاحبنا يسأل والآخر ينظر إليّ نظرة استغراب واهتمام وكأنه يقول: حقاً، إنها مأساة.. إضرابات.. قمعات.. عقوبات.. غرامات.. إهانات.. تفتيشات، إيذاء وحرمان.. آلام وأفلام، لم يوجد لقصته مثيل، لا في الواقع، ولا في الخيال، ولا في الأحلام، التي عادة لا يراها الإنسان إلا وهو في ذروة المنام...!!

.. فقلت في نفسي: والحبل على الجرار.. في دفع الثمن بدون أثمان.. في هذا الزمان والمكان.. فهذا هو زمن حقوق الحيوان.. بعد أن دُفنت حقوق الإنسان، وكبر عليه أربعاً في الميدان.. فلا تكن حيران.. يا فهمان...!!

أربع إضرابات (فردية وجماعية) خلال عقد من الزمان

لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أنني سأمتنع عن الطعام بمحض إرادتي ولو ليوم واحد؛ لأنني كنت أعتبر مثل هذا الأمر ضرباً من الجنون.. ولكن الإنسان لا يعلم ما ينتظره من قادم الأيام من أقدار.

وتدور الأيام لنجد الأقدار قد أُلقت بنا في أعماق المعتقلات، ولا يجد الواحد منا سلاحاً وحيداً وفتاكاً في مواجهة إدارة السجون سوى الامتناع عن الطعام.

وها أنا اليوم أتحدث به عن نفسي بعد أن خضت هذه التجربة بشكل شخصي، وبشكل جماعي خلال عقدٍ من الزمان.

فقد سبق وأن أشرت إلى إضرابين سابقين خضتهما في سجن الجلطة، كان أحدهما إضراباً سياسياً والثاني كان إضراباً مطلبياً.. وها أنا اليوم أخوض إضراباً ثالثاً مطلبياً في أوائل الشهر الخامس من عام 2000م في سجن عسقلان، ولكن الفرق ما بين هذا الإضراب، الذي خضته في سجن عسقلان، والإضرابين السابقين في سجن الجلطة، أن إضراب عسقلان خضته بشكل جماعي مع إخواننا الأسرى، واشترك فيه عدة سجون، بينما خضت الإضرابين آنفي الذكر بشكل فردي، وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن الإضراب الفردي - غالباً - لا يكون تأثيره على إدارة السجون بنفس قوة الإضراب الجماعي داخل المعتقلات، وبالتالي قد لا يحقق الإضراب الفردي الإنجازات المرجوة إلا على مستوى شخصي ومحدود، بينما الإضراب الجماعي قد يصل تأثيره لكافة السجون، بل قد يتعدى تأثيره إدارة دولة العدو كلها، فضلاً عن الثمار والإنجازات الإيجابية -حتى على المدى البعيد- التي يمكن أن يلمسها كل أسير داخل السجون.

الأمر الثاني: أن الإضراب الأول، الذي خضته في سجن الجملة أواسط عام 1998م، كان فردياً، ولم أكن أعلم ما نوعية هذا الإضراب إلا بعد أن تنقلت بين سجون الاحتلال المركزية، ففهمت أن نوعه كان (إضراباً سياسياً)، باعتبار أن عنوانه كان المطالبة بالإفراج عني من سجون الاحتلال.

أما الإضراب الثاني في سجن الجملة عام 1999م، وكان فردياً أيضاً، لم أكن أعلم ما نوعه إلا بعد أن تنقلت بين سجون الاحتلال المركزية، ففهمت أن نوعه كان (إضراباً مطلبياً)، باعتبار أن عنوانه كان المطالبة بتحسين ظروف الحياة المعيشية داخل السجن.

أما الإضراب الثالث، الذي خضته في سجن عسقلان مع الأسرى بشكل جماعي عام 2000م كان - أيضاً - نوعه مطلبياً.

وأما الإضراب الرابع، والأخير، الذي خضته مع الأسرى بشكل جماعي في سجن (إيشل) بمدينة بئر السبع عام 2004م كان - أيضاً - مطلبياً، ولكن سنتحدث عنه لاحقاً إن شاء الله.

مفاجأة أخرى

.. وفي أوائل الشهر السابع من عام الألفين وقع صدام بين رئيس لجنة القضاء (أهارون باراك) والنيابة، بعد أن وجه أهارون باراك سؤالاً للنيابة خلاصته: ما دمتم تريدون احتجاز هذا الأسير، فلماذا لم تقدموا له لائحة اتهام؟؟

ردت عليه النيابة، إن لائحة الاتهام في داخل ملفه.
رد عليهم (أهارون باراك)، وهو بالمناسبة رئيس المحكمة العليا، قائلاً: لا يوجد في ملفه أي بند يمكن أن يقدم له لائحة اتهام..

.. وبعد شجار قوي بينهما، تم تأجيل الجلسة حتى 2000/8/2م، فكانت المفاجأة الأخرى بتبديل رئيس اللجنة باراك بقاضي آخر بعد أن رفض باراك التوقيع على إبعادي.. وبعد مداوولات صورية - كما أعتقد - قررت المحكمة قراراً نهائياً إبعادي خارج البلاد في 2000/8/2م.

قرار الإبعاد وما تلاه

- قرار الإبعاد .. وموقفان مهمان ..
- مشاعر تزاحمت عليَّ بعد قرار المحكمة النهائي .
- بكاء الوالدة حرق قلبي ..
- موقفي .. ما بين الوالدة وما بين الزوجة والأولاد أثناء القرار ..
- ما بعد قرار المحكمة النهائي ..
- أحداث جسيمة ما بعد قرار المحكمة العليا النهائي ..
- خلاصة عملية هروب عسقلان للرشق ونزار رمضان ..
- إيه يا عسقلان ..
- مسائل مهمة حول هروب الأسير كحق من حقوقه
- الجواب الأصعب للسؤال الصعب ..

قرار الإبعاد وموقفان مهمان

سبق أن قلنا إنه في تاريخ 2000/8/2م تم تعيين عقد جلسة نهائية للبت في قضيتي، في محكمة العدل العليا بالقدس، وقد كنت أطمح أن أجد العدالة في هذه المحكمة، التي تسمى بالعدل العليا، إلا أنني لم أجد فيها من العدل إلا الاسم، والوعد⁽¹⁾ الذي وعدني إياه ضابط المخابرات "أبو منير"، أثناء التحقيق، وجدته أمامي في المحكمة بعد أن مضى عليه أكثر من سنتين ونصف.

وهكذا قررت المحكمة إبعادي إلى خارج البلاد في 2000/8/2م، عن طريق قاضي آخر بدلاً من (أهارون باراك)، رئيس لجنة القضاء ورئيس المحكمة العليا، بعد أن رفض التوقيع على إبعادي في الجلسة التي سبقت هذه الجلسة.. إلا أنني رفضت القرار جملةً وتفصيلاً واعتبرته قراراً باطلاً وجائراً بكل المقاييس..

وبالتالي، كُتِبَ في القرار: في الوقت الذي توافق فيه على الإبعاد، فما عليك إلا أن تبلغنا بذلك.. ثم استقر بي المقام فيما بعد في سجن عسقلان..

(1) أولاً: لن ترى بيتك أبداً.
ثانياً: ستذكرني وأنت في القبر.
ثالثاً: كل قضاة إسرائيل في جيوبنا.

موقفان مهمان:

بهذه المناسبة، لا بد لي أن أذكر بموقفين مهمين؛ يؤكدان ما انتهت إليه هذه الأحكام أمام هذه المحاكم الهزلية والصورية، في محاكمة أبناء الشعب الفلسطيني:

الموقف الأول: أثناء التحقيق، قلت للمحقق - أبو منير - سيئ الذكر: أعتقد أن القضاء عندكم ديمقراطي ومستقل، وأنا على يقين أنه سيبرئ ساحتي، بل سيقف إلى جانب قضيتي وعدالتها.

فضحك ضحكة صفراء ساخرة، ثم قال: من قال لك هذا؟ قلت له: هذا حسب علمي. رد عليّ قائلاً: الذي قال لك غشك، وضحك عليك، ثم قال: كل قضاة إسرائيل في جيوبنا، وأشار بيده إلى جيبه..

وفعلاً، هذا الذي وجدته في محكمة الظلم العليا.

الموقف الثاني: عندما كنت في سجن الجلطة، جاءني أحد ضباط المخابرات إلى زنزانه رقم (11)، قبل المحكمة العسكرية بساعة، ومعه ورقة وقلم، وقال لي: وقع هنا على الإبعاد..

قلت له: لا أوقع إلا بعد أن أتناقش مع المحامي حول هذا الموضوع، الذي سألتقي معه بعد قليل في المحكمة..

قال لي: سواء وقعت أم لم توقع، سننتزع قراراً من المحكمة بإبعادك خارج البلاد.

فأنا - حقيقة - لم أتفاجأ كثيراً من هذه الأحكام؛ لأنني بنيت فهمي ووعيي على هذين الموقفين سلفاً.

مشاعر تزاومت عليَّ بعد قرار المحكمة النهائي⁽¹⁾

وهنا، لا بد أن أقول: إِنَّ عبارة (أبي منير)، التي قالها لي ذات مرة: كانت السر الحقيقي في بقائي هذه الفترة الطويلة داخل السجن..

إنَّه الانتقام بعد أن عجز أن ينتزع مني أي موقف ولو كان صغيراً..

إنَّه التنفيذ الحقيقي لوصية (أبي منير) عندما قال لي: "ستذكرني وأنت في القبر.."، وكذلك العبارة الأخرى التي قالها لي: "لن ترى بيتك طيلة عمرك..".

ولكنني قلت له ولغيره، وبكل صلابة والحمد لله: إِنَّ هذه السنوات التي قضيتها في الأسر ظمأً وبهتاناً، لم تحدثني نفسي لحظة واحدة من اللحظات بالندم على هذه التضحية، ولا زلت صامداً بإذن الله مهما طالت السنين، وسأبقى على هذا العهد ما حييت أبداً، ولم أتردد في مواقفي كلها بعد أن تعودت على ربطها بالثقة بالله ﷻ، فمن كانت حاله هكذا، فلا خوف عليه وإلى الله المشتكى..

ولكنني - هنا - لا أخفي ما في نفسي وما لحق بي من إيذاء لمشاعري وأحاسيسي، والأيام الصعبة في التحقيق، والضغط النفسي، وقلة النوم، وكثرة التفكير، وقلة الطعام أيام الزنازين، ما انعكس أثره على جسدي وضعفه وهزله في حينها، فضلاً عن نفسي وأعصابي..

(1) كتبت في سجن شطة قسم (7) غرفة رقم (14) بتاريخ 2008م.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

إِلا أَنِّي كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذَى) (1).

أقول: هذه الأحوال كلها تجعل الإنسان يعيش في أجواء غير الأجواء الطبيعية، التي تستدعي النفس البشرية أن تستنفر جميع طاقاتها وتهيئها للصبر الجميل على أسوأ الاحتمالات.

إن ما كان يصبرني، الوقوف على بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) (2)، وغيرها من الآيات القرآنية.

أما جانب العبادة، فيكفي أن أشير إلى أنني وأنا أعيش في أعماق الأقبية بلذتها والاستمتاع بها وطعمها الخاص، رغم أنني كنت أعيد صلاة الفجر تحت الأرض عدة مرات لعدم معرفتي بالوقت وجهة القبلة.. فما كنت أحدد الوقت غالباً إلا من خلال وجبات الطعام الثلاث التي كان يأتي بها السجناء..

هذه اللحظات، كنت استحضر فيها كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إبان أن كان في سجن القلعة وهو يقول: (مَا يَصْنَعُ بِي أَعْدَائِي؟ إِنَّ جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي، أَيْنَ رُحْتُ: فَجَنَّتِي مَعِيَ وَلَا تُفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خُلُوءٌ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ، وَقَتْلِي شَهَادَةٌ).

وكنْتُ أَقِفُ طَوِيلًا أَمَامَ عِبَارَتِهِ الشَّهِيرَةِ عِنْدَمَا كَانَ يَقُولُ: (الْمَحْبُوسُ مِنْ حَبْسِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَالْمَأْسُورُ مِنْ أَسْرِهِ هَوَاهُ).

1 (سورة آل عمران، آية 111).

2 (سورة التوبة، آية 51).

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

إن أكثر ما كان يقلقني أثناء التحقيق كثرة التفكير بعائلتي وما يبذونه من مشاعر تجاهي، خاصة في الأيام الأولى من الأسر، وامتناع بعضهم عن الطعام، وعدم استمتاعهم بالحياة الهادئة كما هي عند غيرهم.

ومن هنا، كنت وأنا على هذه الحال أردد مع الشاعر فأقول:

لا تستسهل الصعب أو أبلغ المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

وكنت أعتقد أن الوصول للهدف، لن يكون إلا عبر الصبر والمصابرة
والتمسك بالهدف الذي ترنو إليه عيناى..

هذا الإحساس.. هو الذي كان يمنحني الطاقة والهمة بفضل الله تعالى.

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

.. إنها مسيرة طويلة، تحتاج إلى وقود لمواصلة الطريق، ووقودها؛ الثقة
والصلة بالله ﷻ أولاً، ثم الصبر والاحتمال والتضحية بالنفس والنفيس ثانياً..

هذا ما كان يدور في نفسي، أنه لا يمكن أن نصل إلى الهدف الحقيقي
الذي نسعى إليه، إلا عبر هذا الطريق، وهذا الطريق وحده..

بكاء الوالدة حرق قلبي

.. بينما كان القاضي يتلو القرار، كانت الوالدة تبكي بكاءً مرّاً داخل قاعة المحكمة، وهي تلوح لي بيديها رافضة لهذا القرار، إلى أن اقتربت مني وهي تقول: يا بني: نحن بحاجة إليك.. إلى أين ستذهب وتتركنا خلفك، خاصة بعد أن كبرنا بالعمر، من يخدمنا بعدك؟ كنت أنظر إليها وقلبي يتقطع ألماً وحسرة على دموعها وحزنها على هذا الموقف..

لقد رأى القضاة هذا الموقف، فلم يحرك فيهم ما تبقى من إنسانيتهم شيء...

موقفي.. ما بين الوالدة وما بين الزوجة والأولاد أثناء القرار

كان الموقف صعباً؛ فالوالدة تستعطفني بأن لا أوافق على الإبعاد، والزوجة والأولاد يناشدونني بالموافقة على القرار، ولكنني في نهاية الأمر حسمت أمري، وقررت رفض القرار، وقلت لأولادي: مادامت جدتكم ترفض القرار؛ فأنا أيضاً لا أريد الإبعاد، وإنَّ الله وَجَّهَ لَن يَضِيعُنَا..

.. سمع القضاة قراري النهائي بعدم موافقتي على الإبعاد، فكتبوا في القرار: عندما توافق على الإبعاد تخبرنا بذلك.. ثم رجعت إلى سجن عسقلان لأقضي عشر سنوات أخرى في أعماق الأسر، فضلاً عن السنتين الماضيتين، وذلك على ذمة (هشام عبد الرزاق) وزير الأسرى آنذاك؛ لرفضه استقبالي في غزة بعد سنتين من اعتقاله.

ما بعد قرار المحكمة النهائي

بعد قرار المحكمة النهائي، عدت إلى سجن عسقلان، وأنا أبلور موقفاً لما بعد هذا القرار، وما يتعلق بمستقبلي ومستقبل من يرتبط بي من الأهل والزوجة والأولاد..

.. ولا أبيع سرّاً إن قلت: إن أكثر ما كان يؤرقني طيلة فترة الأسر، ما بين محكمة ومحكمة، هم الأهل والزوجة والأولاد وما يرتبط بي من قضايا متعلقة بمصير الأهل وحياتهم المستقبلية؛ لذا كان تفكيري يتلخص في هذه الظروف القاسية بالمفاهيم التالية:

أولاً: كان لا بد لي في هذه الأوضاع الصعبة من إبلاغ الأهل والزوجة والأولاد، بأن يعيشوا حياتهم الطبيعية إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، باعتبار أن كل القضايا المتعلقة بحياة الأهل ومستقبلهم كانت متوقفة على قرار المحكمة..

وبناءً على ذلك:

1. فإن الزوجة والأولاد بدأوا يهيئون أنفسهم لمرحلة ما بعد قرار المحكمة، ألا وهي مرحلة الاستقرار؛ إذ شرعوا بإقامة بيت مناسب يؤويهم بعد أن كانوا يعيشون في بيت الوالد.. ولا يخفى على أحد من ذوي الأبواب ماذا يعني بيت الوالد للعائلة؟؟

.. ومن هنا، كانت خلاصة أول تعليق لزوجتي بعد أن سكنوا البيت الجديد: هذه أول ليلة ينام فيها الأولاد نوماً مريحاً هادئاً مستقراً بعيداً

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

عن الضجيج، الذي كان يحدثه التقاء أولادي مع أولاد عمومته وأقاربهم في بيت العائلة بشكل يومي...

2. أن خطبة ابنتي كانت متوقفة على وضعي ووضع قضيتي، وما أن صدر قرار المحكمة النهائي حتى قلت لهم: بإمكانكم أن تزوجوا ابنتي حتى لا أربط حياتكم بما أعانيه..

ولذا كان نصيبها شاب من قرية عراني بالقرب من جنين، حيث النصيب يصيب كما يقولون.. مع أن أناساً عدة، ممن هم معروفون بصلاحهم لدينا داخل القرية، قد طلبوا ابنتي لأبنائهم، إلا أن الاعتذار كان نصيبهم، بسبب صغر عمرها في حينها أولاً، ثم لظروفي الصعبة داخل المعتقل، وعدم وضوح بوادر لنهاية قريبة لهذه المعاناة التي كنت أعانيها منذ سنوات...!!
.. أقول: رغم أن قناعاتي الخاصة بعدم تزويج الأبناء خارج القرية، إلا أن النصيب أحياناً قد يصيب..

ثانياً: قناعات لم تتغير حول عدم تغريب الزواج بعيداً عن المنطقة، لعوامل عديدة، أهمها:

العامل الأول: كنت، ولا زلت، أعتقد أن العمل على مشروع الزواج في حياة أي شاب يجب أن يبدأ بأول الأولويات لمشاريعه المستقبلية.. وأول هذه الأولويات -كما أعتقد- اختيار شريكة الحياة، والتفكير بتجميع العائلة المستقبلية المنوي تكوينها، ولا يمكن أن يكون هذا إلا عن طريق الزواج من داخل البلدة، أو ما حولها على أقل تقدير، وذلك للاعتبارات التالية:

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

إنَّ من حق الولد على والده أن يختار له أمه واسمه، ويشمل هذا الاختيار جميع هذه العائلة المزمع تشكيلها في المستقبل، بأن يكون أعمام أولاده وأخوالهم وعماتهم وخالاتهم وأجدادهم وجداتهم، من قبل الأبوين داخل البلد أو في أقرب نقطة من بلده، حتى يوفر على أولاده العناية الذي ينتظرهم في مستقبل حياتهم، وقد يظن البعض أنني بهذه الدعوة أقصد حصر الزواج بالأقارب.. كلا...!!

لم أقصد هذا.. مع أنني لست مع زواج الأقارب، وإنما قصدت أن يكون الزواج من أهل البلد، أو أهل المنطقة الذين يشتركون معاً بالعادات والتقاليد وغيرها، ومع هذا، فلا بأس بزواج الأقارب إذا ضمن الشاب أمرين مهمين:

1. أن يضمن العلاقة بين الأقرباء بأن تبقى قوية، وألا يؤدي تقارب الأقرباء بالمصاهرة إلى مشاكل عائلية...

2. أن يتأكد من عدم وجود أي مشكلات وراثية نتيجة هذا الزواج.

.. فإذا ضمن هذين المحذورين، فإنه لا شك أنه يضمن استقرار العائلة أولاً، ويضمن النسل الذي سيخرج محسناً ومؤصلاً، إذا تأكد فعلاً من الفحوصات، كما جاء في التقارير الطبية حول هذا الموضوع.

العامل الثاني: لقناعاتي في عدم تغريب الزواج⁽¹⁾ بعيداً عن المنطقة التي يعيش فيها؛ لأن العادات والتقاليد بين الزوجين تعتبر عاملاً مهماً ومساعداً لنجاح مشروع الزواج.. فالسعادة بين الزوجين محورها، أن يفهم الزوج زوجته

(1) تغريب الزواج: أعني به: الزواج من بلدان بعيدة عن سكن الزوج أو الزواج من جنسيات مختلفة.

وأن تفهم الزوجة زوجها، وبالتالي لا يمكن أن يتم الاستمتاع أو الاندماج النفسي أو الحسي أو الشعوري أو المعنوي، بين الزوجين، دون أن يفهموا عادات بعضهم البعض..

العامل الثالث: إِنَّ العائلة المحيطة بالزوج هي غالباً ما تدفع الثمن الباهظ في حالة اعتقال الزوج، مما يوقع الأهل جميعاً في إرباك؛ خاصة إذا كانت الزوجة من خارج البلاد التي لا يحق لها الإقامة في بلد زوجها، كأن يكون الزوج فلسطيني -مثلاً- والزوجة من الأردن، ثم يقع الزوج في الأسر.. لا شك أن مثل هذا الأمر يصبح معقداً بالنسبة للأهل بشكل عام، والزوجين والأولاد بشكل خاص..

.. فكم من أخ فلسطيني متزوج من الأردن -مثلاً- وعنده عائلة كبيرة، وشاءت له الأقدار أن يأتي إلى فلسطين ليجد قدره المحتوم في أعماق سجون الاحتلال لسنوات، ثم يفرج عنه بعد انتهاء محكوميته، وبالتالي يجد نفسه في مشكلة جديدة في المعاناة.. فلا زوجته تستطيع أن تأتي إليه لعدم حصولها على تصريح أو إقامة في فلسطين، ولا هو يستطيع أن يذهب إليهم لكونه أسيراً سابقاً يحرم عليه أمنياً المغادرة والسفر إلى خارج البلاد من قبل الاحتلال..

.. والنماذج في هذه الحالات متعددة ممن نعرفهم بأسمائهم والمخفي أعظم، فقد أفرج عن بعض إخواننا داخل فلسطين وزوجاتهم وأولادهم في الأردن، وبسبب منعهم من السفر للأردن، أدى إلى حرمانهم من الالتقاء مع زوجاتهم

وأبنائهم مما دفع بعض هؤلاء الإخوة للزواج مرة أخرى في أماكن تواجدهم.. وبهذا وقع المحذور الذي نحذر منه في تشتيت العائلات كلاً في أماكن تواجده..

.. والمثل الحي الذي يُضرب عادة من الواقع، غالباً ما يكون أكثر وقعاً وتأثيراً على النفوس، كلما كان قريباً من الوضع الذي يعيش فيه الإنسان.. فأنا -على سبيل المثال- أسير، وأعيش في أعماق سجون الاحتلال منذ أكثر من عقد من الزمان، فلو قدر لي أن تكون زوجتي من خارج البلاد، لوقعت في مشكلة كبيرة ومعقدة.. ولما رأيتها في أي زيارة لي طيلة وجودي في الأسر..

ولهذا، كنت حريصاً كل الحرص قبل الزواج ألا أتزوج إلا من بلدي، حتى إذا غبت فترة طويلة في الغربة خارج البلاد أنا وزوجتي وأولادي، وتأخرت في العودة لبلدي، نظراً لظرف من الظروف القاهرة، فإنني أجد في المقابل دافعاً قوياً من قبل زوجتي للعودة للأهل حتى يروا أولادي، فإن لم يكن دافع زوجتي العودة لرؤية أهلي، فأهلها الذين يقطنون قريتي هم بالتأكيد سيكونون عاملاً مهماً لجذبها ودفعها للعودة لرؤيتهم..

.. ومن هنا، فإنني أنصح الجميع، قبل أن يقدموا على مشروع الزواج أن يفكروا ملياً في عملية الاختيار، وأن يتطلعوا لمستقبلهم ومستقبل عائلاتهم الصغيرة المنتظر تشكيلها، وأن ينظروا لهذا الأمر بعين الاعتبار والحكمة والصواب حتى يريحوا أنفسهم وذرايرهم..

.. وهنا، لا بد من التنويه لأمر مهم، ألا وهو؛ أن البعض قد يظن أن الدعوة لهذه القناعة، معناه التقوقع والانحصار، وتحجيم الحياة العائلية والاجتماعية، وعدم التوسع في الأنساب أو التعارف فيما بين العائلات والقبائل.. كلاً...!!

.. إن هذه القناعة نابعة من قناعة شخصية، ومن خلال تجربة في مسيرة حياتي أضع من خلالها محاذير وتصورات كاملة لكل من يقدم على مشروع الزواج، بأن يفكر جيداً وبعمق لما بعد الزواج، بأن لا تنحصر رؤيته في دائرة المتعة والاستمتاع فحسب، بل لا بد أن يعلم أن حياة جديدة تنتظره بعد الزواج، وهي أوسع وأعظم مما يتصورها قبل الزواج، فما كان قبل الزواج بالنسبة للإنسان شيء وما بعد الزواج شيء آخر.

ومن هنا، فإنني أقدم هذه القناعة وهذه الفكرة، حتى لا يدفع الزوج وزوجته وأبناءه وأهله في نهاية المطاف ثمناً باهظاً كان من الممكن أن نتلافى سلبياته من بداية الطريق..

خلاصة الأمر: فإن مشروع الزواج من أعظم المشاريع التي يقدم عليها الشاب المسلم في حياته، فمن أراد أن ينجح في مشروعه المستقبلي فما عليه إلا أن يتأنى باختياره شريكة حياته، مكاناً، وزماناً، وصفاتٍ، منذ بداية حياته حتى لا تكون الغربة جزءاً من حياته، وحياة أبنائه وذريته وعائلته⁽¹⁾..

(1) وللتوسع حول هذا الموضوع كنت قد كتبت خاطرة موسعة حول هذا الموضوع تحت عنوان (حسن الاختيار أم عاطفة الانجرار) وذلك في سجن شطة، بتاريخ 2008/11/8م وهي منشورة في كتاب من

أحداث جسيمة ما بعد قرار المحكمة العليا النهائي

سبق أن قلنا إنَّ المحكمة العليا أصدرت قراراً بإبعادي خارج البلاد بتاريخ 2000/8/2م، إلا أنني رفضت قرار الإبعاد وبدأت أهيئ نفسي للاستقرار داخل السجن، حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً.. مع التذكير بأن المحكمة تركت لي الباب موارباً إلى حين موافقتي على قرار الإبعاد.

كنت أظن أن الظروف السياسية يمكن أن تتغير لصالحنا بالاتجاه الإيجابي، لكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن؛ حيث بدأت الأوضاع تتعقد شيئاً فشيئاً بعد شهرين من قرار المحكمة، فاشتعلت انتفاضة الأقصى، وانشغل الناس بأحداث عظيمة، وبدأ الناس يحللون الأحداث كل على هواه.

بدأ بعض العقلاء من إخواني الأسرى يقدمون لي النصائح بالموافقة على الإبعاد، حتى لا تُتسى قضيتي في خضم هذه الأحداث الجسيمة، التي بدأت تظهر من خلال زخم الاعتقالات والشهداء والجرحى في ذروة الانتفاضة التي كانت على أشدها، فدُفعت دفعةً من قبل بعض إخواني الأسرى الحريصين، فكتبت لمن يهمه الأمر، أنه لا مانع لدينا من الموافقة على قرار المحكمة، إلا أن النيابة كانت قد أسندت ظهرها لقرار قانوني صادر من المحكمة، وأصبحت لا تأبه لنا ولا ترد علينا نهائياً.

كنا نظن أن الأمر سيقف عند هذا الحدث، إلا أننا تفاجأنا بحدث أعظم منه وأكبر، ألا وهو حدث (11 سبتمبر 2000م) الذي غطى على كل

الأعماق (نبضات وأحاسيس من أعماق حبيس) ص: 247 ، وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الخواطر كتبتها داخل سجون الاحتلال.

الأحداث التي جرت، فزادت نصائح الإخوة لي، وبدأ بعضهم يضغط من باب النصيحة حتى لا أبقى طيلة حياتي داخل السجون، فدُفعت مرة أخرى للكتابة، لعلنا نجد آذاناً صاغية من قبل من يهمه الأمر بخصوص موضوعي، ولكن لا حياة لمن تنادي.

وفي عام 2002م، اتصل أحد الإخوة الأسرى⁽¹⁾ من سجن عسقلان بهشام عبد الرازق وزير الأسرى الفلسطيني -آنذاك- وطلب منه إنهاء مشكلتي، وأن يوافق على استقبالي في غزة، إلا أن جوابه كان سلبياً بكل المعايير، بل قال له بالحرف الواحد: "إن بقائي داخل السجن أفضل لي؛ لأن الوضع الآن غير مستقر، وأن الشارع ملتهب بانتفاضة شديدة".

وفي أوائل عام 2003م، اتصل بعض الإخوة الأسرى بالدكتور (عبد العزيز الرنتيسي) بخصوص قضيتي - وكنت بجانبهم أسمع ما يقال - فرد عليهم قائلاً: "نحن نعرفه ونعرف شيخنا الشيخ عبد الله عزام؛ وقد قررنا في المكتب السياسي في غزة الموافقة على أن نأتي به إلى غزة".

ولكن الأقدار كانت أسرع؛ حيث لم يمهله القدر حتى لقي الله شهيداً ﷺ تعالى، وبقي الأمر هكذا، حتى وقع حدث كبير داخل سجن عسقلان، عبر عملية هروب الأسير (محمد الرشق)، وزميله (نزار رمضان) عام 2003م، ثم تبعها القمعة الكبرى للأسرى سجن عسقلان.

(1) وقد كنت بجانب الأسير وهو يتحدث مع هشام عبد الرازق وزير الأسرى آنذاك والذي رفض استقبالي في غزة بداية عام 2000م.

خلاصة عملية هروب عسقلان للرشق ونزار رمضان

- حصلت هذه العملية عام 2003م في سجن عسقلان، من قبل الأسير (محمد الرشق) من بلدة قباطية التابعة لمدينة جنين وزميله الأسير (نزار رمضان) من قرية تل التابعة لمدينة نابلس.
- هذان الشابان كانا يعملان في خدمة الأسرى في سجن عسقلان تحت اسم أسير مردوان⁽¹⁾ بمعنى؛ أن أسير المردوان كان لديه تصريح مفتوح فبإمكانه الخروج من الغرفة على مدار نهار اليوم.
- بدأ الأسيران (نزار رمضان) وزميله (محمد الرشق) يخططان للهروب من سجن عسقلان بكامل السرية والكتمان؛ خاصة أنهما من ذوي الأحكام العالية.
- كان هناك شرفة تطل على مدينة عسقلان من جهة الطابق الثاني لقسم (4)، محاطة بحماية على شكل قضبان حديدية بشكل طولي.. ما إن يتمكن أحدهما من قطع أحد القضبان، حتى يصبح المجال مفتوحاً لأي إنسان نحيف الهروب من خلاله.
- عمل الأسيران على هذا الأمر، وبدأ يعملان عبر منشار حديدي بنشر القضيب الأوسط وبشكل يومي لمدة من الزمن.. وحتى لا ينتبه أحد

(1) مردوان: كلمة عبرية تطلق على الأسير الذي يقوم على خدمة إخوانه الأسرى طيلة نهار اليوم.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لفعلهما؛ استخدم الأسيران طريقة ذكية لتضليل الشرطة عبر تعليق قميص من القمصان على ما ينجز من عملهما اليومي⁽¹⁾.

• وعلى هذا الأساس، كان لا بد من خطوة تالية لإكمال خطتهما؛ حيث بدأ الأسيران بجمع أحزمة الشنط المتوفرة لدى زملائهم الأسرى دون أن يثيرا أي انتباه أو شكوك لصنيعهما، ثم أكملوا مشوارهما بتخييط هذه الأحزمة ببعضها البعض عبر مخيطة خاصة بالأسرى، ما شكل بمجموعها حبلاً طويلاً ربط في نهاية كل طرف من أطراف الحبل كُلاب حديدي، فشكلت هذه الخطوة ثلثي مرحلة عملية الهروب.

تطبيق الخطة:

وبناء على ما سبق، أصبحت الخطة جاهزة لعملية الهروب، ولم يبق سوى تحديد ساعة الصفر لتطبيقها على أرض الواقع..

فالحبل موجود ومجهز بكلاليب حديدية في كلا طرفي الحبل، والفتحة التي سيهربون منها جاهزة، والمسافة ما بين حماية الحديد للشرفة التي تطل على مدينة عسقلان وما بين المسافة لحديد سور السجن الخارجي قصيرة، ولم يبق إلا أن تدق ساعة الصفر.

(1) وكان الأسير نزار رمضان استفاد من تجربته الأولى أثناء عملية الهروب من سجن الجلمة عندما كان يحفر، وبعد الانتهاء من الحفر كان يعلق قميصاً على آثار الحفر لتضليل الشرطة.

بعد أذان المغرب مباشرة في يوم من أيام شهر رمضان، استغل الأسيران فترة انشغال الجميع بطعام الإفطار وتراخي إدارة السجن، التي غالباً ما تكون في مثل هذه الساعة في حالة استرخاء أمني.

أقول: بدأ الأسيران بالشروع بتنفيذ خطتهما على أرض الواقع، بعد أن وضع أحد الكلاب في حديد حماية الشرفة التي تطل على مدينة عسقلان، ثم ألقي الحبل من قبل أحدهما ليصل إلى الطرف الثاني من السور الخارجي، وشاءت قدرة الله ﷻ أن يمسك الكلاب بالحديد الخارجي للسور، وبهذا أصبح الحبل مشدوداً كجسر تسلق عبره الأخوان، وما أن وصلا إلى السور الخارجي، حتى اكتشفهما حراس السجن عبر الكاميرات، فانطلقت صافرات الإنذار تصدح ويتردد صداها بين جنبات السجن، ومع ذلك لم تتمكن الإدارة من اللحاق بهما في اللحظات الأولى.

أقول: نجح الأخوان في الهروب، لكن جهلها بطبيعة الأرض، وعدم معرفتهما بتضاريس المنطقة، مكّن الاحتلال من القبض عليهما بعد 3 أيام من الهروب، وذلك بمساعدة الصهاينة الساكنين في المنطقة.

بعض الآثار السلبية التي تترتب على عملية الهروب وانعكاساتها:

لا شك أن عملية الهروب كانت ضربة موجعة لإدارة سجن عسقلان وقيادته، ولكن كانت في نفس الوقت ضربة ساحقة لحقت بحقوق الأسرى وإنجازاتهم، التي حققوها على مدى سنوات طويلة في سجن عسقلان.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

.. إنها لم تُبَقِّ ولم تَدَّرْ؛ خاصة بعد أن ساور إدارة السجن بعض الشكوك بأن أطرافاً من داخل السجن من أسرى وغيرهم، كانوا على علم مسبق بعملية الهروب.

وبناء على ذلك، شرعت الإدارة بعملية انتقام وتتكيل وتشريد ضد الأسرى عبر تنقلات واسعة، وعزل إلى الزنازين، فضلاً عن سحب الإنجازات المهمة التي كان يتمتع بها الأسرى، مثل الفورة والمطبخ والمغسلة والكانتينة⁽¹⁾ والزيارات، وغيرها فأصبح السجن موحشاً ومخيفاً، ليس كالسابق، بل انقلبت فيه حياة الأسرى رأساً على عقب.

أخيراً: انتهى الأمر بشطر السجن إلى نصفين عبر جدار كبير من الشمال إلى الجنوب، وبعرض أكثر من نصف متر، وبارتفاع لا يقل عن (6) أمتار.

لقد أصبح العيش فيه محزناً، بل أصبح كله ذكريات في ذكريات، باعتباره من أكبر السجون وأقواها في مواجهة الإدارة، فضلاً عن أنه كان القائد والرائد في قيادة قلاع الأسر على الساحة الاعتقالية.

هذه المراثاة التي حصلت بعد عملية هروب محمد الرشق ونزار رمضان من سجن عسقلان، دفعنتي في حينها أن أكتب رثاء لسجن عسقلان تحت عنوان: (إيه يا عسقلان).

1 (دكان صغيرة داخل السجن يشتري الأسرى حوائجهم سواء كانت غذائية أو غيرها.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

إِيه يا عسقلان!! (1)

أية مصيبة حلت بك يا عسقلان؟

وأية نازلة أصابتك هذه الأيام؟

وأية ذلة وهوان أنت فيها يا عسقلان؟ بعد أن كنت صاحب الصولة والصولجان!! بل كنت السباق دائماً نحو الساحة والميدان!!

ما بك يا عسقلان، لا نسمع لك صهيلاً منذ أشهر من الزمان...؟؟!! بل منذ أن غادرنا الرشق ونزار رمضان!!

ما لي أراك تصمت صمت الجبان؟؟

هل ماتت فيك نخوة الشجعان؟؟

ما بالك؟

هل أصبحت مهيب الجناح؟؟

كيف كبوت يا عسقلان؟؟ وكيف تلقيت قوارع الزمان، دون أن يكون عندك رد الهمام؟؟

كيف حالك عند نفحة (2) والإخوان؟؟ وكيف ساحتك بعد أن أصبحت نصفين في المكان؟؟ وكيف أصبح وضعك بعد أن جاورك الزعران (3)؟؟

(1) كتبت في سجن عسقلان بتاريخ 2003/12/1م، صورت فيها الواقع الذي آل إليه هذا السجن، بعد أن تعرض لقمعة ساحقة ماحقة من قبل إدارة السجون، لم تبق ولم تذر، وذلك في عام 2003م، بسبب هروب الأسيرين من السجن (محمد الرشق "من قباطية"، ونزار رمضان "من تل نابلس").

(2) سجن نفحة.

(3) الزعران: السجناء الجنائيون.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أين رنينك يا عسقلان؟؟ وأين سمعتك؟؟ وأين قيادتك؟؟ وأين أسودك
الرابضة بساحتك الواسعة، وتحت شجرتك ذات الظلال الوارفة؟؟

أين السواعد في مغسلتك؟؟ بل؛ أين هؤلاء في مطبخك وكنيتنتك⁽¹⁾؟؟
أين عمال ساحتك؟؟ بل أين أصواتهم الجميلة التي طالما كنا نسمعها تغرد
كتغريد الطيور الزكية؟؟

أين مندوب عيادتك؟؟ أين مسؤول مكتبتك؟؟ أين حرية ساكنيك في
الحركة والانتقال؟؟

هل انتهى الاستقبال يا عسقلان؟؟
أين العصائر والبسكويت؟؟ أين التسالي التي كانت تنثر على مرأى
الضيوف الكرام؟؟ هل انتهت زيارة الأقسام؟؟

أين الحرية في صلاة جمعتك وأعيادك؟؟
أين الأحباب والخلان؟؟
أين الصولات والجولات؟؟ أين القول الفصل مع السجن والسجان؟؟
فما بالك يا عسقلان، أصبحت حزينا، وكأن الأمر ليس أمرك، والشأن
ليس شأنك؟؟

أين قرارك؟؟ كيف أصبح بيد الأشرار بعد أن كان بيد الأخيار الأحرار؟؟
أين لقمة عيشك، كيف أصبحت بيد الصغار⁽²⁾ بعد أن كانت بيد إخواننا
الكبار⁽³⁾؟؟

(1) الكنتين: دكان داخل السجن.

(2) المطبخ أصبح بيد الجنائيين؛ بعد أن كان بيد الأمنيين.

(3) الأسرى الأمنيين.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

كيف غابت عن وجهك هذه المعاني كلها يا عسقلان؟؟ لم تعد لك تلك
البهجة البهية التي كنت تكتسيها بعد أن كُسرت شوكتك، وقلّت حيلتك،
وضاقت ذات اليد، فطعامك وشرابك لم يعد الطعام الذي عودتنا عليه، فماذا
أنت فاعل يا عسقلان؟؟ هل أنت فعلاً تعيش في أحزان، أم أنك تعيش في
أحلام، للصدمة والذهول والدوخان⁽¹⁾!

فيا عسقلان...

سلام عليك في ذاك الزمان، الذي كنت تغيث فيه اللهفان..

سلام على أسودك الرابضة...

سلام على ساحتك العامرة...

سلام على مكتبتك الزاخرة...

سلام على همتك العالية...

فهل نقول لك الحديث: " ارحموا عزيز قوم ذل؟"

أم أنك ستتلهض من كبوتك فنقول عنك بعدها: "لكل جواد كبوة؟"

(1) كان الإخوة الأسرى يعيشون في سعة من عيشهم في سجن عسقلان، سواء كان على مستوى الحركة،
والتنقل، والمغسلة، والمخيلة، والمطبخ، أو غيرها من الأمور.

كنا نصنع طعامنا بأيدينا، خاصة؛ لا زلت أذكر نهاية إضراب الألفين، عندما خصصت قيادة الأسرى في
سجن عسقلان بعد الإضراب دجاجة كاملة محمّرة لكل أسير، وهذا شيء كبير ما كان يحظى به الأسير
في يوم من الأيام علماً؛ أن حصّة الأسير في الأيام العادية؛ ثمن دجاجة في الأسبوع.

كنت أنظر لإخواننا وهم يخرجون صواني الدجاج المحمّرة من المطبخ، والذهول يلف شرطة الاحتلال
من كل جانب.. لا يصدقون أن مثل هذه الأمور تحصل داخل السجون، ناهيك عن عمل الحلويات المتنوعة
التي كانت تصنع داخل المطبخ، هذه السعة التي كنا نتمتع بها، فُقدت بلحظة واحدة بعد هروب الأخوين
الكريمين محمد الرشق – ونزار رمضان من سجن عسقلان.

فضلاً عن أن هذا السجن كان هو القائد والرائد لكل السجون.

مسائل مهمة حول هروب الأسير كحق من حقوقه

هناك مسائل مهمة تتعلق بعملية هروب الأسير من قبضة سجانيه كحق من حقوقه.. لابد أن تكون هذه المسائل واضحة كل الوضوح في الأذهان:

المسألة الأولى: لا يستطيع أي أحد في الأرض أن يمنع الأسير أن يفكر في تخليص نفسه من قبضة سجانيه.

المسألة الثانية: إن الحديث الذي يدور دائماً في نفسية الأسير، كيف يمكنه أن يتخلص من هذه السجون الظالم أهلها، خاصة من ذوي الأحكام العالية.

المسألة الثالثة: إن لسان حال الأسير كأنه يقول: يجب ألا أفوت فرصة سانحة لي بالهروب من قبضة سجاني.

ولكن، لا بد من مراعاة مسألتين مهمتين في هذا المقام:

أولاً: أن يتجنب الهروب من السجن الذي يعيش فيه حتى لا يؤدي إخوانه الأسرى من ردادات فعل إدارة السجن.

ثانياً: أن الطريق الأسلم لبوابة هروب الأسير من قبضة سجانيه، أن يختار الوقت والمكان المناسبين لعملية الهروب، وأفضل هذا التوقيت والمكان لتنفيذ هذه العملية هو أثناء التنقلات نحو المحاكم والمستشفيات وغيرها، وبهذا يكون الأسير عافى إخوانه الأسرى من الثمن الذي يمكن أن يدفعه الأسرى من ردادات فعل إدارة السجن؛ لأن المسؤولية الكاملة في هروبه أثناء التنقلات، تقع على أفراد الحراسة التي تنقله إلى الجهات المعنية.

هذه خلاصة ما يتعلق بعملية هروب الأسير كحق من حقوقه، حسب وجهة نظري، والله أعلم بالصواب.

الجواب الأصعب.. للسؤال الصعب...!!⁽¹⁾

.. ما بعد قرار المحكمة بإبعادي إلى خارج البلاد، ورفضني لهذا القرار؛ أصبح وضعي معلقاً ما بين السماء والأرض، بل وأصبحت أعيش بين المطرقة والسندان.. مطرقة محاولة إفهام الناس ممن يلاحقني بأسئلته، التي تنهال عليّ من كل جانب كي أفهمه وضعي القانوني داخل السجن، وسندان السجن الذي يتصلب بقراره بعدم إطلاق سراحي داخل البلاد، بعد أن استند إلى قرار المحكمة العليا بالإبعاد.

والناس الذين يشكلون المطرقة صنفان من البشر:

الصنف الأول: تهفو نفسه لحب الاستطلاع؛ فتجده يسأل عن كل صغيرة وكبيرة إشباعاً لرغبته.. وتماشياً مع صفة حب الاستطلاع التي تلازم طبيعته في الحياة..

الصنف الثاني: صادق يتحرق لآلامي.. ويتحسر حرقة لمأساتي، فهو يود لو كان بيده ما يعينني لفعل الكثير الكثير..

.. وللحق والحق يقال: فإن عدداً من الإخوة المخلصين، بذلوا ما في وسعهم لمساعدتي ممن أعرفهم بأسمائهم ودرجات متفاوتة، بل لم يدخروا وسعاً أو جهداً إلا بذلوه في هذا المضمار، فجزاهم الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وهذا من باب {مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ} ⁽²⁾..

(1) كتبت في سجن شطة 2008م.

(2) حديث حسن صحيح، رواه الترمذي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. ومن هنا، أصبحت الأسئلة توجه إليّ من قبل الأسرى.. بينما كانت ولا زالت الأجوبة هي الأصعب، ولكن الأكثر صعوبة ما كان يواجهه الأهل من عدم توفر الإجابة لديهم عن أسئلة المعارف والأصدقاء.

فالسؤال الصعب هو: متى يطلق سراحك؟ ولكن الجواب الأصعب، هو عدم معرفتي متى الإفراج عني؟

.. فوالدي الذي شارف على التسعينيات؛ يُسأل باستمرار من قبل كبار البلد كلما دخل المسجد، أو حضر حفلاً، أو مر بدواوين الحارة يقال له: متى يُفرج عن ولدك...؟؟

.. ووالدي صاحبة العقد التاسع من عمرها، تُسأل من قبل معارفها عن موعد إطلاق سراحها، فلا تجد جواباً شافياً يُسغفها للرد على أسئلة جيرانها.. والزوجة، تُسأل من قبل نساء جيراننا ومن غيرهم، في كل مناسبة من المناسبات، أو لقاء من اللقاءات النسوية في القرية.. يقال لها: متى يفرج عن زوجك؟؟

أمّا الأولاد.. فماذا عساهم أن يُجيبوا؟ وهم على براءتهم يُسألون من قبل معلمهم وأساتذتهم بين الفينة والأخرى؟؟ متى يخرج والدكم من السجن؟؟ فلا يجدون جواباً لهذه الأسئلة الكثيرة، بل تجدهم في حيرة من أمرهم؛ لأنه لا يتمثل أمامهم إلا الجواب الأصعب.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدِّ

بخلاف الأسرى من ذوي الأحكام عندما يسأل الواحد منهم عن حكمه أو يسأل ذويهم فيكون الرد سهل جداً: إن حكمي كذا وكذا.. فكنت أغبطهم ولا أحسدُهم على سهولة الرد فأقول لهم.. السؤال السهل للجواب الأسهل.

.. أما أنا، فالوالد.. الوالدة.. إخواني.. أخواتي.. زوجتي.. أولادي.. أقربائي.. معارفي.. كلهم يُسألون عن السؤال الصعب، ولكنهم يحتارون غالباً بالجواب الأصعب...!!

.. حقاً إن الإجابة كانت ولا زالت صعبة جداً.. بل كانت من أصعب الأسئلة التي واجهتها وواجهها الأهل طيلة فترة أسري.. كيف لا...؟؟ وقد كانت هذه الأسئلة ولا زالت هي نفسها التي تواجهني داخل السجن في حينها لعدم وضوح الجواب الشافي لها..

.. أسئلة تنهال عليَّ أحياناً كلما التقيتُ بقدام جديد من المعتقلين.. والأسرى عادة يتعارفون فيما بينهم، ويتساءلون أحياناً عن قضايا بعضهم البعض.. وقد كنت ولا زلت أتهرب في كثير من الأحيان من الحديث حول كل أمر يتعلق بالأمور القضائية أو الأحكام أو الإفراجات، حتى لا أبادر بالسؤال الصعب الذي يحتاج إلى الجواب الأصعب..

.. إنهم ينهالون عليَّ بالأسئلة.. كلما التقيت بالقدامين الجدد.. ما هي قضيتك؟ ما هي تهمتك؟ متى الإفراج؟

.. إنها أسئلة ثقيلة على نفسي كلما سألني أحدهم: ما هي قضيتك؟ فأقف برهة من الزمن؛ لأن أي جواب لهذا السؤال ينبني عليه أسئلة أخرى..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

ولذلك، كان من عادتي أن أرد على بعضهم بجواب قصير ومختصر خلاصته: ليس عندي قضية...!!

.. وهكذا.. ما أن يسمع مني هذا الجواب.. حتى أجده يسارعني بالسؤال الثاني: ما حكمك؟؟ فأقول له: ليس عندي لائحة اتهام...!! فيقف مذهولاً.. مشدوهاً.. مندهشاً.... مستغرباً ثم يعلق بقوله: عقد من الزمان وليس عندك لائحة اتهام؟؟ ليس عندك قضية...؟؟ إذن، حالة فريدة من نوعها داخل السجون الإسرائيلية؟؟ فأقول له: نعم، فيقول: إذن متى يفرج عنك؟؟ فكنت أجيب دائماً أن الأمر بيد الله.. (لله الأمر من قبل ومن بعد).. ليس عندي جواب شافي أكثر من هذا الجواب...

وكنت أحياناً أتهرب من السائل؛ حفاظاً على نفسيّتي وأعصابي، فأختصر له الجواب حتى يختصر عليّ كثرة الأسئلة، وأحياناً؛ كنت أقول للواحد منهم: إذا أردت أن أجيبك عن أسئلتك فانتظرنى بعد صلاة الفجر مباشرة؛ حتى يكون لدينا الوقت الكافي لأحدثك عن تفاصيل التفاصيل حول قضيتي...!!

.. وهكذا عشت طيلة الفترة التي قضيتها داخل السجن.. عشتها بأعصاب مشدودة.. إنه سؤال ثقيل...!! حقاً إنه ثقيل على النفس.. كنت أواجه هذا الواقع باستمرار داخل السجون؛ لأن كل سائل ينتظر مني أن أشرح له قضيتي من بدايتها إلى نهايتها شرحاً مفصلاً..

ولك أيها القارئ الكريم أن تتصور معي مدى الجهد الذي يلحق بي، عندما يطلب مني كل قادم جديد أن أشرح له أحداث عقد من الزمان...!!

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدِّ

تُرى!! من أي مادة نسجت تلك الأعصاب التي يمكنها أن تتحمل كل هذا العبء الثقيل...؟؟

وبالتالي، لم أجد بداً أو حلاً لما أنا فيه، للخروج من هذه الدوامة، التي كنت أعيشها إلا أن أكتب قصتي على عدة وريقات.. كلما تعرضت للسؤال الصعب أقدم هذه القصة مكتوبة لصاحب السؤال؛ حتى أتقادي الجواب الأصعب وذلك راحة لنفسي وأعصابي.

فهل فعلاً يعذرني القارئ على هذا العنوان.. الجواب الأصعب للسؤال الصعب؟؟

.. إنها قضية ولا أبا الحسن لها، قالها عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب عليه السلام، كلما كانت تواجهه قضية قضائية معقدة..

تُرى...!! ماذا عساني أن أقول: وقد خلى الزمان من عمر وعلي وأمثالهما؟؟!!

وختاماً: لا أقول: إلا ما يرضي الرب!!

فإلى الله المشتكى....!!

خواطر في سجن بئر السبع أوائل عام 2004م

- السبع ثمناً لعسقلان.
- حرمان من الحنان..!!
- لحظة صمت..
- وغاب الطود الشامخ.
- قصة مثيرة في التحول المفاجئ.
- أذكاء.. وجدوا أنفسهم وفرصتهم داخل المعتقلات..

السبع ثمناً لعسقلان (1)

بعد القمعة المشهورة لسجن عسقلان، مكثت فيه حتى بداية الشهر الثاني من عام 2004م، ثم نقلت بعدها إلى سجن السبع (إيشل قسم 17)، فتفاجأت هناك بعدة مفاجآت، ومن هذه المفاجآت، وجدت أن الضابط الأمني المجرم الحاقد (يورام) الذي اشترك في قمعة سجن عسقلان، كان قد سبقنا ليعمل في سجن السبع.

ووجدت أن ساحة الفورة في سجن (إيشل قسم 17)، صغيرة جداً، تقدر بعُشر ساحة سجن عسقلان، وهي لا تزيد عن مساحة غرفتين من الغرف تقريباً.

ووجدت الحمّام الذي يستحم فيه الأسرى، مصنوعاً من الحديد الصاج بحجم الثلاجة الكبيرة على مرة ونصف، ولأول وهلة أو نظرة لهذا الحمّام يظنه الظانّ ثلاجة للموتى.

(1) بعد قمع سجن عسقلان بسبب هروب الأسيرين محمد الرشق ونزار رمضان من المعتقل، وبعد الفضيحة المدوية للضابط الأمني يورام، تم نقله كعقوبة إلى سجن السبع. ولهذا السبب كان ينتقم من كل أسير قادم للسبع خاصة من عسقلان.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

فاستوقفتني كل هذه المناظر فكتبت عندها هذه الخاطرة:

قالوا: سبع!

قلت: بل بئر، فيها ضبع فاغر فاه.. حسودٌ حقودٌ يقول: واغيظاه!! وانتقاماه

ممن عاش في عسقلان، ومن لاذ بحماه!!

قالوا: أتقصد يوراماه⁽¹⁾؟؟

قلت: نعم، بل منفاخاه⁽²⁾!!.. ذاك النغل، بل البغل، إن لم يكن نعلًا،

حسودٌ حقودٌ، يقول: واغيظاه!!

قالوا: هكذا السبع!!

قلت: اسم على غير مسمى، وليس له من الحقيقة إلا الاسم.

قالوا: ما به؟؟

قلت: آلام بدون آمال، وكيفيك من همه، تلك الفورة⁽³⁾ والحمّام⁽⁴⁾.

هكذا كان السبع ثمنًا لعسقلان!!..

(1) يورام: اسم الضابط الأمني الفاشل في سجن عسقلان.

(2) منفاخاه: يقصد به الضابط يورام وكان رجل سميناً جداً.

(3) الفورة: هي الساحة التي ينتزه فيها الأسير ومساحتها ضيقة جداً.

(4) حمام مصنوع من صاج الحديد، والذي يراه من أول وهله؛ يظنه ثلاجة للأموات فضلاً على مساحته

الضيقة جداً، خاصة للأسير السمين الذي لا يستطيع أن يتحرك فيه.

جاءني خبر زواج ابنتي البكر، وكان ذلك في أواسط عام 2004م، ففرحت لزواجها، وحزنت لحرمانني من حضور حفلها، وما أصعب مثل هذه المواقف على الأسير، وعلى أهل الأسير، وعلى بنت الأسير، أن تتزوج ابنته وهو خلف القضبان، ولكني - في حقيقة الأمر - طمأنت نفسي بأن الأمر كله بيد الله ﷻ، وما هي إلا واحدة من الابتلاءات قابلها الله ﷻ لنا بعدد كبير من العطاءات، فصبر جميل والله المستعان على ابتلائه وعلى نعمائه.

وهكذا، مر عام وأشهر عديدة على زواجها وأنا خلف القضبان، وعلى هذه الحال، فجاءت وهي تحمل حفيدتي ابنة العام والنيف لتزورني في سجن السبع، ولكن السجن - للأسف - كان حائلاً دون السماح لابنتها من الدخول، وحرمانني من احتضانها.

فعادت بي الذاكرة أيام كنت بين أطفالي أداعبهم وألاعبهم وهم في سن الطفولة، فكتبت خاطرتي تحت هذه المعاني:

في إحدى الغرف المعدة لزيارة الأهالي في سجن شطة، تفاجأت وإذ بأولادي ينتظرونني هناك انتظار الغائب عن أهله، يجلسون وأمامهم حفيدتي ابنة السنة الواحدة ونيف، يحجز بيني وبينهم حائط زجاجي كبير، لم يكن بإمكانني أن ألمسها لمسة حنان، رغم محاولتي وإلحاحي الشديدين مع

(1) كتبت في سجن شطة - بتاريخ 2007/11/09م .. لكن الأحداث كلها في سجن السبع أواخر عام 2005م.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

الضابط المسؤول، لعل مشاعره وأحاسيسه الإنسانية تتحرك تجاهي، فیدخلها عندي.. فألعبها وأداعبها كما یلعب ویداعب الأب ابنته أو الجد حفيدته، ولكن دون جدوى.

ومع هذا فلم أعدم الوسيلة التي یمكن بها أن أوصل حناني تجاهها، ولو بطرقات خفيفة عبر رؤوس أصابعي على الجدار الزجاجي الفاصل، ففعلت...!! فبادلتني نفس الشعور، وهي مفعمة بابتسامة عريضة بريئة، أتبعتها هي بضربات غاضبة، وكأنني أقرأ في ضرباتها الشديدة شيئاً لو كان باستطاعتها أن تعبر عنه ل قالت: ما هذا الجدار الظالم أهله الذي یفصل بيني وبين جدي؟؟

ولكن، وإن كانت لا تستطيع أن تعبر عما في داخلها بالقول، فحركاتها أكبر وأعظم تفسيراً من الأقوال، مما جعل هذا الموقف مثار أسئلة كثيرة في أذهان أبنائي وهم يشاهدون ما یرونه أمامهم، وما یسمعون، كأن لسان حالهم یقول:

أین الإنسانية التي تدّعونها؟

وأین الديمقراطية التي تتشددون بتطبيقها؟

وأین حقوق الإنسان؟

ألا یكفیكم ظلماً للبشر؟

هكذا قرأت في وجهها ووجوههم، وهكذا فسرت مسلكها ومسلكهم، وحركاتها وحركاتهم.

العودة بالذاكرة الى الوراء؛

هذا الموقف جعلني أعود بذاكرتي لأعيش في عالم الذكريات، أيام أن كنت أداعب أبنائي يوم أن كانوا صغاراً، ولكن شتان شتان ما بين الموقفين، فالأرض غير الأرض، والوضع غير الوضع، والأجواء غير الأجواء، والظروف غير الظروف.

عدت إلى غرفتي والحزن يلفني من كل جانب، يشعر كل من رآني بأن زيارتي لم تكن موفقة، أو يقرأ في ملامح وجهي ما يخفى خلفها أموراً تدفع المحبين للتساؤل عنها.

عندها؛ فاتحني بعض إخواني حول ما أنا فيه، فألقيت ما بنفسي على مسامعهم، فتحركت مشاعرهم تجاهي، فشاركوني أحاسيسي ومشاعري.

لم تكن هذه قصة عابرة لتنتهي وتطوى في ملف النسيان، بل كان موقفاً أثار شجوني، وذكرني بحرمانني هذه السنوات الطوال، من مشاهدة ومتابعة تدرج مراحل العمر لدى أبنائي.

أحاسيس ومشاعر لا يشعربها سوى الأسير؛

أقول: لقد تفاجأت وأنا أدقق النظر في أبنائي، فرأيت أмами رجالاً بعد أن تركتهم صغاراً، إنها مشاعر وأحاسيس لا يمكن وصفها من خلال أسطر تُقرأ، ولا يمكن أن يعوضها شيء من أمور الدنيا، إنها لحظات عظيمة، بل صعبة وقاسية على النفس البشرية، فكيف إذا كانت هذه المشاهد تتعلق بمشاعر أب عاش بعيداً عن عائلته وأولاده قسراً وظلماً وعدواناً؟

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أقول: كيف إذا كانت هذه المشاعر تتعلق بأب ترك أولاده خلفه وهم في عداد الأطفال؟ ليتقاجاً بعد زمن، بصورة مغايرة عما علق بذهنه، ليجدهم ماثلين أمامه على أرض الواقع رجالاً أشداء.

إنها مفاجأة لا نظير لها، مليئة بالأحاسيس والمشاعر، وأنا استقبل فيها أبنائي بعد سنوات عشر مضت، وما أدراك ما هذه السنوات العشر، مات فيها من مات، وولد فيها من ولد، وتزوج فيها من تزوج، وانهارت فيها عروش، وربى فيها كثير من الناس كروشاً، وتبدلت فيها أنظمة، ومر فيها العيد تلو العيد، ورمضان تلو رمضان، ومناسبات لا تعد ولا تحصى، ودهنت فيها أبواب⁽¹⁾ بعد أن صدأت مرات ومرات، كل ذلك ونحن نعيش بعيدين كل البعد عن الأحباب، يفصل بيننا وبينهم جدران وقضبان، وحدود وسدود ووديان، يصحبها همّ وغمّ وعذاب وآلام سجان.

واليوم.. استيقظت لأجد نفسي مهيبض الجناح، منزوع الإرادة والحرية، بل محروماً حتى من متابعة حركة واحدة من حركات طفل من أطفالي، أو الاستشعار ولو للحظة من لحظات حياتهم، سواء كانت هذه اللحظات في حال سرور، كاستشعار طفل من أطفالي في مناسبة من المناسبات، كما يستشعره أي طفل من الأطفال الآخرين وهو يرافق أباه إلى صلاة عيد من الأعياد، أو يصحبه إلى مائدة من الموائد تجمعهم على وليمة إفطار في رمضان، أو حالة ألمّ وعذابٍ أصابت طفلاً من أطفالي، أو آلام ضررس

(1) أقصد هنا: أبواب وغرف السجن.

أقلق منامه، أو سخونة أَلمت به وهو يهتف من أعماقه بصوت خافت،
يتمنى فيها أن أكون بجانبه، أو صرخة يريد أن يوصلها إلى مسامعي بعد
أن غُيِّبَتْ عنه سنوات، لعل هذه التأوهات والتوجعات تصل ولو عبر رؤيا،
وما أكثر الرؤى التي يراها الأسير في أهله وهو في أعماق السجون، وغالباً
ما تترجم واقعاً على شكل تقلبات الأسير أثناء نومه يمنة ويسرة على السرير.

ولا يسعني في نهاية هذه الخاطرة إلا أن أقول:

إن ليلة واحدة عاشها طفل من أطفالي، وهو بعيد عني، لا يمكن أن
يعوضها مال، ولا جاه ولا سلطان، فكيف بهذه الليالي الطوال، التي امتدت
عقداً من الزمان، يتخللها مراحل الطفولة إلى عالم الرجولة؟؟

الذي يسليني، في مسيرة أسري، أن الأجر في نهاية المطاف، ليس من
الناس، وإنما من عند رب الناس.

كان خبراً مفاجئاً ومفجعاً على النفس، بعد أن تلقيت نبأ مؤلماً بوفاة شقيقتي، وهي من أعز الشقيقات لدي، لما لها من الذكريات، والذكريات الكثيرة في مواطن كثيرة.

وقد تلقيت الخبر عبر والدتي وزوجتي أثناء إحدى الزيارات عام 2005م في سجن بئر السبع.

وهنا، لا بد من أن أسجل أمراً مهماً ألا وهو أنه من أصعب الأمور على الأسير أن يتلقى خبراً سيئاً وهو خلف القضبان، كفقده عزيزاً عليه لم يره منذ سنوات طويلة⁽²⁾.

وعلى إثر هذا الخبر، الذي تلقيته من الأهل، انتابني بعض الأحاسيس والمشاعر تجاه أختي الفقيدة، فعبرت عنها بهذه الخاطرة:

لحظة صمت.. صمت خيم على المكان.. حزن على حزن!
نظروا إليّ⁽³⁾.. نظرت إليهم.. كأنه في وجوههم بريق.. كأنه في عيونهم شيء.. حركاتهم كلها تشير إلى أمر مريب، لم أعده من قبل.. وهم على غير عادتهم..

(1) كتبت في سجن مجدو بتاريخ 2006/3/4م.

(2) كان غالباً من يبلغ الأسير إذا فقد له عزيز إما الأهل أو الصليب أو يذهب مجموعه من الإخوة الأسرى الكبار، لإيصال الخبر له بطريقة هادئة حتى لا يصدم.

(3) نظروا إليّ: أي الأهل، ونظرت إليهم فأحسست أن لديهم خبر ما.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

..تردد كل واحد منهم في الحديث رهبةً للموقف، كل منهم يحاول ألا يكون البادئ، أو يتمنى ألا ينطق ما في نفسه.

بعد برهة من الزمن، تفرست في الوجوه مرة أخرى، ففهمت بفطرتي، أن عزيزاً قد غادرنا أو رحل عنا.. استرجعت وقبضت أنفاسي، وحبست دمعتي، كي لا تراني الوالدة الحبيبة على هذه الحال التي لا تحبها، فيزيدها حزناً على حزن، وألماً على ألم، ومصاباً على مصاب!

تأملت في وجه أُمي، والأمر يدور في ذهني، أَلِبله يمنية ويسرة وأنا أَسْأَل: ما الذي جرى بالضبط يا ترى؟

أَسْأَل، والعين لا تكاد تفارقها، والمشهد هو المشهد.. تحبس دمعتهما كي لا تشعروني، والقلب يأبى إلا أن يبقى في محبسه، وفجأة... وبسرعة... انطلق لسانها لتقول: أختك!! " بهية!! ماتت!

هكذا كان حدسي.. هكذا كنت أتوقع الخبر!

غادرني الأهل والحسرة تكوي القلب في ظل الأسى والحرمان، والبعد عن الأهل والخلان.. أحاسيس.. مشاعر، عواطف.. كلها في حال استنفار، وشريط الذكريات يدور، تارة يقف عند محطة أو محطتين، وتارة أخرى عند محطات، والنفس تردد من داخلها: أحقاً ماتت...؟؟!!، لقد ماتت غريبة،

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

بعيدة عن أهلها ووطنها وبلدها⁽¹⁾، محرومة من ولدها، فلك الله يا أختاه،
وأنا أتلقى خبرك في ظل الأسر.
أختاه... ماذا أقول.

لقد لآمني على القبور على البكاء مرفيقي لتذارف الدموع السوافك⁽²⁾.
فقال: أتبكي كل قبر رأيته لقد ثوى بين اللوى⁽³⁾ فالدكادكي⁽⁴⁾.
فقلت له: إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك.

آه يا أختاه ... تمنيت لو كنت طيراً أرفرف فوق روحك وجسدك الطاهرين،
كي أقوم بواجب الوداع... بواجب العزاء... بواجب الوفاء...!!
.. أختاه...!! كم لك في النفس من ذكريات، ومواقف ومحطات.. وذكريات
عزيزة كريمة من بين الأخوات...!!، أتذكر أتعابك عليّ في الصغر، بل في
الكبر... لم ينقطع خيرك يا أختاه...!!

.. أتذكر أحاديثك الرائعة أيام الصبا.. أيام كنتِ تحدثينا بأحاديث السمر،
عندما كنا نلتزم الفراش أثناء الليل وأنت تقولين لنا: نحدث أم ننام؟
إنها كلمات مضت، لكنها ما زالت تطن في الآذان.

(1) ماتت في باكستان وحرمت من الإنجاب طيلة حياتها.

(2) السوافك: الدموع المنصبة.

(3) الدكادك: الأرض الغليظة.

(4) اللوى: ما التوى من الرمل.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

.. أتذكر ما تعلمناه منك من الآداب والسلوك والحديث الطيب والتعامل مع الآخرين، مما كان له الأثر الكبير في صقل شخصيتنا الحياتية.

.. أتذكر ما كنت تقدمينه لنا من خدمات... طعامك الذي مازلنا نتذوق طعمه.

.. أتذكر كأس الشاي بالنعناع، التي كنا نشربها من يديك الطاهرتين، كم لك من أفضال علينا يا أختاه؟

كم من مرة رافقتك في السفر والحضر، في الصغر والكبر، في قطف التين والزيتون، واللوز والمشمش.

ما زلت أرى الصورة الرائعة ذات الجمال في سلة التين، التي كنت تحملينها على رأسك ماثلة أمام ناظري... أيام مرافقتك في قطف التين من أرض (إسماعيل العلي)⁽¹⁾، يزينها جمال بزوغ الشمس الرائعة في صباح تلك الأيام الجميلة.

.. فلك الفضل يا أختاه...!! لا أستطيع أن أعد فضائلك علي خاصة، وعلى إخواني وأهلي عامة، ولكنني أقول لك: كان حقاً علي أن أضم إلى دعائي اليومي دعاء خاصاً بك في سجودي: اللهم إن أختي بهية قد ماتت غريبة بعيدة عن أهلها وبلدها وموطنها... محرومة من ولدها، فاغفر لها وارحمها برحمتك، وتقبلها عندك في الصالحين، إنك سميع مجيب.

(1) أرض إسماعيل العلي: قطعة أرض مزروعة بالتين والمشمش والخوخ.

وغاب الطود الشامخ⁽¹⁾

كان الخبر مزلزلاً كالصاعقة.. بل شكل صدمة قوية لكثير من الأسرى، لكن الذي كان يسلينا أن هذا القائد كان حجة على الأصحاء، قبل أن يكون حجة على ذوي الاحتياجات الخاصة.

كنت -في حقيقة الأمر- أدعو الله ﷻ لهذا الرجل وأتمنى له الشهادة، وأن لا يموت هذا الشيخ على فراشه؛ لأن وقع الشهادة على يد عدوه شرف كبير، بل له من التأثير في نفوس الناس ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فحقق الله له الشهادة التي زلزلت العالم العربي والإسلامي، بل العالم كله، وذهب إلى ربه يشكو تخاذل المتخاذلين، وتقاعس المتقاعسين، وظلم الظالمين.

وهكذا، لم يمهلنا القدر، حتى استيقظنا على حدث آخر، وضربة قوية أخرى موجعة لا يقل أثرها عن الأولى، وذلك بفقدان قائد هصور كبير، اهتزت الأرض كلها لاستشهاده، ذاك الشهيد القائد د. عبد العزيز الرنتيسي، الذي كان يتمنى الشهادة بكل صدق، فاستجاب الله ﷻ لأمنيته وتركنا خلفه نتحسر على فراقه.

أقول: كان الحدث صعباً..

كانت الضربة مؤلمة..

كان الخبر مزلزلاً ومدوياً..

(1) كتبت في أواخر عام 2004م في سجن السبع، بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين مباشرة، وتنطبق هذه أيضاً على استشهاد د. عبد العزيز الرنتيسي (رحمهما الله).

فكتبت خاطرتي هذه، والمشاعر تلفني من كل جانب:

.. وهكذا غاب عن الأنظار..

.. هكذا كان غصة في حلق الأشرار..

.. هكذا كان حرباً على الكفار والفجار..

.. غاب الطود الشامخ عن الأنظار..

.. غاب والناس بحاجة إلى أمثاله الأبرار..

.. غاب الأسد الهصور.. بعد أن كان يطل علينا في كل حدث جسيم

على الإعلام..

.. غاب وهو يلوح بيديه ويقول: لا عذر لكم أيها المسلمون الأحرار، بعد

أن وضع الدليل الشرعي القاطع بين الأنام..

.. غاب كغياب الشمس.. لكن منهجه وفكره يطل علينا كل يوم في وضع

النهار..

.. غاب في زمن عز فيه الأحرار..

هذا هو الطريق.. ولا طريق غير هذا الطريق !!...

قصة مثيرة في التحول المفاجئ

من المواقف والأحداث التي حصلت، وأنا أعيش في سجن السبع، أن إدارة السجن قررت في عام 2005م طلاء بعض غرف السجن.

وبناء على ذلك، كان من الطبيعي أن تقوم الإدارة بإخلاء الأسرى من الغرف التي ستقوم بطلائها، وتوزيعهم على الغرف التي تتبع للتنظيمات الأخرى.

وفعلاً تم ذلك، ولكن الشيء الملفت في هذا الأمر أنه بعد الانتهاء من عملية الطلاء، كان من الطبيعي أيضاً أن يعود كل أسير إلى غرفته وتنظيمه.

وفعلاً، عاد كل أسير لغرفته وتنظيمه إلا أسير واحد من أسرى فتح⁽¹⁾، كان قد نزل في إحدى غرف حماس، فجاءوا إليه وطلبوا منه العودة لغرفته وتنظيمه، إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً، وعندما أصر عليه أسرى فتح بالعودة إليهم؛ قال لهم:

" لقد عشت عندكم اثني عشر عاماً ولم أستقد منكم حرفاً واحداً، بينما مكثت في غرفة من غرف حماس أياماً معدودة فتعلمت منهم الشيء الكثير من أمور الدين والدنيا".

بعدها قدم طلباً إلى حماس، يطلب فيه تحويلاً للحركة، فوافقت الحركة على طلبه.

(1) لم أذكر اسمه لحساسية الأمر.

والشيء الملفت هنا - أيضاً - أن أهله عندما علموا بخبر التحاقه بحركة حماس غضبوا غضباً شديداً، لأن معظم أهله من حركة فتح، مما دفع أخوه للقدوم لزيارته في سجن السبع، وطلب منه العودة إلى حركة فتح، إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً، فغضب أخوه غضباً شديداً بعد أن تمت ببعض الكلمات التي تعبر عن غضبه، ثم عاد من زيارته بخفي حنين.

وتدور الأيام لتعقد صفقة "وفاء الأحرار" بين المقاومة والاحتلال لتحرير الأسرى، وذلك نهاية عام 2011م، ليكون اسم هذا الأسير من بين الأسرى المفرج عنهم إلى غزة..

وهنا كان من الطبيعي أن يأتي أهله من الضفة الغربية لزيارته في قطاع غزة، وكان من بين القادمين لزيارته أمه وأخوه الذي طلب منه سابقاً بالعودة لحركة فتح.

أقول: جاء أهله لزيارته في قطاع غزة، وعندما نزلوا في معبر رفح، تقابلاً أخوه بالترحاب والاستقبال الذي استقبلتهم به حركة حماس وما تلقوه من كرم الضيافة، مما دفعه للقول: هذه ليست حماس التي أعرفها...!!

ثم واصل السير لبيت أخيه وهو يفكر بما رأى وما سمع، وهو يقارن ما بين هذه المواقف الإيجابية، وما بين المواقف السلبية التي كان يسمعها عن حماس.

عندها قرر أن يبدأ حياة جديدة ابتدأها بالصلاة، وعاد للضفة الغربية بغير النفسية التي جاء بها، ولا يزال ملتزماً بصلاته حتى الآن.

أذكياء.. وجدوا أنفسهم وفرصتهم داخل المعتقلات..

من أكثر القضايا التي لفتت انتباهي، داخل سجون الاحتلال، أن بعض النماذج من الشباب الأذكياء، الذين فاتهم الفرص ولم يحالفهم الحظ في مواصلة تعليمهم قبل الاعتقال، قد وجدوا أن الحظ قد حالفهم بعد أن عاشوا وراء القضبان، وأن الله ﷻ عوضهم بمشيئته عما افتقدوه في سالف الأيام، وذلك عبر الاجتهاد والمثابرة داخل الأسر.

لقد وجد أمثال هؤلاء أنفسهم، بل فرصهم الثمينة داخل السجون، لينهلوا من المعارف المتنوعة في ظل الفراغ الكبير الذي يعيشه الأسير..

فستان شتان ما بين من يملأ فراغه بمتابعة المسلسلات واللعب على الشطرنج وقتل الوقت في غير محله؛ وما بين من يملأ فراغه بالعلم وحفظ القرآن وغيرها من المعارف، التي تصقل شخصية الأسير خلال السنوات التي يقضيها داخل الأسوار.

لقد قرر كثير من الأسرى ألا يخرج الواحد منهم من السجن جاهلاً كما دخل، بل عزم عزمه ألا يعود لأهله إلا وهو رافع رأسه بالعلم الذي تعلمه من قبل إخوانه، الذين عاش معهم فترات طويلة من الزمن؛ لأنه علم جيداً أن العمر يطوى طياً؛ فقرر أن يستثمر فترات عمره التي يقضيها داخل السجن بما يفيد في دينه ودنياه، وهم أكثر، ومن أمثال هؤلاء الذين عشت معهم ممن استثمروا وقتهم على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر:

الأسير الأول: إسلام الوشاحي ..

شاب في مقتبل العمر من مدينة جنين، يغلب عليه الحياء الجم، كحياء البنت في خدرها، هذا الشاب كان معي في أسرة تربوية في سجن إيشل بمدينة السبع عام 2004م.

كنت في بعض الأحيان أتجاوزه في أداء الواجبات حتى لا أخرج أمام أقرانه، وبقي هذا الأمر على هذه الحال حتى فارقت وانتقلت إلى سجون أخرى.

وشاءت الأقدار أن التقي به مرة أخرى في إحدى غرف سجن شطة بعد ثلاث سنوات، فتفاجأت بوجوده داخل الغرفة التي نزلت بها، حتى قال لي أحدهم: هل تعلم أن إسلام يحفظ 25 جزءاً من كتاب الله ﷻ...؟؟!

فقلت له: مستحيل!! ذاك الشاب المؤدب الحبي الصامت الذي إذا تكلم بكلمتين كان يتلعثم بهما...!! هذا مستحيل...!! وحتى يؤكد لي المقال مع الفعال وصدق الحال، قال: قم يا إسلام، وتقدم لإمامتنا في صلاة المغرب...!! وفعلاً تقدم للصلاة بدون تردد بعيداً عن الخجل الذي كان يتملكه قبل أعوام.. أقيمت الصلاة وقرأ بنا بتلاوة مباركة بأحكامها، فما سررت في السجون يومها بسرور مثل سروري بإسلام.

وفي هذا المقام، قلت في نفسي: ليس هناك مستحيلاً في واقع الأرض أبداً، خاصة بعدما رأيت وسمعت ممن يقرر أو يسعى للوصول إلى هدفه.

.. إنها الإرادة!

.. إنها الجدية!

.. إنها المثابرة!

.. إنه الاجتهاد!

.. فإذا عزمتم فتوكل على الله

الأسير الثاني: حجازي القواسمي.

هذا نموذج آخر ممن ثابر واجتهد.. شاب يبلغ من العمر -في حينها- أواخر العقد الثاني، من مدينة الخليل، وهو من عائلة مجاهدة قدمت الكثير من التضحيات من أجل فلسطين، ولا أبالغ إن قلت: إن جميع أبنائها الخمسة أسرى داخل سجون الاحتلال ومن بينهم شهيد..

كانت أهمهم مجاهدة ومن المضحيات، لا تدري من تزور من أبنائها داخل السجون، خاصة إذا التقت مواعيد الزيارات في تاريخ واحد ويوم واحد، وقد تشرفت بالالتقاء مع ثلاثة من أبناء هذه العائلة المجاهدة الكريمة في سجن السبع (إيشل في قسم 17) وكان من بينهم محمود وزياي وحجازي.

جاء حجازي إلى سجن السبع (إيشل) عام 2005م. وكان شاباً بسيطاً جداً، وثقافته بسيطة، حتى أن تلاوته للقرآن ضعيفة جداً وكأنه لم يقرأ القرآن في حياته.. كانت قراءته مكسرة لا تستطيع أن توقفه لتصحيح ما يقرأ عند كل حرف أو حكم..

شاءت الأقدار أن نفارقه وننتقل بين سجن وآخر، حتى علمت بعد عامين أنه يحفظ القرآن كاملاً، وهو يهيئ نفسه للحصول على السند.

يقول لي الأخ محمود القواسمي نقلاً عن شقيقه حجازي: "كان الدافع الرئيسي الذي دفعني لحفظ كتاب الله ﷻ، كلمة سمعتها من الأخ أبي عادل عزام في سجن السبع عندما قال لي: باستطاعتك أن تحفظ كتاب الله ﷻ.

فانطلقت من هذه الكلمة مستعيناً بالله ﷻ على حفظ كتابه"

إنها إرادة لا تلين ولا تنكسر، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

شاب في العشرين من عمره من مدينة طولكرم، التقيته هذه المرة في سجن شطة، جاء إلى السجن "يارب كما خلقتني" وهو لا يعرف من علوم الدنيا والدين إلا إدخال الخيط في سم الخياط.

كانت أمه تعمل في مهنة الحياكة، وهو شرف عظيم أن يأكل الإنسان من جهد عمله، وكان وائل يجلس بجانبها ومساعداً لها في عمل الخياطة، وكانت وظيفته إدخال الخيط في خرم الإبرة.

كنت مسئولاً عنه في أسرة تربوية في سجن شطة، وكنت أشعر أنه متشوق للعلم والمعرفة..

حاولت الاهتمام به، ولكن لم يطل به المقام بيننا كثيراً في سجن شطة حتى جاء الأمر بنقله إلى سجن النقب، هو وشاب من مخيم بلاطة التابع لمدينة نابلس اسمه عزام أبو العدس، وكذلك الأسير أحمد أبو خليفة من مخيم جنين، فكتبت لهم توصية لمن يهمه الأمر أينما نزلوا، ولمن التقى معهم للاهتمام بهم واحتضانهم تحت عنوان ثلاثتهم بالذات.

وبعد أن أفرج عني مبعداً لقطاع غزة أواسط عام 2009م، تفاجأت بمكالمة هاتفية من داخل سجون الاحتلال عبر الجوال من قبل الأسير (وائل الزقلة)، وبعد السؤال عن أحواله وأحوال الأسرى الذين معه قال لي: لقد حصلت على شهادة الثانوية العامة، ودرست السنة الأولى والثانية في الجامعة، وحفظت كتاب الله ﷻ كاملاً، وأنا الآن على أبواب الحصول على السند

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدِّ

المتصل برسول الله ﷺ، فحمدت الله ﷻ أن هؤلاء الشباب لم تضع أعمارهم هباءً منثورة داخل سجون الاحتلال عبر عالم المسلسلات والملاهي الأخرى.

وهذا ما كنت أنصح به دائماً كثيراً من إخواني الأسرى، خاصةً حديثي السن؛ لأن الأسير بعد أن يفرج عنه يترك خلفه كل شيء، حتى عمره الذي أفناه باستثناء العلم الذي تعلمه، فإنه يرافقه أينما حل وأينما ارتحل.

هذه ثلة ونماذج على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر، ممن ثابروا واجتهدوا من الأسرى، وغيرهم الكثير الكثير، ولكن المقام لا يتسع لذكرهم.

قضايا حصلت أثناء تواجدي في سجن بئر السبع

- تأسيس الهيئة العليا لأسرى حماس في سجون الاحتلال.
- نقاش حول الدخول في المجلس التشريعي.
- مقترح لتأسيس جماعة إسلامية في سجن السبع.
- إضراب 2004م في سجن بئر السبع وأثره على شخصيا..
- النقاش حول النطف المهربة (سفراء الحرية).
- مبدأ التخيير.

تأسيس الهيئة العليا لأسرى حماس في سجون الاحتلال

هذه الفكرة بدأ التداول بها بين أسرى حماس أيام كنا في سجن عسقلان أواخر عام 2002م، وقد برز الحديث بها والنقاش حولها بشكل جدي بعد القمعة التي تعرض لها سجن عسقلان، عام 2003م، بعد عملية الهروب التي قام بها محمد الرشق ونزار رمضان.

كان هناك نقاش محتدم بين من يهتمهم الأمر من أسرى حماس، حول إمكانية وكيفية تشكيل مثل هذه الهيئة، وقد وجدت أن معظم أسرى حماس كانوا يؤيدون بقوة هذه الفكرة، وقد كنت من بين هؤلاء، مؤيداً ومناصرًا ومتحمساً لها؛ لأنني كنت أعلم أن تأسيس مثل هذه الهيئة له ما بعده من الفوائد الإيجابية لجميع الأسرى داخل سجون الاحتلال.

وفي هذا المقام كنت قد ناقشت بعض الإخوة غير المتحمسين لهذه الفكرة، من باب صعوبة التطبيق أو عدم إمكانية نجاح هذه الفكرة حسب اعتقادهم، ولكنني كنت شخصياً أرى نجاحها رأي العين، معتمداً، بعد الله ﷻ، على أن حماس تنظيم قوي ومتماسك بعيد عن الشللية أو الفلتان أو التمرد، وكنت أعتقد أنه لا يستطيع فرد أو مجموعة صغيرة أن تكسر جماعة أو تنظيمًا فيما لو أبرم قرار جماعي.

هذا ما تحقق فعلاً بإذن الله تعالى بتصميم وعزيمة الأخوة الخيرين من أبناء الحركة الأسيرة؛ حيث خرجت هيئة منظمة وقوية إلى النور تقود جميع أسرى حماس في سجون الاحتلال، مما كان له الأثر الكبير والإيجابي على

بعض القرارات المصيرية خارج السجون، كوثيقة الأسرى المشهورة على سبيل المثال.

حقاً.. لم يكن تأسيس هذه الهيئة بالأمر الهين، بل واجهت من العقبات والصعوبات الكثير، خاصة على مستوى التأسيس أو إجراء الانتخابات التي كانت ولا زالت تجريها الهيئة على مستوى السجون، ولكن الله ﷻ اطلع على النوايا الخيرة فكتب لها النجاح، وسهل لها كثيراً من العقبات، وفتح على قيادتها فتوح الخير والنجاح.

إنَّ اختيار قائد من بين الأسرى يوحدُ رأيهم، وينظمُ أمرهم، ويقودُ توجهاتهم، أو يمثلهم في مواجهة الإدارة، أو يمثلهم داخلياً وخارجياً، لم يكن بالأمر السهل، إلا أنه كان أمراً ضرورياً وملحاً، فقد شكلت هذه الخطوة مرحلة مفصلية على مستوى السجون، ونقلة حضارية مبدعة لوضع الأسرى، بل أعطاهم دافعاً وقوة أمام هذه الإدارة الغاشمة، التي غالباً ما كانت تتفرد بالسجون كلاً على حدة.

وهكذا جاءت هذه الفكرة وهذه الخطوة لتقول لإدارة سجون الاحتلال: (نحن كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)⁽¹⁾.

صحيح أنَّ هذه الخطوة جاءت متأخرة، ولكن أن تأتي الخطوة متأخرة خيرٌ من أن لا تأتي، وبالتالي كانت هذه الهيئة على قدر من الله، وكطوق نجاة لأسرى حماس وغيرهم من الأسرى داخل سجون الاحتلال.

(1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، متفق عليه.

وفي هذا المقام أتذكر أنني كنت أتناقش حول هذه القضية مع الأسير القيادي الفتحاوي (أبو شادي الطوس) في فورة سجن السبع (إيشل قسم 17) عام 2004م وقلت له: إنَّ أسرى حماس في جميع السجون تقودهم الآن هيئة عليا بقيادة قائد واحد، وهذا من فضل الله ﷻ، فقال لي كلمة لا زالت تطن في أذني: لقد خطت حماس خطوة ناجحة، قلما يستطيع أي تنظيم آخر أن يخطوها.

ثم أضاف قائلاً: نحن على سبيل المثال كتنظيم فتح، لا يمكن أن تتجح هذه الفكرة عندنا، وقد علل عدم نجاحها لأسباب كثيرة، ففهمت من حديثه أنه من الصعوبة بمكان أن يتنازل الكبار لبعضهم البعض، خاصة أن عوامل الشللية والبلدية ضاربة أطنابها داخل تنظيمهم.

وقد رأيت هذا واضحاً في سجن شطة (قسم 7)، أن أبناء فتح من البلد الواحد، كانت تُعرف بعض غرفهم بأسماء بلداتهم، كغرفة مخيم كذا.. وبلدة كذا.. وهكذا..

وهكذا، كان يتجمع أبناء البلدة الواحدة في غرفة مستقلة، وهذا هو سر كلام بعض الإخوة في بعض التنظيمات بصعوبة تشكيل هيئة تقودهم مثل هذه الهيئة.

أقول: تبلورت فكرة الهيئة العليا لأسرى حركة حماس، وتشكلت وظهرت على أرض الواقع بشكل جدي بداية عام 2004م أيام أن كنت في سجن السبع، فسررت سروراً كبيراً لهذا الحدث، ثم صُلِبَ عودها، ونجحت نجاحاً كبيراً في قيادة حركة حماس داخل سجون الاحتلال، والحمد لله رب العالمين.

نقاش حول الدخول في المجلس التشريعي

في عام 2006م كنت في سجن (إيشل قسم 17) بمدينة بئر السبع، وكان قد أُعلن عن إجراء انتخابات محلية في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، وأعلنت حركة حماس خوضها لهذه الانتخابات، بينما رفضت حركة الجهاد الإسلامي الاشتراك أو الدخول فيها.

كان معظم أسرى حماس يؤيدون توجه الحركة نحو خوض هذه الانتخابات، بينما انقسم أسرى الجهاد في سجن السبع إلى قسمين، قسم كان ضد هذا التوجه لعدم جواز دخول التشريعي من الناحية الشرعية - حسب اعتقادهم - بينما كان البعض الآخر يرى أن هذا الأمر يتعلق بحماس، وهو رأي يجب أن نحترمه، فكما أن الآخرين يحترمون رأي الجهاد الإسلامي الراض لخوض هذه الانتخابات، فكذلك يجب علينا أن نحترم رأي غيرنا، وهذا أمرٌ طبيعي في اختلاف وجهات النظر بين الفصائل، الذي يجب أن يحترم على قاعدة (الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية).

أذكر حينها، أنني كنت في زيارة لغرفة من غرف إخواننا في حركة الجهاد الإسلامي بسجن (إيشل قسم 17)، وكان معي بعض شباب الجهاد الذين يخالفون دخول حماس للمجلس التشريعي، وقد تناقشت في حينها ببعض ما يدور من نقاشات بين الأسرى حول حكم الدخول للمجلس التشريعي من الناحية الشرعية، وقد تمكنت من إقناع البعض، ولم أتمكن من إقناع البعض الآخر، رغم الأدلة التي سقتها إليهم في حينها مدعومة بأقوال بعض العلماء في هذا الجانب.

وفي هذا المقام فقد نقلت لهم فتوى للشيخ د. عبد الله عزام حول حكم دخول المجلس التشريعي في الحكومات القائمة الآن حيث يقول: لك أن تدخل المجلس التشريعي بشرط واحد، أن تعارض أي مادة من المواد التي تعرض داخل المجلس تصادم الشريعة الإسلامية.

أقول: حاولت إقناع بعض الإخوة حول هذه المفاهيم ولكن دون جدوى، وبالتالي بقوا على رأيهم، ونحن بقينا على رأينا والله أعلم بالصواب.

تحليل موقف:

القناعة الشخصية وراء تأييدي حول توجه الحركة لخوض الانتخابات الفلسطينية عام 2006م:

كان الذي يدور في ذهني في ذلك الوقت التحليل التالي: وقلت في حينها للإخوة المعارضين: إن القضية تحتل أحد أمرين:

الأمر الأول: إما أن تدخل حماس بثقلها في الانتخابات، وبالتالي يمكن أن تحقق مكسباً مريحاً في المجلس التشريعي، يمكنها أن تنفذ برامجها دون عرقلة من أي طرف داخلي كان.

وبهذا تكون حماس قد منعت تمرير مؤامرة محققة، كانت تلوح في الأفق ضدها وضد المقاومة، من خلال الديباجة والأسطوانة المشروخة التي كانت السلطة تردها في الإعلام: سلطة واحدة، وسلاح واحد.

الأمر الثاني: أن لا تدخل حماس الانتخابات، وبالتالي يصبح التشريعي بيد حركة فتح، أو غالبية أعضائه، فتتحكم به كما تشاء.

وبهذا تكون حركتا حماس والجihad الإسلامي خارج المجلس، وفي هذه الحال يكون المخطط معداً له، وخلاصته:

أن يطرح سلاح المقاومة للتصويت عليه في المجلس التشريعي، ذي النقل
الفتحائي، من باب سلطة واحدة وسلاح واحد، فيقرر التشريعي بكتلته الأكبر
قراراً مآله ضد المقاومة وسلاحها، وتصبح المقاومة في الزاوية.

وفي هذه الحالة: إما أن تخضع المقاومة لقرار التشريعي، وتسلم سلاحها،
وهذا من المستحيل.

وإما أن تعارض القرار وترفضه، وفي هذه الحال يصبح الأمر أحد احتمالين:

1- تسكت السلطة، وتتغافل عن تنفيذ هذا القرار لاعتبارات ما، وهذا من
المستحيل؛ لأن الانتخابات قامت أصلاً لإنهاء المقاومة بشكل قانوني
أو لتدجينها على أقل تقدير.

2- يحصل الصدام بين السلطة والمقاومة؛ لأن المقاومة -أيضاً- لا يمكن
أن تُسلم سلاحها تحت أي ذريعة من الذرائع، باعتبار أن السلاح عندها
حياة أو موت، وبالتالي لا مفر من حرب أهلية يفني أحدهما الآخر.

وأخيراً: أعتقد أن دخول حماس للتشريعي فوت فرصة كبيرة للصدام، ومنع
حرباً أهلية بين المقاومة والسلطة، وخرجنا مما هو كان متوقعاً بأقل
التكاليف، حسب نظرتي الشخصية.

هذا هو تحليلي للموقف في حينها، أو تصوري لما سيكون بعد الانتخابات.

وفي النهاية نقول: ليس بالإمكان أفضل مما كان.

مقترح لتأسيس جماعة إسلامية في سجن السبع

حاولت أن أبقى بعيداً عن العمل التنظيمي داخل سجون الاحتلال فترة من الزمن، بسبب ظروف قضيتي وعدم معرفتي متى سأغادر سجون الاحتلال، ولكن ما إن وطئت قدمي سجن السبع حتى أصرّ الإخوة على ترشيحي وانتخابي كأmir للحركة الأسيرة - حماس - في سجن السبع (إيشل قسم 17) عام 2004م، ثم مرة أخرى في نفس العام.

وكانت علاقاتنا التنظيمية جيدة جداً مع جميع التنظيمات، فجاءني ذات يوم أخ حبيب ممثلاً عن الجهاد الإسلامي في (إيشل قسم 17)، وطرح عليّ فكرة تأسيس جماعة إسلامية داخل سجن السبع للوقوف أمام تغول حركة فتح على مرافق السجن والتمثيل العام للأسرى أمام الإدارة.

لم يكن لدى حماس ابتداءً أي اعتراض على مثل هذه الفكرة، خاصة وأن هذه الفكرة قد طبقت سابقاً في النقب، وكان تطبيقها على أرض الواقع ناجحاً إلى حد مقبول.

من المعلوم أن مبدأ الشورى لدى الحركة عندنا ملزم، فتوجهت لإخواني أسرى حماس في سجن السبع - إيشل - وتوجه أخونا الحبيب لجماعته، وخلال ساعات جاءني الرد الحاسم والجازم بموافقة جميع أعضاء مجلس الشورى عندنا، وأنه لا مانع، وعلى بركة الله.

وانتظرت أخي الحبيب من طرف إخواننا في حركة الجهاد، لكن الرد جاء متأخراً بعدم الموافقة، فقلت: مع كل الاحترام لهذا القرار؛ لأنني حقيقة أحترم مبدأ الشورى مهما كانت نتائجه.

إضراب 2004م في سجن بئر السبع وأثره علي شخصياً..

تم الترتيب لإضراب 2004م على مستوى السجون، وقد تم خوض الإضراب أيام أن كنت في سجن بئر السبع.

جرت الانتخابات الخاصة بحركة حماس في سجن السبع (إشيل - قسم 17)، وقد تشرفت بثقة إخواني في هذه الانتخابات للمرة الثانية، إلا أنه في صباح اليوم الثاني للانتخابات تم نقلي إلى سجن (أوهليكيدار)، المبنى القديم في مدينة بئر السبع.

أذكر في حينها أنه كان معي في عملية النقل أحد قادة أسرى فتح من القدس، وهو أسير قديم اسمه (إبراهيم عليان)، وقد حدثني قصة حصلت معه ذات يوم حول عملية أداء امتحانات الثانوية العامة داخل سجن نفحة، حيث قال:

كنت في إحدى السنوات الماضية في سجن نفحة الصحراوي، ألقت الأسرى أجوبة أسئلة امتحان التوجيهي، وإذ بمسئولة ملف الأسرى التابعة لإدارة السجن تتاديني وتسالني: ماذا تفعل؟؟

قلت لها: ألقت الأسرى أجوبة أسئلة التوجيهي..

ردت عليّ وبغضب شديد قائلة: أنت خائن لهؤلاء...!! أنت خائن لبلدك...!! أنت خائن لوطنك...!

ماذا سيفعل هؤلاء عندما يخرجون إلى المجتمع...؟؟

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

يقول صاحبنا: والله أنني ذبت في ثيابي، وتواريت منها خجلاً، ولم أتمكن من الرد عليها....!!⁽¹⁾

وصلنا إلى سجن (أوهليكيذار) القديم، ووجدنا فيه إخوة قدماء من التنظيمات المختلفة..

أما صاحبنا (إبراهيم عليان) فقد تم نقله إلى سجن أوهليكيذار الجديد ذي الطوابق الثلاثة، وهو وبالمناسبة يشبه تماماً سجن إيشل ذا الطوابق الثلاثة، وبعد فترة وجيزة تم نقلي إلى سجن أوهليكيذار الجديد، في الوقت الذي تركت فيه الإخوة هناك من جميع الفصائل يُعدون ويستعدون للإضراب، وما أن وصلت سجن أوهليكيذار حتى تلقفني صاحبنا إبراهيم عليان بشغف، وقد أصبح خلال هذه الفترة دُبيراً⁽²⁾ على السجن الجديد ..

قال لي: الحمد لله؛ لقد نزلت عليّ من السماء....!!

قلت له: ما بك؟؟

قال: تأتي وتعيش معي في غرفتي..

قلت له: أليس في القسم غرف لحماس؟

قال: بلى.

(1) كنت قد كتبت موضوعاً كاملاً حول هذه القضية في كتاب من الأعماق، تحت عنوان: توجيهي الأسير أم أسير التوجيهي؛ نقدت من خلاله الأسلوب الذي كان يقدم فيه امتحان التوجيهي داخل السجون. لذا؛ بإمكان أخي القارئ العودة إليه والاستعانة به من خلال موقع المركز الفلسطيني للإعلام.
(2) دبّير: أي مسؤول الارتباط ما بين الأسرى وإدارة السجن.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

قلت له: سأذهب إلى غرفة من غرف حماس، وفعلاً توجهت إلى إحدى غرف حماس، فوجدت فيها أخوين إثنين فقط.. وبعد النقاش معهما تبين لي عدة أمور:

الأمر الأول: أن معظم من بداخل السجن أسرى جدد، والسجن مكون من ثلاث طبقات، كل طبقة منها يحوي قسماً من الأقسام من جميع التنظيمات، من بينهم (95) أسيراً من حماس..

الأمر الثاني: أن هذا السجن سجن جديد، ليس فيه أدنى مكونات الحياة..

الأمر الثالث: وجدت في هذا السجن أسرى حماس أفراداً دون تنظيم، باعتبارهم أسرى جدد ومعظمهم من صغار السن في داخل السجن.

الأمر الرابع: كانت القناعة السائدة، لدى إدارة السجن، أن سجن أوهليكيذار لن ينضم إلى الإضراب القادم أبداً، على اعتبار أن الأسرى في هذا السجن من صغار السن وحديثي الاعتقال، وقد جاءت هذه القناعة لإدارة السجن من قبل دبير السجن إبراهيم عليان، وعلى الفور طلبت من الإخوة تشكيل لجنة قيادية لحماس في السجن، يتم اختيار عضوين من كل قسم، وبالتالي تم اختياري من قبلهم على رأس هذه اللجنة⁽¹⁾.

(1) طلبت من إخواني أن أبقى بعيداً عن عين الإدارة وألا أكون على رأس اللجنة بشكل مباشر حتى أبقى أساعدهم جنباً إلى جنب لأن وجودي على رأس اللجنة سأكون معرضاً للقمع، ولكن في نهاية المطاف قبلت طلب إخواني تحت ضغطهم وإصرارهم.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

جاءني دبیر فتح، وحاول معي ألا ندخل في الإضراب، ولكني رفضت؛ لأن قيادة السجون من الأسرى قررت خوض الإضراب، ولن نتأخر عن قرار السجون لحظة واحدة.

وبناء على ذلك تم الاتفاق بيننا وبين الجهاد الإسلامي أن نخوض الإضراب.

وفعلاً أعلن الأسرى في سجون الاحتلال عن دخولهم الإضراب المفتوح عن الطعام في 2004/04/15م، وخلال هذه الأحداث قررنا في سجن أوهليكيديار تأخير الالتحاق بالإضراب يومين أو ثلاثة، وذلك لإعطاء الفرصة لإخواننا في فتح للانضمام إلى هذا الإضراب.

وفعلاً تفاجأنا بوصول مجموعة من قيادات فتح ممن يؤمنون بالإضراب، ممن كانوا معنا قبل أيام في سجن أوهليكيديار القديم، الذي كنا نعد ونستعد وإياهم في الترتيب لهذا الإضراب.

وقد نزل هؤلاء الإخوة في غرفة الدبیر، وعلموا أن الدبیر لا يريد أن يدخل في الإضراب، مما دفعهم للضغط عليه، فجاءني في اليوم التالي وأخبرني بأن فتح قررت الموافقة على خوض الإضراب مع الأسرى، وبالتالي أعلننا جميعاً الانضمام إلى بقية السجون ابتداءً من يوم 2004/04/18م، وأنزلنا تعميماً وطنياً على قواعدنا، وشكلنا لجنة وطنية من التنظيمات الموجودة لقيادة هذا الإضراب.

في هذه الأثناء وصل أحد المحامين إلى السجن، وطلب مقابلة المدير إبراهيم عليان، ممثل السجن، وبينما هو في طريقه إلى المحامي أوقفته شرطة السجن ومنعته من مواصلة طريقه إلى المحامي، تحت ذريعة أن الشرطة قامت بتفتيش غرفته، وعثرت على التعميم الوطني الذي عمم على الأسرى بخصوص الإضراب.

وهنا، شعرت إدارة السجن أن إبراهيم عليان خدعها، وكذب عليها عندما كان يطمئنها، أن أسرى السجن لا يمكن أن ينضموا للإضراب.

وبالتالي أخذ إلى الزنازين، وتم قمع قيادة فتح الموجودة في غرفته.

واصلنا إضرابنا، وأصبحنا كلجنة لقيادة الإضراب نلتقي في الفورة في كل يوم، وبعد ستة أيام من الإضراب في 2004/04/24م، وفي أثناء اجتماعنا في الفورة، وإذا بمدير السجن يفاجئنا هو ونائبه ومجموعة من الشرطة بشكل مباغت، انتهى الأمر بقمعنا جميعاً، ونقلنا إلى سجن (إيشل رقم 4).

لا يفوتني هنا أن أقول: إن هذا الإضراب فرض فيه أسوأ الشروط على الأسرى المضربين عن الطعام، وكان من بينها:

1- منع الدخان عن المدخنين، ومنع الملح، وكانت الإدارة تأتي للتفتيش

عن الدخان والملح تماماً وكأنها تفتش عن الحشيش والأفيون..

2- أن إدارة السجون وضعت على أبواب الغرف في كل سجن من السجون

مناصب لمشاوي اللحم، وكانت رائحة اللحوم تملأ جوانب غرف

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

المضربين عن الطعام، وذلك لإغراء الأسرى لكسر الإضراب، والضغط عليهم.

كان ممن قُمع معي أحد أفراد فتح، وهو من المدخنين، وخلال مسيرنا في الطريق نحو (قسم 4) في سجن السبع، كان يحدثني عن بطولاته ومغامرات في ملاحقة العملاء وإعدام بعضهم على دوار المنارة في رام الله، وما أن وصلنا الزنزانة - الأمتاه⁽¹⁾ - حتى وقف على بابها يطلب سيجارة من كل مار من الجنائيين يطفئ بها شهوته، وقد كنت أتواري عن الأنظار خجلاً مما يفعل.. هذا الإنسان الذي كان قبلها بدقائق يدعي البطولات والمغامرات الوطنية!!

دخلنا (قسم 4)، والتقينا هناك ببعض الشخصيات القيادية من حركة حماس وغيرها، كان من بينهم (حسن يوسف ومجدي حماد وزاهر جبارين وعلي أبو الرب)، ومجموعة من أسرى التنظيمات الوطنية الأخرى..

في اليوم الثامن من الإضراب، قام بعض الأسرى المدخنين في سجن عسقلان، بكسر الإضراب بعد أن عجزوا عن مواصلة الإضراب بدون دخان.

هؤلاء المدخنون لا أبالغ إن قلت: إن بعضهم كان يدخن مائة سيجارة في اليوم، وأنا أعرف بعضهم بأسمائهم، وعشت معهم، وجرى نقاش بيني وبينهم حول موضوع التدخين، ولكن دون جدوى...!!

(1) الأمتاه: كلمة عبرية بمعنى غرفة الانتظار تمهيداً للدخول إلى السجن المركزي.

أقول: ومع ذلك استمرت السجون الأخرى في مواصلة الإضراب إلى ما يقارب الثلاثة أسابيع، انتهت بمفاوضات مع إدارة السجون تم بموجبها تعليق الإضراب بناء على وعود قطعتها الإدارة بتحقيق إنجازات للأسرى..

أثر هذا الإضراب عليّ بشكل شخصي:

سبق أن قلت إنني خضت ثلاث إضرابات قبل هذا الإضراب، إلا أنّ هذا الإضراب كان من أكثر الإضرابات ضرراً بي، وقد عانيت كثيراً لما تركه هذا الإضراب عليّ من آثار..

أقول: مكثت ثمانية أشهر لا يدخل فمي سوى قليل من الشوربات والسوائل في كل يوم، ومن بينها رمضان بكامله، وذلك نظراً لما ألمّ بي من داء البواسير..

كان الإخوة في داخل غرفتي⁽¹⁾ يضعون الطعام أحياناً كالمقلوبة الشهية أو المنسف أو غيرهما من الأطعمة، التي تصنع محلياً داخل الغرفة، فيقول لي الإخوة: تقدم يا أبا عادل للطعام، ويقدمون لي الإغراءات، وأنا في حقيقة الأمر كانت أمنيّتي أن آكل كل شيء، إلا أن نفسي كانت تردعني كلما تذكرت دخول الحمام وما أعانيه بعد قضاء الحاجة من آلام..

لقد كنت ألتجئ إلى سريري وأغطيه ببعض الأمتعة كمنشفة أو سجادة صلاة أو غيرها، وأمكث ساعة أو ساعتين وأنا أعاني وحدي حتى لا أنغص على إخواني الأسرى داخل الغرفة..

(1) غرفة رقم (11) في سجن السبع (إيشل 17).

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لقد استعملت أدوية كثيرة وبعض الوصفات منها الجيدة ومنها المؤذية، والتي كانت تسبب نتائج عكسية على الجرح.

هذه الفترة كنت أعتبرها من أقسى المراحل التي عشتها داخل سجون الاحتلال، بعد الاضراب الرابع وما ألمَّ بي من آلام، وبالتالي سمعت لنصيحة أحد الإخوة الأسرى من مدينة رام الله أن أفضل علاج لهذا الداء وصفة، وصفني إياها، وفعلاً جربت هذه الوصفة على مدى أسابيع من الزمان، حتى شعرت وكأن شيئاً لم يكن.

إنها مرحلة من أصعب المراحل داخل السجون، قضيتها على مضض بآلامها بعد أن استعنت بالله الواحد القهار، وبقي الأمر هكذا إلى أن خرجت من السجن وقمت بإجراء عملية جراحية على يد دكتور ماهر جزاه الله خيراً، وانتهى الأمر بعدها إلى غير رجعة، بإذن الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

النقاش حول النطف المهرية (سفراء الحرية)

كثيراً من الأمور والقضايا نجدها تشغل بال الأسرى في معتقلهم.. فأحياناً تثار قضايا مستجدة تهم الأسير على الساحة الاعتقالية بشكل عام، ثم تصبح بعدها مثار نقاش تستحق الاهتمام، ومن هذه القضايا التي أثّرت داخل السجون في السنة الأولى من الألفية الثانية: تهريب النطف إلى خارج السجون عبر زيارات الأهل.

ففي ساحة سجن عسقلان، وتحت شجرتها الوارفة الظلال، وفي جلسة هادئة عفوية، جمعت مجموعة من الأسرى، أثّر خلالها نقاش جديد وحساس حول إمكانية تهريب النطف.

كان الحديث في مثل هذا الموضوع ضرباً من الخيال، لما يترتب عليه من الأبعاد الشرعية والاجتماعية والنفسية، وانتهاء بتقبل الناس لمثل هذه الفكرة، فكان منهم المؤيد لها ومنهم المعارض المتخوف، وكل واحد منهم له وجهة نظره المقبولة عقلاً وشرعاً:

أما المتخوف المعارض: فيرى أن لهذه الخطوة أبعاداً وأصداء؛ وذلك نظراً لحساسية الموضوع بين الناس.

أما المؤيد فكان يرى: أنه من الصعوبة بمكان على أسير كان قد تزوج في ريعان شبابه، وما لبث إلا قليلاً حتى وجد نفسه بعد أشهر من زواجه داخل المعتقل، ليتقاجأ بعدها بحكم المؤبدات، ولا يدري فيما بعد أيفرج عنه قريباً عبر الصفقات أم أنه ينتظر موته البطيء داخل المعتقلات؟؟!!

عَقْدُ فِيْ جِفْنِ الرَّدْفِ

وبالتالي، فإنه من الإجحاف أن يُحرم هذا الأسير من زهرة الحياة الدنيا، خاصة إذا توفرت الطرق والوسائل الشرعية التي تمنحه وتحقق له هذا الهدف النبيل.

إذن، فالمؤيدين لهذا المشروع يرون ألا يحرم هذا الأسير من الولد عبر النطف المهربة، بغض النظر عما يؤول إليه الأمر ما دام في إطاره الشرعي..

وبالتالي، التقى رأي المؤيدين والمخالفين بالموافقة على هذا المشروع بشرطين مهمين:

الشرط الأول: ضمان أمانة ناقل النطف وثقة الطبيب المعالج.

الشرط الثاني: العمل على إيجاد غطاء شرعي واجتماعي لهذه العملية داخل المجتمع الفلسطيني؛ وذلك لحماية ظهر الأسير وأهل الأسير من حملات التشكيك والتشهير.

وعليه، لا بد لهذا المشروع من شبكة أمان، وتغطية له عبر فتاوى العلماء، وخطب الجمعة، والدروس، وإقناع الناس بأن مثل هذا العمل أمر طبيعى، حتى لا يساء الظن بإخواننا الأسرى وذويهم..

فإذا ما تم كل ذلك فالكمل مع هذا المشروع؛ لأنه فكرة طيبة تخدم الأسرى وكل من له علاقة بالأسرى..

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أقول: هذا الموضوع كان يشغل بال كثير من الأسرى داخل سجون الاحتلال خاصة؛ من يهمله الأمر، وما أن طُرح هذا الموضوع حتى وجد إقبالاً حسناً داخل المجتمع الفلسطيني..

وشاءت قدرة الله ﷻ أن ينزل هذا المشروع على أرض الواقع، لنرى ثمرته تتحقق، بأن يرزق بعض إخواننا الأسرى المحرومين من الولد ذرية صالحة إن شاء الله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)⁽¹⁾.

كان في مقدمة من رزق بمثل هذه الطريقة، ومثله كثير، أخونا الحبيب (عمار الزين)، الذي أنجب ولدين عبر هذه الطريقة، وقد سررنا قبل أشهر عندما علمنا بأن إدارة السجن سمحت لواحد من أبنائه ممن جاء عبر هذه العملية بزيارة والده داخل السجن واحتضانه، فسبحان الله خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير.

وفي نهاية حديثي هذا، لا بد أن ننوه -هنا- أن الصهاينة لا زالوا يرفضون الاعتراف بهذا النسل الجديد من حيث حقوقهم المدنية، الذين زاد عددهم عن الثمانين حتى الآن.

وبالتالي، فإن لم يعترف الصهاينة بسفراء الحرية، فيكفيهم أن يعترف بهم رب البرية..

(1) سورة الروم ، آية 19 .

مبدأ التخيير..

يبدو أن مصطلح تخيير الأسير لزوجته أو خطيبته، من المصطلحات الجديدة الغريبة على مجتمعاتنا المحافظة..

هذا المصطلح لم يطرق أذهان الكثير من الأسرى من قبل، نظراً للعادات والتقاليد التي تتحكم بحياة الناس والله أعلم..

ولكنني، وقفت عند أمر مهم عند بعض الأسرى في سجون الاحتلال، فقد يكون الأسير خاطباً فيتمسك بخطيبته التي لم يدخل بها، وهو يحمل على عاتقه من الأحكام الثقيلة العالية..

وقد يكون متزوجاً، ولم يمكث مع زوجته سوى أشهر قليلة، وما أن يلبث إلا قليلاً حتى يجد نفسه في أعماق السجون، بل ومن ذوي المؤبدات، وهو يصير على الارتباط بزوجته إلى ما لا نهاية..

أقول: وقفت عند هذه المشكلة المقلقة، حتى اطلعت على موقف من المواقف الرائعة والرائدة في تاريخنا المعاصر لنموذج من النماذج، وقائد كبير من الرعيل الأول في الحركة الإسلامية، ألا وهو الأستاذ (كمال السناني) صهر الأستاذ (سيد قطب)، يوم أن وجد نفسه في أعماق سجون الظالمين، وقد حكم عليه بحكم عالٍ، وكان يوم ذاك لازال في مرحلة الخطوبة، فرأى أن يخطو خطوة جريئة نحو الإمام، وأن يبرئ ذمته أمام الله ﷻ، ثم أمام من ارتبط بها، فأرسل إلى خطيبته رسالة يخبرها ما بين البقاء على ذمته وما بين الخيار الآخر، حتى جاء الرد الحاسم الجازم والسريع

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

من قبل خطيبته (أمانة) أخت سيد قطب، وخلاصة الرد بأنها ستحافظ على الرباط المقدس الذي يجمع بينهما، وأنها ستجاهد في الخندق الذي هو فيه ..

وفعلاً، استأنست بهذه التجربة الرائدة، وبدأت أنصح نفسي وبعض الأسرى بأن يأخذوا بمبدأ التخيير كحق شرعي للمرأة كما أعتقد، حتى لا يبقى في نفسها شيء تكنه في صدرها، بأن زوجها أو خطيبها كان سبباً في عدم سعادتها في يوم من الأيام..

لكن طرح مثل هذا الأمر ليس سهلاً في مجتمعاتنا، بل قد يكون من الصعوبة بمكان أن يوصل الأسير هذا المفهوم لزوجته؛ لأن البعض قد يفسر هذا التخيير بشكل خاطئ..

وحتى يكون الكلام مقبولاً لدى الآخرين، ابتدأت بنفسي واتصلت بزوجتي وقلت لها: أنت تعلمين أن قضيتي تختلف عن كل قضايا الأسرى، ولا أدري متى يفرج عني؛ لذلك أنت في الخيار ولا أريد أن أربطك معي، حتى لا تقولي في يوم من الأيام أنني ظلمتك بسبب سجنني..

وما أن سمعت هذا الطرح حتى أجهشت بالبكاء.. ما كادت تصدق أن تسمع مني مثل هذا الكلام، وقد ذهب بها الظنون والشكوك والتساؤلات.. وأصبح لسان حالها يردد في أعماقها: إنني لم أخطئ، ولم أفعل شيئاً فلماذا هذا الطرح؟ ولماذا كذا؟.. الخ من هذه التساؤلات..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ولكنني - شخصياً - قد أبرأت ذمتي أمام الله ﷻ ثم أمامها، بأنني تركت لها الخيار، فاختارت بأن تواصل معي المسيرة باختيارها وليس باختياري.. ثم بدأت أتحدث مع كثير من الأسرى حول هذا الموضوع؛ لأن التخيير من حق المرأة الشرعي، وكنت أقول لهم:

من كان خاطباً من ذوي الأحكام العالية فليحلل خطيبته حتى لا تبقى تنتظر السنوات الطوال، ولتذهب بحالها لتعيش حياتها الطبيعية أو تختار خيارها بنفسها، فتكون أنت كأسير قد برأت ذمتك أمام الله ﷻ ..

ومن كان متزوجاً وأخذ أحكاماً مؤبدة أو في حكم المؤبد فليخير زوجته، حتى لا يبقى في نفسها شيء..

هذه هي قناعاتي، وهذا هو منهجي الشخصي، الذي أعتقد أنه موافق لشرعنا الحنيف، والله أعلم بالصواب..

من سجن مجدو

إلى سجن شطة

عام 2006م (1)

- دمعات ساخنة..!!
- إصرار على التحول.
- تفاوت مواقف الأسرى من الجسم العسكري عام 2007م.
- سيرة الشهيد عبد الله عزام داخل سجون الاحتلال.
- حرب الفرقان وما أثارت من أحزان.
- شعاع نور في نهاية النفق.

(1) لم يطل بنا المقام كثيراً في سجن مجدو، لتتوجه بعدها مباشرة إلى سجن شطة (قسم 7) في نفس العام، وبقينا في سجن شطة إلى بداية عام 2009م. وهنا؛ لا أريد أن أفصل كثيراً حول الأحداث التي حصلت خلال وجودي في سجن شطة، ولكنني سأختصرها بعدة أحداث مهمة فقط.

دمعات ساخنة...!! (1)

في إحدى الزيارات العاطفية المؤثرة، التي زارني فيها الوالد في سجن شطة، وهي الزيارة الأولى بعد ثماني سنوات من أسري، حيث كانت هذه الزيارة من أكثر الزيارات العاطفية التي زارني فيها طيلة سنوات الاعتقال، وعلى إثر هذه الزيارة، كتبت خاطرة تحت عنوان: "دمعات ساخنة".

دمعات ساخنة، وعبرات حزينة!!
انسكبت....!! فكانت على الوجنات.
وسالت!! فكانت المفاجآت.
والتهبت!! فكانت اللقاءات.

بدمعات مؤلمة، ارتسمت على أجمل صورة.. حزن ممزوج بسرور، وفرحة
قد انطبعت على وجه أغلى حبيب طال الغياب بيني وبينه!!

هذه الدموع الساخنة، رأيته رأي العين تجري في المقل على الخدين، رغم
برودة الشتاء وزمهرير كانون، أصلها الحنين، ونبعها الدموع، وقنواتها المقل،
وأرضها وصفحاتها الخدود.

بمجل هذه الصورة الحزينة الأليمة الممزوجة بالفرحة والسرور، التي
ارتسمت في الأذهان، كانت المفاجأة، وكان الاستقبال... استقبال والد لولده

1 (كتبت في سجن شطة – بتاريخ 2007/1/24 م.

ملاحظة: كتبت هذه الخاطرة بعد زيارة والدي ووالدتي لي في سجن شطة وكان من نعم الله عليّ أن رأيته بعد ثماني سنوات، حيث كانت أمنيّتي أن أراهما قبل أن يقبض الله أمانته، وفوق هذه النعمة؛ فقد حظيت بصورة معهما في اليوم نفسه.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وهو على هذه الحال، بعد غياب طويل وفراق مرير، قد مضى عليه سنوات ثمان، شاب فيها من شاب، ومات فيها من مات، وأصبحت الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، وانقلبت فيها عروش، وتربّت فيها كروش، واغتنى فيها من اغتنى، وفقّر فيها من افتقر.

إنها فترة غربة عن الأهل والبلد والعشيرة، تزوج فيها من تزوج، وولد فيها من ولد، ومحيت خلالها أشياء كثيرة من شريط الذكريات، فلا أدري عمن أسأل، ولا أعرف من أين أبدأ، فمادة الحديث بيني وبينه معدومة، إلا من بعض المفردات التي علقت في الأذهان عن بعض الأهل والخلان، وليس لنا إلا أن نشكو أمرنا للواحد الديان.

كم من الدمعات رأيتها؟ وكم من الأحزان شعرت بها؟ وكم من الآلام واجهتها عبر سنوات العمر؟ إلا أنني لم أر موقفاً حزيناً، أو لقاءً حاراً بعد فراق وطول غياب، مثلما رأيته واقعاً في لقائي مع والدي، بعد هذه السنوات التي فصلتنا عن رؤية بعضنا البعض خلف القضبان!

كنت أسمع بكاءه ونشيجه طوال الوقت الذي استمر ثلاثة أرباع الساعة، والدموع تنهمر من حدقات عينيه عبر الهاتف.

كنت أراه رأي العين عبر الزجاج الظالم أهله الذي فرضته الإدارة علينا، فحرمنا من قبلة نطبعها على جبينه أو قبلة على يديه الطاهرتين.

كم كانت أليمة هذه الأحزان، بعد أن هجمت على قلب قد احترق بآلم الفراق، وعذاب البعاد!

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ولكن، لا ضير.. إنه عذاب، ولكنه عذب؛ لأن الأجر كله من الرب ﷻ.

أقول: كيف لا تسكب فيها مثل هذه العبرات الأليمة الحزينة، خاصة وهو على أبواب التسعينيات من العمر...؟؟

كنت أهدئ من روعه، والدموع تنهمر من مقلتي، أحبسها تارة أخرى، وأقوي من عزيمته أحياناً، وفي الداخل أحاسيس تتحرك تجاهه وتتزاحم، والحنين يسري بين جوانحي، كنت أحاول معه لعله يتماسك...!!

كنت أحاول أن أمسك نفسي، وأحاصر دمعي، حتى لا يزيد حزنه على حزن، هكذا كانت حالي وأنا أنظر إليه، إلا أن النزعة البشرية والعاطفة الأبوية، والحنان المعبأ في النفس قد أخذ مداه، فلم أستطع محاصرة دمعي أو السيطرة عليه.

عندها شعرت ببركان حزن قد انفجر، لا يسكن إعصاره إلا بدمعة منسكبة، يُطفأ بها لهيب الشوق، أو تُخمد بها نار الفراق فقلت:

واتركي دمعي يسيل

يا مقلة العين اتركي

منه قلبي في عويل

إن خطبي لعظيم

فيها أنا عابر سبيل

هذي حياتي مرحلة

كنت أتقرس في وجهه والألم يعتصر قلبي، لا لمحنة الأسر، وإنما شفقة على الصورة التي ترسم أمامي من أحزان وآلام، والنفس مكبلة خلف القضبان، أنظر إليه وهو في سن الضعف، لا أستطيع أن أدفع عنه، ولا

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أن أطفئ من شوقه الملتهب، ولكن الذي كان يسليني في هذا الموقف أن
(عظم الجزاء من عظم البلاء)، وهل أعظم بلاءً من أن يبعد الولد عن والده
وأهله وأحبابه وأقرانه.

صبت علينا مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا .

فكم من دمة صادقة يسكبها الوالدان على ابنهما وهما يزوران خلف
القضبان بعد سنوات طويلة من الفراق!!

فإلى الله المشتكى..

إصرار على التحول

من المواقف المثيرة، التي حصلت أثناء وجودي في سجن شطة، أن أحد الإخوة من شباب فتح⁽¹⁾، قد طلب أن يحول من حركة فتح إلى حركة حماس، إلا أنني كنت أمهله مرة تلو الأخرى لعله يتروى بقراره، إلا أن الإصرار كان سيد الموقف.

حاولت معه مرة أخيرة، وقلت له: بأن يأتي ويعيش معنا في غرفة من غرف حماس لستة أشهر، وهذه فرصة كافية للتفكير، بل كفيلة بأن يقرر بعدها قراره النهائي؛ لأن تجاربنا مع أمثال هؤلاء الشباب غالباً ما تجره العاطفة في لحظة من اللحظات ثم بعد ذلك يتراجع عن قراره، فمن هذا الباب نحن نعطي الأخ فرصة كافية للتفكير حتى يحسم ترده..

إلا أن الأخ حسم أمره وقرر قراره، وأنه لا عودة، رغم الضغوط التي كان يواجهها من قبل أبناء فتح الذين وقفوا في وجهه، حتى أنهم قالوا له بعض الكلمات العاطفية الرادعة كقولهم:

أين تذهب؟ والشهداء...!! هل تخون الشهداء (2)؟؟

فكان يرد عليهم: أنا ذاهب عند حماس، وليس عند شاس!!

تحت هذا الإصرار الشديد تمت الموافقة على احتضانه بين أحبائه وإخوانه داخل حركة حماس في غرفة (14) سجن شطة.

وبعد أن انضم إلى حركة حماس جاء أخوه من فتح لزيارته، وعاتبه عتاباً شديداً، وطلب منه أن يعود إلى فتح، إلا أنه قال له: أنتم لم تعرفوا فتح؛ نحن عرفنا فتح داخل السجون، وأصر على موقفه ولا زال يعيش بين شباب حماس.

(1) شاب من شباب بلدة اليامون قضاء جنين.

(2) كناية عن أن أخوه شهيد وبعض أقاربه من شهداء فتح...!!

تفاوت مواقف الأسرى من الحسم العسكري عام 2007م

من الأحداث الكبيرة التي حصلت في عام 2007م، ونحن في سجن شطة، الحسم العسكري في قطاع غزة..

لا شك أن هذا الحدث كان زلزلاً بكل معنى الكلمة، ما جعل الأسرى يعيشون - من خلاله - ما بين مؤيد، ومعارض، وصامت.

فحركة فتح لا شك أنها اتخذت موقف العداء تجاه حركة حماس داخل السجون، وسارت على خطاها ولو على استحياء بعض التنظيمات من منظمة التحرير، حتى أصبح أبناء فتح لا يحضرون ولا يصلون خلف أبناء حماس في صلاة الجمعة، بل كان الحديث داخل غرف فتح حديثاً عدائياً، حتى وصل ببعضهم عندما كان يأتي بعض قادة حماس على تلفاز الجزيرة يضعون الأحذية على صورهم، كناية عن الإساءة والإهانة، يصحبها السب والشتم بالأشكال والألوان، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن هذا الحدث كان صادمًا لهم جميعاً⁽¹⁾.

أما حماس والجهاد فمنهم المؤيد ومنهم المعارض..

فالجihad الإسلامي: كان يرى أن ما حصل كان يمكن تلافيه بطريقة أو بأخرى.

1 (وهذا حصل تماماً في الغرف المجاورة لغرفتنا في سجن شطة وقد كنا نسمع السب والشتم لقادة حماس بأذاننا وتنقل الصورة الصادمة لنا من داخلهم.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أما أبناء حماس، فمنهم المؤيد لما رأوه من الفساد الذي أحدثته السلطة، من ملاحقة واعتقال وقتل لأبناء حماس، وعدم الإقرار بنتائج الانتخابات من قبل فتح، فضلاً عن أن هناك مؤامرة كانت تحاك لضربة قاضية لحماس، ولولا لطف الله وعنايته لنجحت هذه المؤامرة.

أما القسم الثاني من أسرى حماس، فلم تكن معارضة من أجل المعارضة وإنما كان من باب المتخوف والمشفق على الحركة، وأنه لا بد من الاستعداد لما سيترتب عليه ما بعد الحسم.

سيرة الشهيد عبد الله عزام داخل سجون الاحتلال

كنت حريصاً أشد الحرص أن لا أتناول أي شيء يتعلق بموضوع الشهيد (د. عبد الله عزام) داخل سجون الاحتلال منذ أن اعتقلت؛ لما لهذا الموضوع من حساسية أمنية، إلى أن وصلت سجن شطة ما بين عامي 2006م حتى أول عام 2009م.

أقول: في عام 2008م أصر بعض الإخوة إصراراً شديداً على أن أحدثهم عن حياة الشهيد (د. عبد الله عزام)، وتحت هذا الضغط والإلحاح استجبت لمطلبهم، وبدأت أكتب لهم في كل يوم حلقة بشكل متسلسل ينسخها عدد كبير من الأسرى داخل السجن؛ لما لهذه المادة من أهمية وأثر نفسي وتربوي على الشباب، فضلاً عن ندرتها وعدم وجود شخصية ذات تجربة عاشت مع الشيخ جنباً إلى جنب.

استمر العمل على هذه الحلقات إلى أن وصلت إلى الحلقة الثالثة عشرة.. عندها توقفت، نظراً لعملية النقل المفاجئة إلى سجن نفحة.

هذه الحلقات، تم الاحتفاظ بها في دفتري الخاصة إلى أن أفرج عني من سجون الاحتلال إلى قطاع غزة، فقامت بترتيبها وتنقيحها وإضافة عليها؛ حيث كانت نواة لتأليف كتابي الذي تحدث عن حياة الشهيد د. عبد الله عزام، تحت عنوان: (شيخي الذي عرفت)⁽¹⁾.

1 (قد صدر هذا الكتاب بعد أن قامت مؤسسة إبداع بطباعته وتوزيعه على معظم قيادة حماس في غزة.

حرب الفرقان وما أثارته من أحزان

في ساحة سجن شطة، وفي الفورة الصباحية من ظهيرة يوم 2008/12/27م، وإذ بجميع الأسرى يتحلقون حول نوافذ غرف السجن بشكل يلفت الانتباه، وبأن حدثاً مهماً ما يجري على الإعلام، وما أن تيقنا بأنفسنا حتى وجدنا شاشة قناة الجزيرة مباشر تبث مناظر مروعة ومهولة من الجثث المقطعة الأوصال من الشهداء، فضلاً عن الجرحى الذين يرفعون أصابعهم إلى السماء وهم يتشهدون، والدماء تملأ الساحات والأجواء، مما بدا لنا من الهولة الأولى أن غزة قد دمرت عن بكرة أبيها.

وبعدها دخلنا إلى الغرف لنتابع ما يجري من أحداث جسيمة عبر شاشة الجزيرة، والوجوم يخيم على الوجوه، وتكاد النفوس لا تقبل شرباً ولا طعاماً من شدة الهول والحزن الذي ألم بنا..

وهكذا... الأجواء مشحونة، والنفوس مشدودة، والعيون محمقة حول الشاشة الصغيرة، ونحن نتابع مجريات الأمور عبر قناة الجزيرة، وهي تنقل بشكل مباشر أولاً بأول، وكل أسير منا لا يدري من أهله أو أقربائه بين هذه الجثث أو الجرحى، حتى أطل علينا رئيس الوزراء آنذاك الأستاذ (إسماعيل هنية) بإطلالته، يطمئن فيها الجميع بكل ما يجري من أمور، وأن غزة لا زالت بخير، وأن المقاومة لم تقل كلمتها بعد، إلى أن جاء ردها في المساء، لنقول للعدو: نحن هنا..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

إن أفعالنا تسبق كلمتنا، فلسنا ممن يقول كما عودكم طغاة العرب: نحتفظ بحق الرد، وسيكون ردنا في المكان والزمان المناسبين ٠٠ بل ردنا سيكون أسرع مما تتخيلون.

بعد هذا الرد، هدأت النفوس، وعادت الروح إلى الحياة بعد هذه الصدمة الغادرة، رغم أننا فقدنا فيها الغوالي الأعزاء من الشهداء، وما لحق بغزة من دمار، ولكن نقول قول الحق عزوجل: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا)⁽¹⁾.

هذا ما أحببت أن أصور فيه وضع الأسرى ومشاعرهم لحظة الضربة الأولى لقطاع غزة في حرب الفرقان، وما لحقها من أحزان.

1 (سورة الأحزاب، آية 25.

شعاع نور في نهاية النفق

إرهاصات الإفراج:

في غرفة رقم (7)، داخل سجن شطة (قسم 7) ساق الله إلينا الأخ (يحيى السنوار "أبا إبراهيم")، على قدر من الله عَزَّوَجَلَّ، ونزل في غرفتنا في أوائل 2007م، ولم يمكث بيننا إلا فترة وجيزة، وخلال هذه الفترة التي تواجد فيها بيننا، التفت إليّ ذات يوم وقال: أما آن لقضيتك أن تنتهي يا أبا عادل؟

فقلت له: ידי بحزامك يا أبا إبراهيم!

وفعلاً، بدأ أبو إبراهيم يكتب رسالة تلو الأخرى باللغة العبرية إلى من يهمه الأمر، فكان يكتب كل يوم رسالة وندرسلها بالبريد، حتى توجت الرسالة ما قبل الأخيرة إلى المحكمة العليا، وهذا مختصر الرسائل بتواريخها التي تم إرسالها إلى أصحاب القرار:

الرسالة الأولى: بتاريخ 2007/03/11م إلى مندوب شكاوى الجمهور.
كان الرد عليها: سيبحث الأمر مع الجهات المختصة.

الرسالة الثانية: بتاريخ 2007/03/12م لمراقب الدولة.
كان الرد عليها: سلبياً.

الرسالة الثالثة: بتاريخ 2007/03/12م لوزير العدل الإسرائيلي.
كان الرد عليها: ننصح بالتوجه للجهات المختصة.

عَقْدُ فِيْ جِفْنِ الرَّدِّ

الرسالة الرابعة: 2007/03/14م إلى المستشار القانوني للحكومة الإسرائيلية، ولم يرد عليها..

الرسالة الخامسة: 2007/03/15م إلى رئيس لجنة الدستور والقانون في الكنيست الإسرائيلي، ولم يرد عليها..

الرسالة السادسة: 2007/03/18م إلى عضو الكنيست عزمي بشارة. لم نستفد منها أي شيئاً؛ لأنه قدم استقالته.

الرسالة السابعة: 2007/03/19م إلى عضو الكنيست أحمد الطيبي. كان الرد عليها: أنه سيبحث الموضوع مع الجهات المختصة.

الرسالة الثامنة: 2007/03/20م إلى النيابة العامة الإسرائيلية، ولم يرد عليها..

الرسالة التاسعة: 2007/03/22م إلى عضو الكنيست محمد بركة، ولم نتلق رداً..

الرسالة العاشرة: 2007/03/25م إلى المحكمة العليا. لم أتلّق رداً على الرسالة إلا في عام 2009م، عندما كانت المحامية سناء دويك تتواصل مع المحكمة لتحديد موعد الجلسة.

الرسالة الحادية عشرة: بتاريخ 2007/04/02م كنت قد أرسلت رسائل إلى الرئيس محمود عباس، ورئيس الوزراء إسماعيل هنية، ووزير الخارجية د. محمود الزهار، ووزير الداخلية أ. سعيد صيام.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

بعد ذلك، التقى الأخ يحيى السنوار بالمحاماة سناء الدويك من القدس -كما علمت- وطلب منها إنهاء قضيتي مهما كلف الأمر من ثمن.

وفعلاً، بدأت المحاماة بالعمل على ملفي وبقيت على هذه الحال إلى أن بدأت تتواصل مع المحكمة العليا، عندها طلبت النيابة من المحاماة التداول في قضية ملفي بعيداً عن المحكمة، وبناءً على ذلك تم التوصل إلى صفقة بين المحاماة والنيابة... انتهى فيها الأمر بإبعادي إلى قطاع غزة بتاريخ 2009/05/26م.



إلى المحطة الأخيرة في سجن نفحة

مواقف حصلت أثناء وجودي في سجن نفحة..

- وقف بث قناة الجزيرة..
- أجواء إيمانية متميزة..
- مواقف مخزية وتصرفات لا وطنية..
- سيرة الشهيد عبد الله عزام والوداع الأخير
- في أحضان غزة العزة.



وقف بث قناة الجزيرة

لكل بداية نهاية.. وهكذا، بعد أن غادرنا سجن شطة في الشهر الأول من عام 2009م، ميممين نحو سجن نفحة، ولم نعلم أنها ستكون المحطة الأخيرة.

أقول: وصلنا سجن نفحة وحرب الفرقان لا زالت محتدمة بين المجاهدين في قطاع غزة والعدو الصهيوني.

وفور أن حطت بنا الرحال في قسم (4) كان السؤال الأول الذي واجهتنا به الشرطة: كيف كانت مشاهدتكم للحرب من خلال متابعتكم لها عبر شاشة قناة الجزيرة؟؟

دخلنا قسم (4) ولم نلتفت لمرمى سؤالهم، بل اعتبرناه أمراً عادياً ولم نكن نتوقع أن له أبعاده.

تفاجأنا بعد فترة وجيزة بإزالة قناة الجزيرة عن البث للأسرى داخل سجون الاحتلال؛ لما لهذه القناة من آثار إيجابية من جميع الجوانب النفسية والفكرية والتربوية والسياسية والاجتماعية، فضلاً عن الاطلاع الكامل على جميع الأحداث ومواكبة الأسير للمتغيرات التي تجري على مستوى المعمرة كلها، كل ذلك لإيذاء الأسير والضغط عليه نفسياً.

عندها، اتضح لنا السر الحقيقي وراء السؤال الذي كانت الشرطة تطرحه على الإخوة الأسرى، الذين كانوا يصلون إلى السجن آنذاك، وكأنهم يستمزجون الآراء وهم يمهّدون لقرار يعد له خلف الكواليس، تمهيداً لإلغاء القناة عن كافة السجون، وذلك لحرمان الأسرى من هذا الإنجاز الذي لعب دوراً مهماً في صناعة وعي الأسير..

أجواء إيمانية متميزة

لا شك أن الأجواء التي عشتها في سجن نفحة قسم (4)، خاصة الأيام الأخيرة من الحرب، كانت أجواءً إيمانية متميزة، خاصة أثناء الصلوات، عندما كنت أسمع الدعاء المؤثر بأن ينصر الله المجاهدين على أعدائهم المجرمين.

هذا الدعاء كان يتخلله البكاء الذي كان يصدر من داخل الغرف.. كان له الأثر الكبير على نفوسنا وقلوبنا.

إنها لحظات إيمانية تؤكد المعنى الحقيقي والترابط الأخوي للحديث النبوي الشريف (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى) (1).

1 (حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم.

مواقف مخزية وتصرفات لا وطنية

كان القسم المجاور لقسم (4) في سجن نفحة هو قسم (3)، وهو خاص بحركة فتح، حيث تفاجأ الأسرى من تنظيم حماس في قسم (4) بمواقف سيئة وتصرفات لا وطنية من بعض أسرى حركة فتح، وسلوكاً لا أخلاقياً، لا يمت للوطن أو للأخلاق أو الدين بأية صلة، خاصة عندما أقدم بعض أفراد من فتح بتوزيع الحلوى على مرأى وأعين الجميع، وذلك نشوة وابتهاجاً باستشهاد الأخوين الكريمين (سعيد صيام ونزار ريان) في الأيام الأخيرة من الحرب، ما أثار حفيظة أبناء حماس، ولولا السياج والحديد الذي يفصل القسمين لحصلت ملحمة بين التنظيمين، وبالتالي اكتفت حماس في حينها بإرسال رسالة احتجاج شديدة اللهجة لتنظيم فتح في قسم (3).

سيرة الشهيد عبد الله عزام والوداع الأخير

أثناء وجودي في قسم (11) بسجن نفحة، وقبل الإفراج عني بأيام، واجهني أمران:

الأمر الأول:

إصرار إخواني في هذا القسم على أن أحدثهم عن حياة الشهيد (د. عبد الله عزام)، وهذا الذي كنت أحاول أن أبتعد عنه، نظراً لحساسية الموضوع، ومع ذلك، وتحت ضغطهم وإصرارهم استجبت لدعوتهم وطلبهم بأن أخاطبهم بشكل مباشر وليس كتابةً عن بعد عبر حلقات، كما حصل مع إخواني الأسرى في سجن شطة..

وهكذا، بدأنا الحديث والنفوس مشدودة، باعتبار أن هذه المادة جديدة ومشوقة للأسرى، وهي تُطرح على مسامعهم لأول مرة في حياتهم.

ولذلك كان الحضور والتفاعل كبيرين على مدار الأيام التي تحدثنا فيها عن حياة الشهيد (د. عبد الله عزام).

كنت أتحدث والبعض من إخواني الأسرى يكتبون ويوثقون ما أقوله عن حياة هذا الرجل المعطاء، وما أن وصلنا إلى اليوم السادس في حديثنا، حتى وقف أحد أفراد الشرطة على باب الغرفة، وأبلغني بخبر الإفراج، فقلت: سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.. فقال الإخوة: أكمل أكمل.. فقلت لهم: لم يعد في النفس شيء، سوى التفكير بإعداد نفسي وتجهيزها، ثم توديع الإخوة ومغادرة السجن.

.. أثناء الوداع الأخير الذي كنا نودع فيه إخواننا في سجن نفحة قسم (11)، اقترب مني بعض الإخوة الأسرى من أبناء غزة وقالوا لي:

إلى أين يا أبا عادل؟

قلت لهم: إلى غزة...!!

قالوا: حصار...؟؟!!

قلت لهم: أنا لست أفضل من أهل غزة...!!

ثم أردفت قائلاً المثل الشعبي الدارج بين الناس بما يناسب حالي ووضعي والذي يقول:

قال أحدهم للآخر: "بضربك كف بجيبك بمكة"، فرد عليه صاحبه قائلاً:
(على إيدك بتيجي الحجة) ..

وهكذا، كما ترون أن اليهود (ضربوني كفاً فجابوني في غزة)، وهذا الذي كنت أطمح إليه..

وفعلاً، غادرت سجن نفحة مبعداً نحو غزة بتاريخ 2009/5/26م.

في أحضان غزة العزة

استقبلت استقبالاً حافلاً من قبل إخواني في قطاع غزة، وفي مقدمتهم؛ وزير الداخلية آنذاك الأستاذ (فتحي حماد) والأخ الحبيب (د. أبو أكرم بحر) نائب رئيس المجلس التشريعي، وغيرهم الكثير الكثير، فجزاهم الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

وهنا، وفي هذا المقام، لا بد أن أسجل كلمة وفاء وعرفان لكل من احتضني في قطاع غزة، وعلى رأسهم الأخ الحبيب الشهيد (إسماعيل لبد "أبو جعفر")، والأخ الحبيب رئيس الوزراء آنذاك (إسماعيل هنية "أبو العبد")، والأخ الحبيب وزير الأسرى آنذاك المستشار (محمد فرج الغول "أبو أحمد")، والأخ الحبيب (أنور الدجني "أبو راشد")، فجزاهم الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

وقبل أن أختتم كلماتي هذه، لا بد لي أن أقول كلمة صدق ووفاء عن غزة، أقولها وبكل ثقة:

غزة لا مثيل لها في واقع الأرض بمشروعها المقاوم..
فغزة العزة أرض الشهامة والإباء والكرم، أقول لها: شكراً غزة.

فسلام على غزة..

وسلام على أهل غزة..

وسلام على من احتضني في غزة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



رسائل من أعماق الأسر (1)

أولاً: رسائل خاصة:

- رسالة إلى والدي الحبيب وأمي الحبيبة.
- رسالة إلى زوجتي وأبنائي ..
- رسالة من والد إلى ولده في محبسه ..
- رد معتقل على رسالة والده ..
- رد على رسالة الطفل (قتيبة) ..

ثانياً: رسائل توجيهية ووداع.

- رسالة وداع إلى الأسير المفرج عنه (مصطفى ملحم).
- رسالة إلى الأسير المفرج عنه (علاء أبو خضر).
- نصائح وتوجيهات للأسير (أدهم الشولي).
- ثلاثتهم بالذات .. !!



(1) رسائل من أعماق قلاع الأسر، كُتبت على فترات متلاحقة في سجنين من سجون الاحتلال (سجن شطة وسجن عسقلان).

أولاً:

رسائل خاصة

رسالة إلى والدي الحبيب وأمي الحبيبة (1)

والدي الحبيب... والدتي الحبيبة... حفظهما الله تعالى..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أبدأ رسالتي بالسؤال عن أحوالكما وأحوال زوجتي وأولادي وإخواني وأخواتي، ومن يخصصن، راجياً من الله ﷻ أن تصلكم رسالتي هذه وأنتم جميعاً على أحسن حال وأهدأ بال... إنه سميع مجيب.

والدي الحبيب... والدتي الحبيبة... حفظكما الله تعالى ...

كان لا بد لي، وأنا لا أزال أقضي جزءاً من سنوات عمري خلف القضبان، أن أسطر بعض المشاعر والأحاسيس الصادقة التي تجول في نفسي تجاهكما، وفاءً وعرفاناً لكما وتثميناً لمكانتكما، ولدوركما الكبير في تربيتي، وبناء شخصيتي، ومواكبة مراحل عمري، فكان لي الشرف العظيم أن أحظى بوالدين مؤمنين كريمين مثلكما، أحبهما ويحبانني، فجزاكم الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

لقد عشت في أوائل مراحل حياتي بكنفكما، وتربيت تربية كريمة على أيديكما الطاهرة، ونشأت نشأة طبيعية، بعيدة كل البعد عن التأثيرات السلبية التي عاشها الكثير من أقراني... أكاد أخصها باستقلالية التوجه، وحرية

(1) كتبت في سجن شطة بتاريخ 2008/11/12م لكن مكان المشهد الذي حصل فيه هذا الحوار كان في سجن الجملة عام 1998م.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدِّ

التفكير، والثبات على المنهج، والانتماء الحقيقي المتين لعائلي، وحرصى الشديد على بقاء وحدة هذه العائلة تحت ظل كبير العائلة.

كانت رغبتي أن أكون بينكما لأتحدث إليكما وجهاً لوجه، وبكل صراحة وشفافية، فى جو يسمح لى أن أعبر فيه عما يجول فى نفسى تجاهكما... أما وقد شاءت إرادة الله تعالى، أن أكون بعيداً عنكما فى غياهب السجون لأكثر من عقد من الزمان، كان لا بد لى أن أخاطبكما من بُعد عبر القرطاس والقلم؛ لأعبر لكما عما يجول فى خاطرى.

والدى الحبيب... والدتى الحبيبة، حفظكما الله تعالى...

لم ىدر بخلدى فى يوم من الأيام أن أضعكما على هامش الاهتمامات، بل كنتما دائماً وما زلتما وستبقيان فى سلم أولوياتى فى الحياة؛ فلم تغيبوا عن ذهنى لحظة واحدة على مدى سنوات العمر كله، بل لم أغفل لحظة واحدة عن أهميتكما، ولم تكن الزوجة والأولاد بديلاً عنكما فى يوم من الأيام - كما يحصل مع كثير من العاقين - بل كانت وما زالت وستبقى لكما المكانة الرفيعة فى قلبى وتعاملى وسلوكى، وكنت وما زلت أنا وزوجتى وأولادى خدماً لكما فى السراء والضراء، إلى أن نلقى الله ﷻ وهو راض عنا...

والدى الحبيب... والدتى الحبيبة:

لقد كنتما وما زلتما الحاضر الأوحد، بعد الله ﷻ، فى ذهنى وفى دعائى اليومى... فى سجودى وقيامى، بل كانت توصيتى الأولى لزوجتى وأولادى،

في كل زيارة من زيارتهم لي، أن الوالدين هما الأصل، وهما كل شيء في حياتي.

وكنت وما زلت أوصيهم بأن يقوموا مقامي تجاهكما، بعد أن سلبت مني حريتي، وقيدت حركتي من قبل عدوي، وكأنني أصبحت في عالم آخر.

والدي الحبيب... والدي الحبيبة:

كنت وما زلت أعتقد أنكما تمثلان خطأ أحمر بالنسبة لي.. لا يمكن لأي كان في الدنيا أن يقنعني بعكس هذه الحقيقة، مهما حاول المفسدون من إفساد ذات البين، بيني وبينكما؛ لأنني أدرك تماماً ما عناه الرسول ﷺ أن الوالدين باب من أبواب الجنة أو باب من أبواب النار.

ولهذا، فإن المؤمن مهما صلى وصام وقام وزكى وحج واعتمر، وقدم من أعمال البر، لا يمكن التسامح معه وهو يمثل بين يدي رب العالمين إن كان عاقاً للوالدين.

ومن هذا المنطلق، كانت حياتي وما زالت مبنية على هذا المنهج والاعتقاد، باعتباره منهجاً ربانياً وتوجيهاً إلهياً سطر بكتاب الله العزيز إلى يوم الدين، فلا يجوز لأي كان، أن يتخطى هذا الأمر الرباني القائل: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (1).

(1) سورة لقمان، آية 14.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدِّ

ومن هنا، كنت وما زلت أتساءل:

كيف يمكن لي أن أتخطئ أمراً ربانياً قضاه الله تعالى من فوق السبع الطباق، وربطه وقرنه بعبادته تعالى، وهو القائل: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} (1)؟.

كيف أسمح لنفسي أن أغلظ على والدي أو والدتي في يوم من الأيام، والله ﷻ يقول: {وَلَا تَنْهَرُهُمَا}؟؟.

كيف لي ألا أتلف بلطف بمن كانوا سبباً في وجودي في الحياة، والله ﷻ يقول: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا}؟؟.

كيف لا أذل لهما وأرحمهما بعد تعبهما المضني، الذي لحق بهما منذ صغري حتى كبري، خاصة يوم أن كنت ضعيفاً أحتاج إلى رحمتها وشفقتها، بل ضُمت تحت جناحيهما يوم أن كنت بأشد الحاجة إليهما؟؟.

كيف لي ألا أخفض جناحي لهما بعد أن اشتد عودي وأصبحت بأمس الحاجة للرحمة والشفقة بسبب ضعفهما في كبرهما، والله ﷻ القائل والأمر: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} (2)؟؟.

كيف لا أعتبرهما جزءاً من حياتي وتفكيري وسلوكي وتفاعلي، بل كيف لا يكونان في قلبي ومشاعري وأحاسيسي؟؟.

1 (سورة الإسراء، آية 23.

2 (سورة الإسراء، آية 24.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

لقد قلت لكما يا والديّ مراراً وتكراراً وفي مناسبات عدة، بأنني لم أحضر من غربتي إلا إرضاء لكما وتطبيباً لخواطركما، ولم يكن مشروع من المشاريع في تفكيري، يوم أن عدت إلى أرض الوطن إلا مشروعاً واحداً، ألا وهو خدمتكما، لعلي أنال جزءاً من رضاكما بعد رضى الله ﷻ، قبل أن يقبضني إليه أو يأخذ وداعتكما، بعد طول عمر وحسن خاتمة.

إخواني الأعزاء :

كان لا بد لي في هذا المقام أن أقدم لكم الشكر الجزيل على ما قدمتموه لي ولأولادي وزوجتي من خدمة طوال فترة اعتقالني؛ لأنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فجزاكم الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

إن أكثر ما يهمني إخواني - في هذه الأيام - بالنسبة للوالدين، أن يختم الله لهما بخاتمة الخير والسعادة، وهو دعائي المستمر لهما في قيامي: (اللهم اغفر لوالدي ووالدتي واختم لهما بخاتمة الخير والسعادة) ... هذا ما يشغلني تجاه الوالدين؛ لأنه من الوفاء لهما - من طرفنا - أن نساعدهما على هذا الأمر، وأن نبعدهما عن مشاكل الدنيا وما يتعلق بالقيـل والقال، وأن ندفعهما نحو أعمال الآخرة.

نريد أن يغادرانا أو نغادرهما، والله ﷻ راضٍ عنا وعنهما، وويل لكل من يشغلهم في أمور الدنيا على حساب الآخرة.

إنّ ازدحام الذكريات، مهما بلغت، لا يمكن أن ينسيني فزعهما وفزعكم ليلة اعتقالني، ولا معاناتهما ومعاناتكم خلال أيام الاعتقال، ولا ينسيني -أيضاً-

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ما تحمله وما تحملتموه من أعباء ثقيلة بسبب بعدي عن زوجتي وأولادي، فمهما قدمنا لهما من شكر فلا يمكن يا إخواني أن نوفيها حقهما.

فهما الوالدان، لا يبدلان ولا يُستبدلان بغيرهما.. فهما الأصل والجذر ونحن الفرع، وهما الأساس وكبار العائلة، ولا كبير في العائلة بوجودهما.

لم أنس الدمعات الساخانات التي سقطت على الوجنات، يوم أن زارني الوالد والوالدة لأول مرة، بعد انقطاع طال عن رؤيتهما ثماني سنوات في سجن شطة.

إنها دمعات، لكنها ساخانات بحرارتها...

إنها دمعات، لكنها خرجت من المقل.

إنها أحاسيس الوالد تجاه ولده... إنها المشاعر على فلذة كبده.

لم أنس يوم أن قال الوالد لي في إحدى زيارته، وأنا أقبع خلف القضبان: "يا ولدي... لقد أطلت الغياب عنّا... نحن بحاجة إليك!!"

لقد كانت هذه الكلمات العاطفية بالوزن الثقيل في ضغطها على المشاعر والأحاسيس، بل كانت شديدة في وقعها... كبيرة في حجمها... قوية في تأثيرها، ما يجعلها تهز الجبال الراسيات، ولكن الأقوى من ذلك، أن أسمع هذه الكلمات، وأنا مسلوب الإرادة والحرية خلف القضبان، ما يجعلني عاجزاً عن تلبية النداء.

إخواني الأعزاء:

بعد هذه المقدمة الطويلة، لا بد لي من الدخول معكم جميعاً في صلب الموضوع، ألا وهو الحذر من المفسدين الذين يلعبون بالخفاء عبر دائرة

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

القيـل والقال، من حيث نشعر أو لا نشعر، وسأذكر أيها الإخوة بعض ما يقوم به بعض المفسدين، الذين يحاولون الدخول بيننا لتمزيقنا بأمثلة واقعية وليست خيالية، فكان أولها عندما حاول أحد المفسدين أن يفسد بيني وبينكم، يوم أن كنت في سجن الجملة عام 1999م، عندما نقل لكم كذباً صريحاً على لساني لا أساس له من الصحة.

ما زلت أذكر ذلك اليوم الأليم، الذي حُفر في الذاكرة، وفي قلبي جرحاً لم يندمل بعد.. إنه يوم مشهود في حياتي.. ما زلت أتجرع مرارته كلما مررت عليه في شريط الذكريات.

جاء يومها الوالد والوالدة لزيارتي.. يوم كنت في سجن الجملة وهو في قمة الانفعال.. لم يكن هناك مقدمات سوى السلام، ثم قال: أتريد يا ولدي أن تفضحنا...؟؟ إنها كلمات.. لكنها بالوزن الثقيل... لم تكذ تلك الكلمات تصل لمسامعي حتى شعرت بلحظة غيبوبة من الوجود، بل وكأن الأرض ابتلعتني للحظات، ثم عدت للحياة من جديد... إنها صدمة ليس بعدها صدمة...

وهكذا، أصبحت الأسئلة تنهال عليّ من داخلي.. يتردد صداها بين جنباتي... أفضحهم... أنا أفضحهم؟؟ كيف أفضحهم وقد سخرت حياتي وزوجتي وأولادي لأهلي وسمعتهم الطيبة؟؟

قلت للوالد: هلا أفصحت لي يا والدي عما تقصده؟ قال: أنت تقول للناس؛ إننا لا نرسل لك شيئاً..

قلت له: هل عهدت عليّ كذباً يا والدي؟؟
قال: لا..

قلت له: وأنا صادق إن شاء الله...

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

أنا لم أقل هذا أبداً.. والله ما قلت هذا أبداً، ثم قلت له: نحن يا والدي لا نتحدث عن تقصير الناس تجاهنا، فكيف نتحدث عن أهالينا؟ وأنا على يقين أنكم لم تقصروا معي، ولنفرض أنه حصل تقصير (لا سمح الله)، فإن مروءتي ونخوتي ورجولتي، وصلة الأبوة والرحم والقربة، تأتي علي أن أتحدث للغرباء عن أهلي وعزوتي!!

إن من نقل لكم هذا الأمر لا يريد به وجه الله (تعالى)، وإنما كان يقصد الإفساد بيني وبينكم.. فانتبهوا....!!

وعندما حاولت أن أعرف من كان وراء هذه المفسدة، اكتفى الوالد بالقول: إنه قادم من عندك، وممن عاش معك في السجن، ورفض الإفصاح عن اسمه حتى الآن، وهذا في نظري يساعد المفسدين على الإفلات والاختفاء، كالعقرب الخائنة تلسع الغافلين دون أن تتال العقاب والجزاء.

ومع ذلك، لن يطول الأمر كثيراً حتى أعلم من كان خلف هذه المفسدة، وإلا سأوكل أمره إلى الله (تعالى)، وعنده لا تضيع الودائع إن شاء الله (1).

سلامي لكم جميعاً، صغيراً وكبيراً، ذكراً وأنثى ... وسلامي إلى كل من يسأل عنا بطرفكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ابنكم المطيع

محمود سعيد صالح عزام (أبو عادل)

سجن شطة 2008/11/12م

(1) الرسالة طويلة جداً، ولكنني أكتفي بعرض جزء منها حتى لا أدخل في الخصوصيات.

رسالة إلى زوجتي وأبنائي⁽¹⁾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

زوجتي الحبيبة.. أولادي الأعزاء..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

.. زوجتي الحبيبة:

أكتب لك من بُعد.. بعد غياب طويل زاد على عقد من الزمان، لعل كلماتي هذه تنفذ إلى القلب، أو تجد لها طريقاً إلى النفس، لتعيش بين جوانحك، ولتعلمي أن حبي لك حب متجذر ليس له حدود، فلا هو قابل لأن يتلاعب به المتلاعبون، ولا هو مستعد أن يمهد الطريق لأي إنسان في الكون لأن ينزعه من داخلي.

ووفاء لك أيتها الزوجة الحبيبة؛ أكتب لك هذه الكلمات:

زوجتي الحبيبة:

لم يكن بُعدي عنك اختياراً، جرياً وراء لعاعة من لعاعات الدنيا.

ولا بُعداً اضطرارياً يُقصد منه حاجة من حاجات الدنيا.

ولا زهداً بك يقصد به عدم الرغبة في الحياة معك.

وإنما كان بُعدي عنك بعداً إجبارياً فرضه عدو شرس، لا يملك في قلبه

أية رحمة، ولا ذرة من ذرات الشفقة بإنسانية الإنسان.

(1) الأربعاء 24-09-2008 م سجن شطة قسم (7).

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

ولذا كان لا بد يا زوجتي الحبيبة أن تتفهمني الواقع الذي نعيشه على حقيقته، الذي يحمل معه معذرة زوج من زوجته، كان ولا يزال على العهد إلى أن نلقى الله ﷻ.

إن المحبة الأولى التي جمعتنا على هذا الطريق، هي مرحلة ما بعد الزواج، وهي المرحلة الحقيقية التي رسخت حبي لك، فهو حب ليس كحب الآخرين، بل هو حب قد يختلف عن حب بعض الأزواج لزوجاتهم، إنه حب حقيقي، بعيد عن التزوير والمداهنة والضحك على الذقون!! بل بعيد عن المكر والخداع.. إنه حب أبدي.. حب صادق يخرج من قلب صادق بتوفيق الله ﷻ!!.

ولهذا، فقد أخذت عهداً على نفسي، ونهجت نهجاً في حياتي؛ أن أعاملك معاملة الخطيب لخطيبته، والحبيب لحبيبته، بعيداً عن سلطة الزوج لزوجته، وهذا من شأنه جعل حياتنا مليئة بالسعادة، رغم قساوتها.. ولذة العشرة رغم مرارتها.. ومتعة الأحوال والأزمان رغم البعد والحرمان.

لقد ضُربت أيتها الزوجة الحبيبة المثل الحي في الصبر والاحتمال على شظف العيش، وقسوة الحياة، بل قسوة المجتمع من حولك، وكنت على قدر المسؤولية والمقام، فعشت وحيدة تواجهي المصير من بعدي، باذلة قصارى جهدك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حياتنا، لمواصلة مسيرة العائلة وتربية الأولاد، والحفاظ على بيتك وسمعته وعاداته وتقاليده.

زوجتي الحبيبة:

لقد عرفت معدنك منذ زمن بعيد، وأنا أراك تقفين بجانبني، خاصة في أيام الشدة من حياتنا الزوجية الأولى، أيام أن كنت طالباً في الجامعة، فلم تبخلي في حينها بكل ما تملكينه من أجل حياتنا، حتى وصل بك الأمر أن تبذلي ما تملكين من جواهر، لتسديد أجرة المستشفى، يوم أن رزقنا الله ﷻ بمولودنا عادل في مستشفى الناصرة⁽¹⁾ - يوم أن وقفت عاجزاً عن تسديد أجرة المستشفى - وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على معدنك الطيب الأصل، عندما قلت لي يومها: كل ما أملك فداك وفدا عادل، فيالك من امرأة أصيلة، لم أعهد عليك في يوم من الأيام أنك كنت حريصة على دنيا ولا مال، ولا جاه، بل كان كل همك أن يكون بيتنا بيتاً مستوراً بين الناس، كنت ولا زلت أراك ترفري بجناحك على أبنائك، كما يرفرف الطير على فراخه كلما شعر بما يهددهم.

ولقد ضحيت كثيراً أيتها الزوجة الحبيبة من أجلي وأجل أولادك، وتحملت معي شظف العيش وعتاب بعض الأقرباء، ولكنني أقول لك: إن الله ﷻ سيعوضك خيراً.

زوجتي الحبيبة:

كلي أمل؛ بأن تجعلني والدي ووالدتي من أولى أولوياتك واهتماماتك، خدمة واحتراماً وتقديراً؛ لأن خدمتهما باب من أبواب الجنة..

(1) مستشفى من مستشفيات الناصرة في 19/12/1985م.

ولا يسعني في نهاية هذه الرسالة إلا أن أقول لك: بأنه لم يدرك أحد من الناس قدر المصاعب، ولا حجم المعاناة التي كانت تواجهك - بعد أن فرّق بيننا الأعداء - سوى زوجك الذي يحتفظ لك بهذا الصنيع، ويقدر لك هذا الجميل، وهو نفس الأمر الذي جعلني أدرك أنني تركت سنداً قوياً خلفي أعتمد عليه وأثق به، يتابع من بعدي تربية الأولاد ومواكبة مسيرة حياتهم الدراسية والتربوية..

أقول: لم يدرك أحد من البشر ما تحملتيه، خاصة في الأيام الأولى من اعتقالي، فلك مني كل تقدير واحترام، وجزاك الله عني وعن أبنائنا خير الجزاء..

أما أنتم يا أولادي، فلا أدري كيف يمكن أن أوصل لكم اعتذاري، وبأي أسلوب يمكن أن يصل إليكم، خاصة وأنتم تعلمون جيداً وتعرفون حق المعرفة، أنني لم أتعمد، في يوم من الأيام من حياتي، الابتعاد عنكم لأي سبب من الأسباب، وهذا الأمر تعرفه أمكم حق المعرفة، منذ أن جمعني الله ﷻ بها.. كنت حريصاً أن تكون معي أينما حللت وأينما وطأت قدماي.

كنت ولا زلت أحدث معارفي بأن بُعدي عنكم، هذه الفترة الطويلة، لم يكن إلا بعداً قسرياً إجبارياً خارجاً عن إرادتي، وإلا لو كان الأمر يتعلق بإرادتي لما سمحت لنفسي أن أغيب عنكم هذا الغياب الطويل، حتى ولو كان ذلك مقابل أموال الدنيا كلها..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

إن وجودي بينكم ساعة واحدة على إفطار ليلة من ليالي رمضان، أو ساعة واحدة أرافقكم فيها إلى صلاة عيد من أعياد المسلمين، أو ذهابي مع بعضكم إلى صلاة جمعة من الجمع، لا تعدلها عندي كنوز الدنيا بأكملها..

أبنائي الأعزاء:

قد لا تدركون ماذا تعنون بالنسبة لي، أو مدى حبي لكم، أو المكانة الرفيعة التي تمتازون بها عندي.. إنكم تعنون الشيء الكثير، فأنتم رصيدي في هذه الدنيا، وامتدادي وسندي، بل ومشروعي في الحياة، وآمل أن تكونوا عند حسن ظني، وألا تخذلوني في كبركم، أو مستقبل أيامكم..

أما الوالدان: فأمل أن تعتبروا أن الوالدين هما الأصل في حياتكم، خاصة وأنتم تعلمون ماذا يمثل الوالدان عندي، ومدى التعامل معهما، فهما أصل الشجرة، وخطأ أحمر لا يجوز بأي حال من الأحوال تجاوزهما أو إيذاؤهما، فضلاً عن التكاسل عن خدمتهما..

لقد راهنت عليكم كثيراً بأن تكونوا خدماً لهما بدلاً مني؛ لأنهما في مثل هذا السن في أشد الحاجة لنا ولخدماتنا لهما، فانتبهوا يا أبنائي لهذه القضية المهمة، بل والخطيرة؛ لأننا بدونهما لن ندخل الجنة، فالأبوان باب من أبواب الجنة أو باب من أبواب النار، فهما فعلاً بكم -حسب نظركم- ومهما اشتدت غلظتهما عليكم -وهذا بعيد عنهما- فلا يقبل من أي واحد منكم الرد عليهما بالمثل أو مقاطعتهما، فاقبلوا منهما ما يصدر عنهما بكل سعة صدر، حتى ولو كان ما يصدر عنهما ما يؤذيكم حسب اعتقادكم..

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

فيا أبنائي: انتبهوا لهذه القضية، فهؤلاء ضيوف عندنا، فكما تحملونا صغاراً وتعبوا علينا وتحملوا ما تحملوا حتى أصبحنا كباراً، كذلك لا بد لنا أن نقوم بنفس الدور، ونرد لهما الجميل، والصنيع الذي أدوه لنا وزيادة، إنه دين علينا لا بد أن نكافئهما عليه، خاصة وقد أشرفا على التسعينيات من العمر، فكونوا لهما خير معين، حتى يرضى الله ﷻ عنا وعنكم؛ لأن الله ﷻ ربط برهما بعبادته عندما قال: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} (1).

والقول الكريم يا أبنائي: هو القول اللين، والقول الحسن، والقول الطيب، فانتبهوا، وحذار ثم حذار أن تتعاملوا معهما بقسوة أو بأسلوب سيئ، أو أن تقاطعوهم أو تتكاسلوا عن خدمتهما أو أن تتعاملوا معهما بندية، وبقدر ما تقدروهما وتحترموهما بقدر ما ينزل الله ﷻ علينا من رحماته وفتوحاته، بل إن التوفيق والرزق مرهون بدعواتهما الصادقة لنا، والرضا عنا، لأن رضا الأم والأب من رضا الرب، فانتبهوا لهذه الوصايا، واحرصوا على تطبيقها بشكل عملي، وليست ألفاظاً نردها وأقوالاً بعيدة عن الواقع نتباهى بها..

وأما الاهتمام بواقعكم يا أبنائي، فأملني بالله كبير، أن أراكم جميعاً متعلمين ودارسين دراسات عليا، وقد أخذت عهداً على نفسي أن أقوم بتدريسكم إلى أعلى المستويات من التعليم، مهما كلفني من ثمن؛ لأن الجاهل ليس له

1 (سورة الإسراء، آية 23.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

مكانة في مجتمعنا، ولا يقدر ولا يحترم فيه إلا المتعلم، وهذه وصيتي لكم، وبهذا أكون قد أديت واجبي تجاه ربي ثم تجاهكم.

وَأمل أن تنظروا إلى أخيك الكبير (عادل)، الذي يواصل دراسته بعد أن حصل على درجة من الدرجات العليا، وأن تحذوا حذوه، وتقتدوا بخطاه، ولقد كان لنجاح عادل الأثر الكبير في نفسي، بل رفع رأسي أمام معارفي، وقمت بتوزيع الحلوى على إخواني الأسرى داخل المعتقل، كيف لا وقد كنت ولا زلت أفتخر به أمام الناس، فكونوا يا أبنائي عند حسن ظني بكم، وليكن أخوكم عادل خير مثال لكم، وقدوة تقتدون بها في دراستكم وحياتكم..

ولدي الحبيب عمير: كنت ولا زلت أنظر إليك بأن تتجه نحو التعليم والتعلم للحصول على الشهادة العليا قبل فوات الأوان، ولا يمكن أن يكون هذا إلا بأن تقتنع بالقناعة التامة بالعلم، ومواصلة التعليم، فبالإرادة والتصميم على التحصيل العلمي؛ يمكنك أن تصل إلى هدفك ومرادك بكل جدارة.

وأما أنت يا أسيد: فماذا أقول لك؟ فوالله إن مهنتك التي تعلمتها في المدرسة الصناعية، كانت من أفضل المهن، وهي التي ستجعلك رجلاً عاملاً في المجتمع، بل هي رصيدك لتأمين مستقبلك، وأنت الآن أصبحت كبيراً، ولا بد أن تعلم أن من درسوا معك في المدرسة أشرفوا الآن على التخرج من الجامعات، فبعضهم سيتخرج مهندساً، والآخر طبيباً، والثالث صيدلانياً، والآخرين معلمين، وسيتزوجون، ويأتيهم أولاد، ويفتحون بيوتاً، وأنت ماذا تنتظر؟؟

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

وأما أنت يا سنان: آمل أن تواصل تعليمك، خاصة وأن هذا العام يحتاج إلى بذل جهد كبير في التوجيهي، وآمل أن تنتهي إلى سمعتك، وسمعة أهلك، وهذا أمر مهم في حياة البنت، خاصة في هذه السن، واحذري يا بنية من الاختلاط؛ لأنه أصل البلاء في المجتمع، واحذري أن يضحك عليك أحد؛ لأن البنت أهم شيء في حياتها سمعتها، فإذا مُسَّت فإنه دمار لمستقبلها، فتضيع وتضيع من يخصها من أهلها، وأنا أثق كل الثقة بأنك شاطرة مثل أمك، لا يستطيع أحد أن يضحك عليك، فكوني حذرة ومنتبهة في التعامل، حتى ولو كان من كان، والباقي عند أمك فهي تستطيع أن توضح لك مقصدي ..

وأما محمد وإبراهيم: آمل منهما، أن يهتما بدراستهما جيداً ليحصلا على معدلات عالية في التوجيهي حتى يقبلا في الجامعات ..

وأما سمية: فأمل أن تكون قد وفقت مع زوجها، وكلما سمعت أنها مرتاحة مع زوجها فإن السرور يملأ قلبي، ويمنحني راحة نفسية كبيرة، وآمل أن تعيش حياة هادئة مع زوجها وأبنائها، وأن تقوم من ولادتها بسلامة الله تعالى ..

وصيتي الأخيرة لأبنائي جميعاً:

أوصيكم بأمكم خيراً، فهي خير معين لكم، واعلموا أنها السند الوحيد القوي لكم، فاهتموا بطاعتها، واعلموا أن كل من يعصها يرتكب إثماً كبيراً، بل هي معصية لله وللرسول ﷺ؛ لأن هذا الدين وصى بالآباء والأمهات، فتذكروا

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

قبل أن تقولوا أَفَّ .. تذكروا كم تعبت من أجلكم، وكم ضحت حتى أصبحت رجلاً، وكم أرهقت حتى وصلتكم إلى ما وصلتكم إليه...

فانتبهوا...!! فأمكم رأس مالكم، فإذا فقدتموها فقدتم كل شيء، لا يمكن أن يعوض بدلاً منها، ولو بأموال الدنيا كلها، فالتقوا حولها واحترموها، واجعلوا لها مكانة بينكم، فبقدر احترامكم لأمكم، بقدر ما يحترمكم الناس..

وأما أنا يا أبنائي: فإنني آمل بعد هذه المحنة الرهيبة، أن يقيض الله ﷻ لنا خيراً كثيراً مقابل ما تحملناه من ابتلاءات، فأملني بالله كبير، فكونوا على ثقة بالله.

واعلمي يا أم عادل أن الله ﷻ سيعوضك أنت والأولاد الشيء الكثير، بدلاً من اتعابكم وصبركم واحتمالكم، فقفوا صلتكم بالله، والله ﷻ لن يخذلكم. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (1).

سلامي إلى جميع الأقارب، وأخص بالذكر إخواني الذين كان لهم الدور الكبير في الوقوف مع محنتكم، فأوصيكم بهم خيراً وجازوهم على صنيعهم بالوفاء والاحترام والتقدير، فجزاهم الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

وأخيراً..

أضع بين أيديكم خلاصة ما أتطلع إليه تجاهكم، وآمل أخذها بعين الاعتبار:

1 (سورة يوسف، آية 21.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

النقطة الأولى: لا شك أنكم تعلمون علم اليقين؛ بأن التضحيات التي بذلناها، وصبري وصبركم الذي صبرتموه على غيابي، وما كان الجهد الذي تحملته أنا شخصياً إلا من أجل الله أولاً، ثم من أجل سمعتي وسمعتكم.

والحمد لله، فقد فشل الأعداء فشلاً ذريعاً في النفاذ إلى نفسي، وإلى شخصي، رغم الحيل والترغيب والتهديد والوعيد، وأنا أطمئنكم وأؤكد لكم، بأنهم لن يستطيعوا النفاذ إليّ في المستقبل بإذن الله، لأنه كان شعاري دائماً الذي استقر في نفسي قديماً وحديثاً ومستقبلاً، ما رددته سيدنا يوسف عليه السلام، (رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...) (1).

لذا، فإنني أنبهكم يا زوجتي ويا أولادي من حيل المتحايلين، ومن الذين يلفون ويدورون، وممن يشتهرون بنصب الأحابيل للغافلين والأبرياء، بألا تأمنوا إلا لمن تبع دينكم من الصادقين المخلصين الذين يشهد لهم الأتقياء ممن حولكم...

فحذار يا أبنائي، من التعامل مع أي أناس لا تعرفونهم، أو مشبوهين في الدين أو الخلق، أو ممن يوقعون الناس في مطبات غالباً ما تكون لصالح الأعداء.

النقطة الثانية: وهي تتعلق بوضع الأسرة، وهذا الكلام موجه بشكل مباشر إلى أبنائي فانتبهوا.. لقد راهنت عليكم منذ صغركم، بأن تكون أسرتي من أفضل الأسر المثالية في الطاعة والالتزام والخلق والتمسك بدين الله تعالى، والبعد عن المهارات مع الآخرين وعدم التدخل فيما لا يعينكم، فضلاً عن السب والشتم للغير.

1 (سورة يوسف، آية 33.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

وحذار حذار يا أبنائي من التنازع والتناحر فيما بينكم، فإن التناحر يفقدكم الاحترام بين الناس، ويقلل من هيبتكم واحترامكم من قبل الآخرين، وبالتالي يؤدي إلى تمزيقكم.

كما وأنني أحذركم من الأنانية وقول (أنا) و(هذا لي وهذا لك)؛ لأن مثل هذا الأمر خطير، عاقبته الكراهية والحقد فيما بينكم.

ولذا، فإنني أوصيكم بوصية مهمة، إذا قررتم أن تعيشوا أسرة واحدة متماسكة محترمة تحبون بعضكم بعضاً، أن تجعلوا قرشكم واحداً لا فرق بينكم، فأنتم أبنائي وأحبائي، والقوي فيكم لا بد أن يحمل الضعيف، بدون أي مُنيّة عليه، حتى نؤمن له مستقبلاً واعداً لا يحتاج فيه إلى الغير؛ لأنه لا يمكن لأي أسرة أن تقوم أو تتجح بالأنانية وحب الذات، بل بالعكس؛ فإن أي فرد داخل العائلة يحاول أن يستأثر بما لديه من إمكانيات يورث تمزيقاً شاملاً للعائلة.

لقد قلت لكم ولا زلت: بأنني خادم لكم، لأنني أريد أن أجعلكم أفضل الناس، وأحسن إخوة يتعاملون مع بعضهم البعض، ولا يمكن أن تكونوا كذلك إلا إذا سمعتم نصائحي، وخلاصة نظرتي في الحياة تجاهكم، بأنكم مشروعِي الرئيسي في هذه الحياة، فلا بد أن تكونوا جميعاً مع بعضكم البعض، حتى يتزوج أصغر أخ من إخوانكم، وبالتالي يمكن لكل واحد منكم أن يستقل وحده، أما قبل ذلك فالجميع لا بد أن يبقى في خدمة العائلة وإخوانه وأمه وأبيه.

ومن هنا، فإنني أحذر كل واحد منكم أن يشذ عن هذا الطريق؛ لأنه سيكون سبباً في تمزيق العائلة.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

أبنائي الأحباب: إذا كنتم يداً واحدة في حياتكم فسوف تعينون بعضكم بعضاً، وإياكم والنظر لغيركم ممن يعيشون في أنانية قاتلة، فإذا نظرتم حولكم فإنكم ستجدون في بعض العائلات أن الزوج والزوجة والابن والابنة كل له نظامه الخاص من الناحية المادية والمالية، وبالتالي؛ كل يغني على ليله، فهل ترون أن هذه العائلة عائلة متماسكة يا أبنائي؟ إنها عائلة ممزقة لا يمكن أن يقوم لها كيان في يوم من الأيام، ولا يجمعها جامع، وسيكون مستقبلها مجهولاً، لا يحترمون بعضهم بعضاً، وحياتهم قائمة على الناحية المادية والأنانية، وليست قائمة على الرحمة والتعاطف والتكاتف، فضلاً عن أن أموالهم قائمة على التبذير والإسراف.

ومن هنا، فإنني أريد منكم ان تتوجهوا لأكم بسؤال، كيف كانت حياتي مع أمكم؟ فستجيبكم بالتأكيد، لم أكن يوماً من الأيام احتفظ لنفسى بكيس ولها كيس، إنه مال واحد وقد سرت دائماً على هذا المنوال حتى تبقى روابط العائلة متينة ومتماسكة.. وبهذه الطريقة، حسب وجهة نظري، تنشأ أسرة طيبة محترمة ليس فيها فقير وآخر غني، بل فيها تكافل اجتماعي.

النقطة الثالثة: إن ما يهمني في حياتكم هو دينكم وخلقكم وإيمانكم ومحبتكم لبعضكم البعض، وشعوركم بشعور بعضهم البعض، والالتفاف حول أمكم، وأن أي خلاف بين اثنين منكم، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فالحكم بينكم لحسمه، هي أمكم، ولا بد من القبول بحكمها حتى يستقر أمر العائلة، وإلا فإنكم ستضيعون كما ضاع غيركم.

إن أي واحد منكم يتكبر على أمه أو يتلفظ بألفاظ يجرحها في مشاعرها أو يسيء إليها أو يرفع صوته عليها فإن غضب الله ينزل به، ولن أرضى عنه أبداً؛ لأن أمكم هي الركيزة الوحيدة لاستمرار حياتكم بالشكل الطبيعي،

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

فكونوا معها كأم باحترام وتقدير لتكونوا فعلاً الأسرة المثالية والأبناء المثاليين، كما يريد الله ﷻ؛ لأن هذا هو مطمعي ومطمحي وأمنيّتي، فكونوا عند حسن الظن بكم.

فاذا سرتهم حسب نصائحي، فإن الدنيا ستكتب على أقدامكم، فاحذروا أن تكونوا عبيداً لها، بل اجعلوا الدنيا وأموالها عبيداً لكم، وقولوا في دعائكم: اللهم اجعلها في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا.

وقبل الختام فإنني أقرر حقيقة مهمة، بأن الركيزة القوية والركن الركين لأي عائلة تعتمد على الابن الأكبر في العائلة، فإن قدر له أن يكون عادلاً ومنصفاً مع إخوانه، بعيداً عن الأنانية وحب الذات، فإن الله ﷻ يحفظ هذه العائلة وأفرادها لتشق طريقها نحو المجتمع بشكل إيجابي، وإلا فالابن الكبير يتحمل الوزر الأكبر في تمزيق إخوانه وعائلته، بسبب أنانيته وحب ذاته.

وأخيراً:

فإنني أوصيكم -للمرة الثانية والثالثة وللمرة الألف- بجدكم وجدتكم خيراً. كما وأوصيكم بأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم خيراً، وصلة أرحامنا وأرحامكم، قدروا مكانتهم؛ لأن العم عند العرب في مقام الأب، فكونوا لهم عوناً وأنزلوهم منازلهم، وهذا أقل الواجب تجاههم.

وفقكم الله لما فيه الخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زوجك المحب ووالدكم المحب:

محمود سعيد عزام "أبو عادل"

سجن شطة 2008/09/24م

رسالة من والد إلى ولده في محبسه⁽¹⁾

ولدي الحبيب:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أكتب إليك هذه الرسالة، بعد أن اختطفتك الأيادي الآثمة من بيننا، وأنت لا تتجاوز سن الرشد بعد.

فكم كنت أتمنى أن تكون بيننا في هذه الأيام، كي نحيطك بعنايتنا، ولكن قاتل الله الأعداء الذين حرمونا رؤيتك وتوجيهك ورعايتك، ولم يبق لنا وسيلة لنتصل بك إلا عبر القرطاس والقلم، فلا أقل من أن نكتب لك رسالة نذكرك من خلالها ببعض المعاني العظيمة التي لا يستغني عنها المؤمن المبتلى في دينه، ولعلها تكون زاداً لك على الطريق إن شاء الله تعالى، خاصة ونحن ندرك تماماً ما تعانيه في محبسك هناك، وما أدراك ما هناك، حيث الرضا لمن رضي، والسخط لمن سخط.. حيث الصبر على الآلام والاحتمال.. وحيث الآمال والاهتمام بكتاب الله ﷻ وحفظه.. حيث التجربة واحتمال الآخرين وفهمهم، كل حسب عقليته ونفسيته، فاحفظ يا ولدي الحبيب هذه المعاني، وكن على مستوى الاهتمام والمسؤولية، واحذر أن تخرج من محبسك جاهلاً كما دخلت، واجعل صحبتك العلماء والدعاة والأخيار.

(1) كتبت بتاريخ 2001/1/25م، في سجن عسقلان، هذه الرسالة كتبتها بلسان والد إلى ولده، حيث تخيلت بأنني والد الأسير خارج السجن، فسطرت هذه الرسالة لولدي الأسير وهو داخل السجن. ولهذا؛ حاولت بهذا الرسالة أن أقرب إلى ذهن القارئ حال الوالد خارج السجن، وحال ولده وهو داخل الأسر. ولذا؛ أحببت أن أنوه لهذه الملاحظة.

ولدي الحبيب: إِنَّ أَوَّلَ المعاني التي يجب أن تلتفت إليها:

أولاً: أن ترضى بقضاء الله وقدره، فيما نزل بك من مصاب، وقد فهمتُ يا بني هذا المعنى من خلال وصية عبادة بن الصامت لابنه وهو يعظه: "واعلم أَنَّ ما أصابك، لم يكن ليخطئك، وَأَنْ ما أخطأك، لم يكن ليصيبك، فلا عيش لساخط، ولا قرار لناقم."

واعلم يا بني، أَنَّ الرضا يثمر الشكر، وهو أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، وأما السخط، فيثمر النقم، وربما يُثمر كفر المنعم.

وحقيقة الرضا يا بني - كما قال بعض العلماء -: "أن تلقى الشدائد بوجه ضاحك"، وحقيقة التسليم لله تعالى أن تستوي النعمة والنقمة عندك؛ لأنَّ الأمر كله من عند الله تعالى.

ثانياً: وأما المعنى الآخر الذي يجب أن تلتفت إليه يا بني: الصبر على البلاء، وأنَّ ما من قرينة إلا وأمرها بتقدير وحساب سوى الصبر، فإنَّ الأجر فيه بغير حساب، لقول الله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

فالصبر من الإيمان، ولا إيمان لمن لا صبر له، واحذر يا بني أن تضعف، فالضعف ليس خوفاً من حبس أو ضرب بسيف، وإنما الخشية من ضعف الجسم على عدم تحمل العذاب، وبالتالي يضعف صبرك عن الحق.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

إِنَّ كُلَّ مَا يُثْقَلُ النَّفْسُ وَيُؤْلَمُهَا يَا بَنِي، مِنْ حَبْسٍ وَشِدَائِدٍ وَأَهْوَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا تَكْرَهُهُ النَّفُوسُ، إِنَّمَا هُوَ بِمَجْمُوعِهِ تَرْبِيَةٌ عَظِيمَةٌ لَكَ، وَصِيَاغَةٌ
لشخصيتك.. بل إِنَّ صَبْرَكَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ النَّوَائِبِ، إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ
صَدَقِكَ، وَإِيمَانِكَ بِاللَّهِ ﷻ، فَإِيَّاكَ يَا بَنِي أَنْ يَدُورَ بِخِلْدِكَ -ذَاتِ يَوْمٍ- أَنَّكَ
سَتَعِيشُ بَدُونَ ابْتِلَاءٍ، أَوْ يَسَاوِرُكَ أَدْنَى شَكٍّ بِأَنَّكَ سَتَكُونُ بَعِيداً عَنْ مَوَاطِنِ
الظُّلْمِ وَالْإِذْيَاءِ، فَاللَّهُ ﷻ قَرَّرَ هَذَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ
مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ﴾ (1).

فالطريق مليءٌ بالأشواك والعقبات، ولكن الإرادة القوية المتصلة بالله ﷻ
هي الضمان الحقيقي لمواجهة هذه العقبات.

فيا ولدي الحبيب، لست أول من سجن في سبيل الله، ولن تكون آخر من
يسجن، فهذا النبي يوسف عليه السلام، الذي مكث في البئر فترة من الزمن، وسجن
في حبس عزيز مصر، لهو أسوة لنا على الطريق.

أما في رسول الله يوسف أسوة	لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة	فإل به الصبر الجميل إلى الملك

(1) سورة البقرة آية: 155.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

ولك يا بني أن تقتدي بشيخ الإسلام ابن تيمية، الذي كان يردد في محبسه: " ماذا يصنع بي أعدائي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة". وكان يقول - أيضاً - في محبسه: "المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه".

وما أجمل ما روي عن الإمام أحمد عندما قال: (في اليوم الذي أخرجتُ فيه للجلد، وإذا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول: هل تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيَّار - اللص النشَّال من الجيوب - لقد ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين)، فتعلم الإمام أحمد ﷺ درساً بليغاً في الصبر والابتلاء في سبيل الحق، بعد أن رأى هذا اللص يصبر على دنياه في سبيل الشيطان.

فيا بني، ليس لك إلا الصبر والاحتمال وانتظار أمر الله ﷻ .

وأمر الله يُنتظر

هي الأيام والعبر

فأين الله والقدر

أتَيْأس أن ترى فرجاً

واعلم يا بني، أنَّ الفرج بعد الكرب سنة ماضية، وقضية مسلمة كالصبح بعد الليل لا شك فيه، بدليل الآيات الكريمة: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} (1) ، {وَمَنْ

(1) سورة الشرح آية: 6.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

يَتَّقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا⁽¹⁾، { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا⁽²⁾،
{سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا⁽³⁾}.
وأخيراً: أقول لك يا بني:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذمرعاً وعند الله منه المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها
فُرجت وكان يظنها لا تفرج

والدك المحب

2001/01/25م

سجن عسقلان

(1) سورة الطلاق آية 2

(2) سورة الطلاق آية: 2.

(3) سورة الطلاق آية 7.

رد معتقل على رسالة والده (1)

والدي الحبيب:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

فقد وصلتني رسالتك الكريمة التي عبّرت فيها عمّا يجول في صدرك تجاهي، التي أثارت مشاعري، واستفرت أحاسيسي وعواطفني لما احتوته من معانٍ عظيمة، ونصائح قيمة، وخير عميم، بل شحنت همتي، وقوّت نفسيّتي، فجزاك الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

لقد شعرت من خلال رسالتك، يا والدي الحبيب، خوفك الشديد عليّ، خاصة بعد أن انقطعت عني بتوجيهاتك ورعايتك الكريمة، في وقت كنتُ وما زلت بأشد الحاجة إليها، إلا أنني أبشرك - أيضاً - يا والدي، بأنني كنت وما زلت عند حسن ظنك، وموضع ثقّتك، بأن ساق الله ﷻ لنا شيخاً فاضلاً، لا أبالغ إن قلت لك بأنه قام مقام الأب والأخ في التوجيه والرعاية والحنان خير قيام، فقد عشت بجانبه وهو ممن يحبه قلبك، فعلمني العلم والعمل معاً، وأخذت منه الشيء الكثير، وتعلمت على يديه الدين والدنيا معاً، حتى أنه كلما رأيته مهموماً، بسبب الحبس والبعد عنكم، اقتحم عليّ خلوتي وردد على مسامعي بيت الشعر المشهور:

ويوم نساءً ويوم نُسّر

فيوم لنا ويوم علينا

(1) كتبت هذه الرسالة في سجن عسقلان بتاريخ 2001/05/13م، حاولت أن أُنقِص فيها شخصية الابن الأسير وذلك بناءً على تجربتي، فرددت على رسالة والدي الأنفة الذكر، الذي أرسلها لي من خارج السجن وأنا خلف القضبان.

لقد امتزج يا والدي حبه بدمي، فأصبحت لا أستطيع أن أفارقه أبداً، وكلما هممني أمر طرت إليه فأجد عنده الدواء الشافي لنفسي، ففهمت جيداً أهمية الشيخ لتلميذه كأهمية الطعام والشراب للإنسان، خاصة عندما كنت أتذكر ما قاله ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمه الله وهو في محبته: (كلما اشتد بنا الخوف، وساءت بنا الظنون، وضائق بنا الأرض، التجأنا إلى الله أولاً ثم إلى شيخنا ابن تيمية، فنسمع كلامه، فيذهب عنا كل هم وحزن، وانقلب كل ذلك انشراحاً وقوة و يقيناً وطمأنينة).

والدي الحبيب:

لقد عشت بجانب شيخي هذه الفترة الطويلة، فكان ينصحنني بأشياء، ويحذرنني من أشياء، وكان ينصحنني ألا أستقي العلم إلا من خلال العلماء والدعاة، حتى أكسب العلم والأدب معاً، وكان يرى أن كثرة الثقافة عن الكتب، مجردة عن العمل، إنما هي عامل من عوامل قسوة القلوب، وانحراف السلوك، فكان زال ينصحنني بحسن الخلق، وصدق الورع، وحسن النية، وسلامة الصدر على المسلمين، والنصيحة لهم، ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم وتواضع.

هكذا كان شيخي، أباً وأماً وصديقاً يواكب تربيتي وتوجيهي، لقد علمني أن التمسك بالحق -مقروناً بالفهم- جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، وكان يردد على مسامعي قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الرجوع إلى الحق خير من

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدِّ

التمادي في الباطل " ولم يكن يترك فرصة أبداً إلا ويقول ما قاله أحد العلماء: " لَأَنْ أَكُونَ ذَنْباً فِي الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْساً فِي الْبَاطِلِ " .

وعلمني أَنَّ الجُرْأَةَ بِأَدَبٍ، فِي قَوْلِ الْحَقِّ، جِزْءٌ مِنْ شَخْصِيَّةِ الْمُسْلِمِ وَعَقِيدَتِهِ، مشيراً لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " لَا خَيْرَ فِيكُمْ إِنْ لَمْ تَقُولُوهَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَسْمَعْهَا " .

وعلمني - أيضاً - أَنْ نَحْفَظَ الْفَضْلَ لِأَهْلِهِ، وَأَنْ نَحَافِظَ عَلَى إِخْوَانِنَا وَصَحْبَتِنَا، لقول الله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} (1).

وللحديث الشريف: " إِنَّ اللَّهَ سَأَلَكَ عَنْ صَحْبَةِ سَاعَةٍ " .

وللقول المأثور: " إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ ذَوُوهُ " .

فكان ولا يزال ينصحني بقوله: " إِذَا ضَاقَ بِكَ الْعَيْشُ مَعَ أَخِيكَ، فَفَارِقْهُ بِإِحْسَانٍ وَاحْفَظْ لَهُ غَيْبَتَهُ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ رُوحُ الدِّينِ "، وكان يقدم لنا نصائح تربوية فيقول: " مَنْ لَمْ يَشْغَلْ نَفْسَهُ بِالْحَقِّ، شَغَلَتْهُ نَفْسُهُ بِالْبَاطِلِ "، وكان ينهانا عن التشدد؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ صلی اللہ علیہ وسلم علمنا التيسير، ولم يأمرنا بالتشديد على الآخرين، فقال صلی اللہ علیہ وسلم: " إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبّاً، وَلَا مُتَعَبّاً، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّماً مُبْسِراً " (2).

1 (سورة البقرة، آية 237.

2 (حديث صحيح رواه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

وكان يحذرنا من الظن السيئ، خاصة ممن يشهد لهم بالخير، وأن لا نتتبع عوراتهم؛ لأن ذلك محرم شرعاً؛ لحديث: " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَعَرْضَهُ، وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنًّا سَوْئًا".

وكان يقول لنا ما كان يقوله ﷺ لمعاوية: "إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كَدْتَ أَنْ تَفْسِدَهُمْ"(1).

ومما كان يذكرنا به -أيضاً- أن الله لا يمكن أن يخزي المؤمن كما كانت خديجة رضي الله عنها تقول لرسول الله ﷺ: (كلا؛ والله لا يخزيك الله أبداً، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتَكْسِبَ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِيَ الضَّيْفَ، وَتَعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ).

وكان ينصحنا أن نعامل الناس على ظاهريهم، وأن نكل سرائرهم إلى الله ﷻ؛ لأنَّه لا يعلم ما في النفوس إلا خالقها، مستدلاً بقول عمر رضي الله عنه:

"أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْراً أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يَحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سَوْئاً لَمْ نَوْمَنْهُ وَلَمْ نَصْدَقْهُ، وَإِنْ قَالَ: "إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ"(2).

1 (حديث صحيح، صحيح أبي داود، رقم 4888.

2 (رواه البخاري.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدِّ

وكان يحذرنا من التشاحن، الذي يعد من أخطر الأمور على المجتمع المسلم وجبهته الداخلية، وقد كان هذا من وصايا رسول الله ﷺ عند وفاته: "ألا وإنَّ الشحناء ليست من طبعي، ولا من شأني".

فماذا أقول لك يا والدي؟ وعن أي شيء أحدثك؟؟ إنه خير عميم ساقه الله ﷻ لنا على يد شيخنا، ولم تكن النية في الرد على رسالتك إلا لأطمئنك بأنني بين أيدٍ أمينة، والفضل كله لله أولاً ثم رضاكم علينا.

والدي الحبيب:

لقد عشت، من خلال الأسر، تجربة رائدة، فعرفت الناس على حقيقتهم، ورغم صغر سني، إلا أنني درست نفسياتهم، فوجدتهم على ثلاثة اصناف.

صنف كأمثال شيخي، الذي اقتديتُ به، وتعلمت منه منهج حياتي، فهذا ممن يحبه القلب، ويترسم خطاه أبناء الجيل.

والصنف الثاني، يمثل السواد الأعظم الذي يعيش بفطرته السليمة، ينتظر القدوات، حتى يترسم خطاهم، وهو بمجمله، يقف رهن إشارة من يقوده ويوجهه نحو الهدف الذي ترنو إليه الأعين.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وأما الصنف الثالث، متمثل بالمقولة القائلة: (إن السجن ليس بجدران، وإنما السجن بساكنيه)، وجدتها حقيقة واقعة في غياهبه، بل ماثلة أمام ناظري .. فهذا الصنف أعاذك الله منه يا والدي.

ومع هذا، فإنني لا أريد أن أضيع وقتك بمثل هذا الصنف، إذ لو احتككت بواحد منهم -مع قلتهم- لوجدته مليئاً بالعقد، فكل واحد منهم يحتاج إلى طبيب نفساني، يحلل عقده، فمعدرة يا والدي عن هذا النوع من البشر.

هذا ما أحببت أن أذكره لك يا والدي، على أمل أن نلتقي خارج هذه السجون الظالم أهلها، وفوق ساحة الأقصى، ساحة العزة والإباء والحرية. وسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

ابنك البار

سجن عسقلان

2001/5/13م

رد على رسالة الطفل (قتيبة)⁽¹⁾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

بني قتيبة حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

لا شك أنك لم تكن تعرفني قبل عقد من الزمان، ولا أعرفك لصغر سنك في حينها، ولكن مشيئة الأقدار فوق مشيئة البشر، ليدور الزمان دورة العشر سنوات وأنا خلف القضبان، لألتقي بك عبر قصاصة من الورق، تتخللها تلك الكلمات الرقيقة، لكنها صادقة في معناها، عظيمة في جوهرها، عاطفية في بُعدها.

لقد سررت كثيراً وأنا أتلقي رسالتك الكريمة يا بني، التي وصلتني في 2007/10/25م، وسررت أكثر وأنا أتفحص كلماتها، خاصة؛ وهي تصدر من شبل لا يتجاوز العشر سنوات من عمره، كان قبلها رضيعاً بين أحضان والدته، لا يدرك من الدنيا إلا ملامسة فمه ثدي أمه.

إنها لحظات سعيدة، وأنا أجذك أيها الشبل الصغير كبيراً تراسل الكبار، بل تعرف الواجب الذي غاب عن مثل هذا المعنى الكثير من أقرانك وأترابك، فكنت أنت السباق لجيلك بمراسلتي، ممن يخصني بقرابة أو بصلة رحم، إلا أن هذه الدهشة التي اعترتني سرعان ما انقشع سرها، بعد أن كشفت لي في رسالتك الجميلة عن معدلك الرائع المتفوق الذي حصلت عليه بنسبة 99%.

(1) كتب هذا الرد على رسالة قتيبة في 2008/01/06م وكانت قد وصلتني من ابن شقيقتي الذي لا يتجاوز من العمر العشر سنوات، وكان بودي أن أرفق رسالة قتيبة بهذا الرد ولكن للأسف؛ فقدت بعبث السجائين أثناء التفتيش في سجن شطة (قسم 7).

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

وهذا، إن دل على شيء فإنما يدل على اجتهادك وذكائك ومدى اهتمامك في مزاحمة أبناء صفك على الدرجات العليا، ولتكون في مقدمة أصدقائك في المدرسة.

ومثل هذا الأمر -لا شك- يجعلني ممن يفاخر بك بين معارفي وأقراني؛ لأن الناس -عادة- لا يفتخرون إلا بالمتفوقين، أما الكسالى فإن التاريخ يطويهم في عالم النسيان.

أنا أدرك يا بني أن مثل سنك وجيلك لا يدرك مثل هذه الكلمات التي أكتبها مع بساطتها، وأنها كبيرة عليك وفوق مستواك العلمي، ولكنني سأترك المجال لوالديك كي يشرحوها لك حتى تستطيع فهمها واستيعابها.

وأخيراً، فإنني أراك يا بني قد سألت عن حالي ووضعِي الصحي وحياتي، وأنا لا أخفيك يا بني، أنني أعيش حياة العذاب العذب، أذوقها حلاوة لا يدركها ولا يفهمها كثير من الأنس والجن، إنها حياة مرتبطة بالرحيم الرحمن، الواحد الديان، فمن كانت حياته هكذا يا بني، فلا تقلق عليه، وكن على ثقة أن روحه ترفرف في عالم الجنان لا في عالم الأحزان والنسيان.

سلامي لك وإلى أمك الحبيبة والوالدك الحبيب، وأخيك حسن وأختك ملاك، وأنا على ثقة بأن الفرج سيكون قريباً، مع أُملي الكبير أن تبقى على اجتهادك هذا، وصلتك بكتاب الله ﷻ أنت وإخوانك ثم طاعتك لوالديك.

سلامي إلى جميع من يخصنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خالك المحب / أبو عادل

2008/01/06م

سجن شطة قسم (7)

ثانيًا:

رسائل توجيهية ووداع

من سجن شطة

إلى عالم الحرية⁽¹⁾

(1) رسائل توجيهية ووداع لأسرى ونحن نودعهم من داخل سجن شطة إلى عالم الحرية.

رسالة وداع إلى الأسير المفرج عنه (مصطفى ملحم)⁽¹⁾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

الأخ الحبيب مصطفى ملحم حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

كان لا بد لي أن أكتب لك بعض الكلمات، بمناسبة قرب الإفراج عنك، الذي أسأله تعالى أن يتممه عليك بالتوفيق والهداية والسعادة في الدارين، إنه سميع مجيب.

صحيح أخي الحبيب، أنك لا زلت في بداية عمرك.. وأنت لم تذق من البين لوعة كما يقال، مقارنة مع من يتقدمك بالسن، ومع ذلك، فقد أدركت أشياء في بواكير حياتك لم يدركها أقرانك بعد.

.. إن انشغال الإنسان بقضية كبيرة كقضية فلسطين، أو أن يكون جزءاً منها في هذه السن كأمثالك، لهو أمر يستحق الشرف الكبير..

بل إن مجرد التفكير فيها يعد عملاً شاقاً وثقيلاً على النفوس، لا يطيقه إلا الكبار؛ لأن مثل هذه القضايا تحتاج في النهاية إلى اتخاذ قرارات كبرى وصعبة لما لها من أبعاد، تجعل المرء يشعر بالخوف من عواقبها، ومن التغيرات التي تفرضها مثل هذه القرارات من دفع ثمن باهظ تؤثر على نمط حياة صاحبها.

.. ولهذا، فقد وجدت قليلاً من قليل من قليل، ممن يشتغل بعظائم القضايا؛ لأن انشغالهم بها يكلف صاحبها تكاليف باهظة.

(1) من كفر راعي - جنين.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

إنَّ كثيراً من ذوي القلوب الضعيفة، يحسبون ألف حساب قبل أن يلجوا مثل هذا الطريق الشائك، فأمثال هؤلاء يموتون قبل أن يموتوا، ويدفنون أنفسهم قبل أن يدفنوا، حتى لا يدفعوا الثمن المطلوب.

فالتاريخ، أخي الحبيب، لا يخلد إلا العظماء، بغض النظر عن السن، والخلود لا يقصد به أن يتحدث التاريخ عن الخالدين، وإنما الخلود أن تسري أرواحهم في الأحياء المتعاقبين، وأن تعمل أخلاقهم عملها في كل عصر وفي كل حين على مر التاريخ، ولم يجتمع المثل الأعلى لعظيم في الخلود، كما اجتمع لرسولنا الكريم ﷺ.

وأخيراً.. فإنني أقول لك، أخي الحبيب، وباختصار شديد: إذا أردت أن تلحق بالعظماء الحقيقيين؛ فعش مع أمثالهم، وخير عظيم في تاريخ الإنسانية يمكن أن تعيش معه، هو محمد ﷺ، فاقرأ إن شئت سيرته بامعان وتدبر في كل يوم، لتعلم عظمة هذا الانسان، وما جاء به من تشريع.

فاجتهد أخي الحبيب في حياتك، واجعل العلم في سلم أولوياتك، واختر أخلاءك اختياراً، وأنزل الناس منازلهم، واحرص على الاستفادة ممن هو أكبر منك سناً وأكثر منك علماً، واحرص على صلتك بالله، ووقر والديك، وتسلىح بالخلق الرفيع في التعامل مع غيرك، وإياك والجدل العقيم الذي يمقته هذا الدين، واحذر من مصاحبة الأحمق ومن لا دين له ولا خلق ولا مبدأ..

على أمل أن نلتقي معك في عالم الحرية، ومع إخوانك على ساحة الأقصى في القريب العاجل إن شاء الله تعالى، إنه سميع مجيب.

أخوك المحب/محمود سعيد عزام "أبو عادل"

2008/12/02م

سجن شطة قسم (7) غرفة (14)

رسالة إلى الأسير المفرج عنه (علاء أبو خضر)⁽¹⁾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..
الأخ الحبيب علاء أبو خضر "أبو دجانة" حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

إنه من الطبيعي لأمة يناط بها القوامة على البشرية والعدل في الأرض،
أن يهيئ الله ﷻ لها جيلاً صلباً يتحمل فيها مشاق الطريق ووعثائه، من
صبر على الشدة والضراء وحين البأس.

إن النفوس التي تتربي على الشدة والعصامية، لا يمكنها أن تطير مع كل
نازلة، أو تذهب حسرة مع كل فاجعة، أو تتهار جزعاً أمام أي زوبعة.

ولهذا، نجد أن الله ﷻ، إذا أراد أن يحدث أمراً جليلاً، أو أن يغير واقعاً في
مكان من الأمكنة في الأرض، يهيئ له جيلاً ربانياً لمرحلة من المراحل،
يرعاه على عينه، ليكون عدة المستقبل، وستاراً لقدره.

ونحن إذ نرى - والله أعلم أخي الحبيب- أن الذين يضحون من أبناء
الحركة، سواء كانوا في الميدان، أو ممن هم خلف القضبان من أمثالك،
إنما هم جزء لا يتجزأ من هذا الجيل.

(1) رسالة كتبتها للأخ الحبيب علاء أبو خضر من الجديدة - جنين. بمناسبة الإفراج عنه قبل أن يغادرنا من
الغرفة التي كنا نعيش فيها معاً في سجن شطة.

ولهذا، كان أمراً طبيعياً أن يتحمل كل فرد من الأفراد نصيبه من الآلام والأحزان والهموم، ضريبة لتلك المرحلة، فمن رضي وصبر، كان له الأجر والثواب، ومن سخط وتبرم، نفذ عليه القضاء وكان عليه الإثم والوزر.

لقد عرفتكَ أخي الحبيب عن قرب..

فكنت تعلم أن الأقدار أوسع نظراً منك، فلم تتحير معها.

.. وكنت تعلم أن الأقدار أرحم منك، فلم تتهمها.

.. وكنت تعلم أن الأقدار أحكم منك، فلم تسبها.

.. وكنت تعلم أن الأقدار أقوى منك، فلم تعاندها.

.. وكنت تعلم أن الأقدار أسرع منك، فلم تسابقها.

ولهذا الاعتقاد كان من الطبيعي أن يمدك الله بعون من عنده لاجتياز الامتحان الصعب، عندما صدقت منك النية، وصحت منك العزيمة.

إذا كان البلاء -أخي الحبيب- مظهراً لحكمته، فإن اجتياز البلاء فضل رحمته (إن الله بالناس لرءوف رحيم).

لقد تجملت -أخي الحبيب- بالثبات، حتى انقشعت عنك الغاشية، ورحلت عنك النازلة؛ فجعل الله لك بعد عسر يسراً.

لقد أيقنت أن أصحاب الهم لا يصلون إلى أهدافهم إلا بالتجمل بالثبات والصبر على التعب، فصبرت وهو ما يعبر عنك به لسان حال الشاعر:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أمرها تُنال إلا على جسر من التعب

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

لقد كانت -أخي الكريم- نفسك كبيرة طيلة وجودك معنا داخل الأسر.. كنت تعمل بصمت، بعيداً عن ضوضاء أهل المظاهر، فكنت من أهل القمم. ولهذا، أجد الشيخ عبد الله عزام رحمه الله، يعبر عن حال أقرانك الذين تركتهم في مسقط رأسك، يتعللون بالآمال دون الإعداد، أيام أن بدأت محنتك وأنت في ريعان شبابك إذ يقول:

"إن التعلل بالآمال دون الإعداد، لهو شأن النفوس الصغيرة، التي لا تطمح أن تصل إلى القمم، ولا أن ترتقي إلى الذرى".

لقد كانت نفسك كبيرة مقارنة مع هؤلاء، بعد أن ضحيت بجزء من عمرك تجارة مع الله وَعَلَى.

كانت نفسك كبيرة مع بساطتها في الحياة.. فهنئاً لك -أخي الحبيب- مولدك الجديد في عالم الحرية، وهنيئاً لذويك ومن يخصك بهذه الفرحة والابتهاج.

مع أُملي بالله العلي الكبير أن تعيش عيشة هنية في عالم الأحرار، بعد هذا الضنك والتعب، وأن تسعد في الدنيا والآخرة.. على أمل اللقاء بكم في ساح الأقصى في أقرب فرصة إنه سميع مجيب.

أخوك المحب

محمود سعيد عزام "أبو عادل"

2008/10/01م

سجن شطة قسم (7) غرفة (7)

نصائح وتوجيهات للأسير (أدهم الشولي) (1)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

الأخ الحبيب أدهم الشولي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

لقد وجدت أن أوسع الأبواب التي يمكن الدخول بها على قلوب الآخرين هو السلام، على من تعرف ومن لا تعرف، باعتباره إعلان مبادئ لقول الحبيب ﷺ (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ». متفق عليه.

ووجدت أن أقصر الطرق لاستمرار حبل المودة بينك وبين الآخرين، داخل أسوار الأسر، هي مداراة بعضهم وليس مداهنتهم؛ لأن الرسول ﷺ يقول: (داروا سفهاءكم)؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين المداراة والمداهنة.

فالمداراة، هي أن تستعمل الدنيا من أجل الدين في تعاملك مع الآخرين.

وأما المداهنة، فهي المناققة، التي رفضها الرسول ﷺ، عندما طلب منه كفار مكة أن يعبد آلهتهم سنة وأن يعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله في كتابه العزيز: (ودوا لو تدهنوا فيدهنون)؛ لأن المداهنة معناها: استعمال الدين لأجل الدنيا، وهذا محرم شرعاً بشكل قطعي.

1 (من عصيرة الشمالية – نابلس، وكان آنذاك ما زال أسيراً داخل سجون الاحتلال.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

ولذلك؛ كن -أخي الحبيب- متوافقاً مع من تعيش، ولو بقدر شعرة معاوية بينك وبينه، حتى وإن لم يوافقك، مع علمي اليقين أن من أصعب الأمور عليك أن تعيش مع شخص لا يوافقك ولا يفارقك، ولكنني أدرك -أيضاً- أن الذي يسلي المؤمن أن كل ما يتحملة الإنسان من أذى الناس، ليس من أجل الناس، وإنما من أجل رب الناس.

فامض -أخي الفاضل- وسر على قاعدة "كسب القلوب خير من كسب المواقف"، وتذكر القول المشهور "لولا الوئام لهلك الأنام".

وسر -أيضاً- على قاعدة "ليس بحكيم من لا يداري من لا بد من مداراته".

أما أنت أخي أدهم، فقد وجدت أن من يعيش معك يوافقك ولا يتمنى أن يفارقك، هذا إحساسي تجاهك أخي الحبيب، مع تمنياتي لك بالتوفيق، وأن تزداد أدباً على أدب، إلى أن نلتقي خارج هذه الأسوار الظالم أهلها.

أتركك برعاية الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوك المحب

محمود سعيد عزام "أبو عادل"

2007/12/16م

سجن شطة قسم (7) غرفة (14)

ثلاثتهم بالذات ..!! (1)

وهكذا تمر الأيام والأشهر والسنون.. نعيش في محبنا وأسرنا.. نودع فيها الأخ تلو الأخ.. والصديق تلو الصديق.. والحبیب تلو الحبیب.. نعيشها معاً بجلوها ومرها.. وضيقها وسعتها.. فما تعارف منها ائتلف وما تتاكر منها اختلف.. وسرعان ما نفترق:

ما بين غمضة عين واتبأهتا يغير الله من حال إلى حال

.. وهكذا الدنيا نزول وارتحال.

واليوم انتزع السجان من بيننا مجموعة من إخواننا انتزاعاً ممن يحبهم القلب.. وتستعذبهم النفوس.. وتخالجهم الأحاسيس.. ولا ترى منهم إلا الخير.. اختطفوا من بيننا، وكأن يد المنون اختطفتهم ما بين عشية وضحاها وكأنها لمحة بصر.

صحيح أن الذين غادرونا عنوة هم من بعض إخواننا الذين عشنا معهم طويلاً، ولكنني - في هذا المقام - أخص بالذكر منهم ثلاثة⁽²⁾، ممن كان لي التأثير المباشر على شخصياتهم، وممن تربوا طاعة والتزاماً في أحضان أسرتي.. فرأيت منهم الجد والاجتهاد والمثابرة والطموح والعمل الدؤوب في خدمة إخوانهم، فكنت ولا زلت أرى فيهم النموذج الذي أطمح أن أصل به إلى الهدف الحقيقي. فكانوا هم الإخوان والأحباب والأصدقاء والأبناء ممن

(1) هذه الرسالة كتبها بعد أن غادرنا هؤلاء الأسرى الثلاثة من سجن شطة إلى سجون أخرى.
(2) الثلاثة هم: وائل الزقلة من طولكرم - عزام أبو العدس من نابلس - أحمد أبو خليفة - مخيم جنين.

جمعتهم أسرتي، فدعواتي وتمنياتِي لهم أن يواصلوا مشوارهم في تربية أنفسهم، وصياغة شخصياتهم، وتميزهم عن غيرهم؛ لأن هذه الأمة أمة متميزة عن غيرها.. إنها أمة الخير (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) سورة آل عمران 110.

ولكن، أُملي في الله كبير أن يبيضوا وجهي أمام إخواني ممن يلتقون بهم، وأن تتعكس نصائحي التي تربوا عليها سلوكاً واقعاً على الأرض، وأن يكونوا خير خلف لخير سلف.

والأمل موصول بمن يتلقفهم بأن يعيروهم الانتباه والاهتمام اللازمين، وأن يحتضنهم في التربية والتوعية والتوجيه، كما احتضنوا في أسرتي، وهذا جزء بسيط من وفائي لهم، مع دعائي لهم بالتوفيق والسداد.

أخوكم المحب

محمود سعيد عزام "أبو عادل"

2008/05/13م

سجن شطة قسم (7) غرفه (14)



الخاتمة

- صورة مصغرة عن مراحل الأسر في سجون الاحتلال
- ملخص قضيتي .
- السيرة الذاتية.



صورة مصغرة عن مراحل الأسر في سجون الاحتلال

المرحلة الأولى: بداية الاعتقال:

تبدأ رحلة معاناة الأسير من مدهامة بيته وإفزاز زوجته وأولاده وإرهاب أهله، وقلب البيت رأساً على عقب.

وقد يصاحب المعتقل في رحلة الأسر أبوه أو أمه أو أخته أو زوجته وبقى الأولاد وحدهم في البيت كعائلة جمال أبو الهيجاء من جنين، وعائلة سعيد بلال من نابلس، وعائلة القواسمي من الخليل، وعائلة أبو فهمي من شمال غزة، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

المرحلة الثانية: مرحلة التحقيق:

هذه المرحلة من مراحل التعذيب الجسدي بشتى أصنافه فضلاً عن التعذيب النفسي عبر السب والشتم والشبح وتغطية الرأس والموسيقى الصاخبة التي تصم الأذان ليل نهار لدى بعض الأسرى، ولا يفك قيده إلا عند الطعام.. ويتعمد ترك الأسير فترة طويلة بدون حمام حتى تخرج رائحته للضغط على نفسية الأسير خاصة عندما يقول له المحقق إن لم تعترف ستبقى في السجن حتى تعفن.

لا شك أن هذه المرحلة كلها إذلال في إذلال، ولكن كله في سبيل الله يهون. وتستكمل مرحلة التحقيق بدور العسافير لتحصيل ما لم تحصله المخابرات من الأسير أثناء التحقيق.

والشيء المهم الذي لا بد لكل فلسطيني أن يعرفه أن المخابرات توهم الأسير أن العصافير هم في مكان معين ولكن الحقيقة أن العصافير في كل مكان داخل السجون، بل في السجون المركزية، فلا بد من الانتباه.. ما دمت في داخل السجن فأنت في تحقيق، فكم من محكوم جاءته قضايا وحكم عليها بعد حكمه الأول.

فقصص العصافير كثيرة في هذا الجانب ذكرنا بعضها في ثنايا الكتاب.

المرحلة الثالثة: مرحلة المحاكم والسجون المركزية:

لا شك أن الأسير بعد التحقيق تبدأ معه مرحلة جديدة، وهي مرحلة قاسية في الذهاب والإياب نحو المحاكم وهو مكبل اليدين والرجلين عبر سيارة كبيرة تعتبر كتلة من الحديد الصلب.

هذه السيارة تسمى البوسطة، وهي عبارة عن سيارة خارجها فيها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، وهي وسيلة لنقل الأسرى إلى المحاكم والمستشفيات والتنقلات بين السجون ، يركب فيها الأسير على كرسي من الحديد الصلب غالباً ما يأكل البرد أيام الشتاء من خلفية الأسير، وهي سيارة مصندقة لا تجد فيها متنفساً إلا من خلال نوافذ صغيرة من جوانبها العلوية وبجوارك بعض الحشاشين والمدخنين الذين لم يتركوا لك نفساً نقياً تتنفسه، وويل لمن احتاج قضاء حاجته من خلال الرحلة الطويلة التي تبدأ من أول النهار إلى غروب الشمس من نفس النهار، وذلك لكثرة التوقف في المحطات المختلفة.

هذه المرحلة من المراحل التي قلما يستفيد فيها الأسير من وقته داخل سجون الاحتلال بسبب عدم استقراره.

وأشد من هذه المرحلة قسوة الأحكام الإدارية التي كلما انتهت ستة أشهر تجدد ستة أشهر أخرى.

وأكثر منها قسوة قضية بدون قضية مثل قضيتي، والتي مكثت بسببها في السجن اثني عشر عاماً ما كنت أعلم متى سيفرج عني ٠٠ إنها قضية فريدة من نوعها داخل سجون الاحتلال عشتها معاناة أنا وزوجتي وأولادي وأهلي جميعاً بدون تهمة أو لائحة اتهام.

المرحلة الرابعة: مرحلة المعاناة الحقيقية الطويلة:

- أهم زيارة للأسير وأهله هي أول زيارة له بعد اعتقاله.
- أكثر المتضررين من سجن الأسير هي الزوجة والأولاد والأم والأب.
- أكثر المتضررين بين الأسرى الأسير المؤبد الأعزب وقد أثبت هذا في خاطرة كتبته تحت عنوان: السؤال الذي أعينني.
- بداية الاعتقال: تكون العائلة مستنفرة خاصة الأم، فإذا وضع الطعام تقول لهم : تأكلون وفلان في السجن ؟؟ إذا كانت هناك مناسبة لا يفرحون كما يفرح الناس..
- أبناء الأسير ينظرون إلى الآخرين وكل يذهب مع أبيه خاصة في الأعياد والمناسبات وصلاة الجمعة وهم يكتوون بنار الألم والحزن ويندبون حظهم حسرة على والدهم الأسير.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

- معاناة أهل الأسير ذي الحكم العالي من المؤبدات وما شابهها قد يكون أشد أَلماً من أهل الشهيد.
- إيذاء أهل الأسير كإيذاء أهل الشهيد في الحرمة سواء بسواء، ذاك غاب خلف القضبان وهذا غاب تحت التراب.

المرحلة الخامسة: معاناة الأسير بعد الحكم في السجون المركزية:

- الطعام سيئ جداً في الثلاث وجبات.
- تحديد نوع الطعام والشراب، ونوع اللباس ولونه، حتى غطاء الرأس وصبغ اللحية والرأس والحلق.
- حرمان الأسير من إدخال الطعام.
- الإذلال المتعمد من قبل إدارة السجون خلال العدد والتحكم بالأسير من حيث وقت دخوله وخروجه من الغرف.
- تقييد اليدين والرجلين للمعاقبين قبل خروجهم من الغرف.
- إدخال عنصر الشرطة النسائية لإحراج المتدينين وإذلالهم، وهذا ما حصل عندما دخلت شرطية لقسم (5) في نفحة وبدأ المنفلشون بالتصفير لها من بعض التنظيمات فوقفت وقالت: إما أن تخرجوا الذين صفروا وإما سأعاقب القسم بكامله، فوقع المتدينون في إحراج شديد.
- التفتيش والاقترحات الليلية لغرف الأسرى في وسط الليل خاصة في أيام رمضان لحرمان الأسرى من التعبد.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

- التعرية... كلما خرج الأسير وعاد إلى قسمه يتعرض للتعري وإلا يضرب ويعزل.
- العقوبات الجماعية: في حال الإضرابات وما شابه ذلك، عندها تقوم الإدارة بإغلاق السجن ومنع الزيارات للأهالي والمحامين وسحب كل الأدوات الكهربائية من تلفزيون ومذياع وسخانات كهربائية وغيرها من الأدوات، بمعنى آخر، الإدارة تسحب من الأسير كل أسباب الحياة من باب الضغط عليه.
- العقوبات الفردية: في حال ارتكب الأسير أي مخالفة، في نظر الإدارة، تقوم الإدارة بحرمانه من بعض حقوقه كزيارة الأهل فترة من الزمن، وكذلك حرمانه من المحامي، وتغريمه من الناحية المادية بأموال باهظة وحرمانه من مواصلة دراسته في الجامعة العبرية، إن كان يدرس فيها، وقد يصل به إلى العزل الانفرادي.
- ومن العقوبات الفردية: كثير من الأسرى حرّموا نهائيًا من زيارة زوجاتهم أو أمهاتهم أو آبائهم بحجة المنع الأمني.

مشكلة مرض الأسير ومعاناته داخل سجون الاحتلال:

مرض الأسير داخل سجون الاحتلال مصيبة فوق مصيبة السجن، وتزداد المصيبة عندما يكون المريض من ذوي الاحتياجات الخاصة، كأن يكون كفيفًا كعبادة سعيد بلال من نابلس، أو عزالدين عمارنة من يعبد جنين، أو مبتور اليد كالشيخ جمال أبو الهيجا من جنين، أو مقعد كمحمد أبو لبدة من غزة، وقبلهم الشيخ أحمد ياسين.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

أقول: هؤلاء وأمثالهم في داخل سجون الاحتلال يعانون معاناة كبيرة عند قضاء حوائجهم.

لكن من أعظم الأشياء التي رأيتها داخل سجون الاحتلال خلال الزيارات وفي ظل الجدار الزجاجي، الذي يفصل بين الأسرى وذويهم في الزيارات، أن نتفاجأ أن أباً كفيفاً يمكنه زيارة ابنه من خلف الزجاج؟ أو أباً أطرش أو أما خرساء؟ وهذه النماذج رأيتها بنفسى ٠٠ كيف يمكن لهؤلاء أن يزوروا أبناءهم بهذه الطريقة غير الإنسانية؟ ما لم يلتق الأسير مباشرة مع والده الأطرش أو الكفيف أو الأصم أو الأبكم، فإنها لا تعتبر زيارة، بل تعتبر جريمة في حق الإنسانية.

هذه أمثلة وجزء بسيط من المعاناة التي يواجهها الأسير في معتقله، فكيف إذا أضفت لكل ذلك بعده عن عائلته؟

فكم من بنت أو ولد تزوج ووالدهما في داخل سجون الاحتلال؟

كم من أسير توفي والده أو والدته ولم يرهما منذ زمن بعيد؟

فإلى الله المشتكى...!!

هذه صورة مصغرة عن مراحل الأسر التي يمر بها الأسير الفلسطيني ومعاناته داخل سجون الاحتلال الإسرائيلي باختصار شديد..

ملخص قضيتي⁽¹⁾

بنقاط مختصرة حسب التسلسل التاريخي من أولها إلى آخرها:

- آخر محكمة عسكرية عقدت لي نهاية أيام التحقيق، وكانت في سجن الجلمة بتاريخ 1997/12/17م، أعطت فيها النيابة العامة مهلة ثلاثة أيام لإطلاق سراحي، إلا أن الشاباك أصر على ترحيلي إلى الأردن بعد يومين من تاريخ المحكمة.
- وقد رفضت القرار في بداية الأمر، إلا أنني اضطررت للتوقيع على قرارهم بعد أسبوع بناءً على نصائح المحامين بالموافقة على الإبعاد وإلا... سأبقى في السجن إلى ما شاء الله.
- نقلت إلى الأردن بتاريخ 1997/12/28م، إلا أن الأردن رفض استقبالي بحجة أنني فلسطيني وعائلي جميعها من فلسطين واعتبروا أن هذا إبعاد، والأردن لا يقبل مبعدين من فلسطين حسب ادعائهم.
- أرجعت إلى سجن الجلمة.. قدم المحامي بعدها طلباً إلى الطرف الإسرائيلي بإخلاء سبيلي وإرجاعي إلى أولادي وأهلي، الذين يقطنون

(1) تاريخ الاعتقال 1997/10/29 م .

مكان الاعتقال: بيت والدي - بلدة سيلة الحارثية - جنين .

* السجون التي تنقلت إليها بالترتيب : (سجن الجلمة ، سجن عسقلان ، سجن السبع بأقسامه ، سجن نفحة بأقسامها ، سجن مجدو ، سجن شطة قسم (7) وبالعكس) .

* آخر محطة في السجون قبل الإفراج : سجن نفحة قسم (11) وهي المحطة الأخيرة التي تم الإفراج عني منها .

* تاريخ الإفراج والإبعاد : 2009/05/26 م .

* مكان الإبعاد : قطاع غزة .

* مدة الاعتقال : 12 سنة .

* المحامي الأول: محمود شاهين .. من سخنين.

* المحامي الثاني: سناء الدويك .. من القدس.

في بلدة سيلة الحارثية - جنين - أو نقلي إلى أي مكان يخضع للسلطة الفلسطينية، إلا أن النيابة العامة رفضت الطلب خطياً بعد أكثر من شهرين من تقديمه.

- بعدها، اتجه المحامي نحو السفارة الأردنية في تل أبيب، لعله يحصل على إذن مسبق لدخولي إلى الأردن، وقد انتظر فترة لا تقل عن ستة أشهر، إلا أننا لم نتلق أي جواب مما دفعني للإضراب عن الطعام لمدة ثمانية أيام متتالية، تحت شعار "لماذا أنا هنا، لماذا أنا معتقل؟؟!!" ..
- تدخل بعدها المحامي محمود شاهين، وجلس مع إدارة سجن الجلمة، انتهى بفك الإضراب، على أمل أن تقوم إدارة سجن الجلمة بالمساعدة على حل مشكلتي بالسرعة الممكنة، وكان هذا في أواسط عام 1998م.
- بعدها بأسبوعين، توجهت نحو محكمة حيفا المركزية، إلا أن المحكمة حولت القضية إلى المحكمة العليا في القدس باعتبارها الجهة الوحيدة المخولة لحل هذا الموضوع حسب ادعائهم.
- في 1998/9/30م، اتصلت السفارة الأردنية بالمحامي والنيابة العامة وأبلغتهم أنه لا مانع لدى الأردن من استقبالي، وفعلاً تم نقلي إلى الأردن في اليوم التالي، إلا أنهم أعادوني إلى الجانب الإسرائيلي بنفس الحجة الأولى.
- بعدها زارني المحامي في الجلمة، وكان لديه طرحان.. إما أن يذهب المحامي بنفسه إلى الأردن لمعرفة قرار السلطات الأردنية، وإما أن يرفع القضية للمحكمة العليا مباشرة.

كان الرأي الأول هو الراجح عندنا، وفعلًا سافر المحامي للأردن وعلى حسابي الخاص، إلا أنه عاد بخفي حنين.

• سافر المحامي مرة أخرى إلى الأردن في محاولة ثانية، ولكن دون جدوى.

• في أواخر عام 1998 رفعت القضية للمحكمة العليا، وعقدت أول جلسة في 1999/02/17م انتهت بإمهالي ثلاثة أسابيع للبحث عن بلد يستقبلني باستثناء مناطق السلطة و(إسرائيل)، ولكن دون جدوى.

• عقدت جلسة ثانية في 1999/5/27م، انتهت بإعطاء مهلة للنياية (90) يوماً لحل مشكلتي، ثم أعطيت النياية مهلة أخرى مثلها، ثم مهلة ثالثة مثلها، نهائية إلى 1999/11/30م، وإلا ستتصرف المحكمة بطريقتها الخاصة.

• قررت النياية في نهاية هذه المهلة قراراً خلاصته: لا مانع لديها بأن يذهب الأسير إلى غزة، إن لم يجد بلداً يستقبله، إلا أن (هشام عبد الرازق) وزير الأسرى آنذاك رفض استقبالي في غزة وأصر بأن أرجع إلى قريتي وأولادي حتى لا تكون غزة منفى حسب ادعائه، مع أن غزة جزء من الوطن.

وبهذا رجعنا إلى نقطة الصفر والنقاش حول القضية من جديد، ومكتنا بعد رفض هشام للقرار عشر سنوات متتالية داخل سجون الاحتلال فضلاً عن سنتين سابقتين في سجن الجملة.

• في 2000/2/3م انعقدت جلسة للمحكمة العليا، انتهت بالتأجيل لمدة شهر، إلا أن الجلسة التي تلتها لم تتعقد إلا في الشهر الرابع من عام 2000م فرفضت الإبعاد حسب طريقتهم.

وفي هذا المقام، لا بد من التذكير بأن رئيس المحكمة العليا أهaron باراك، وقف في جلسة 2000/07/03 وقفة قوية أمام النيابة، وكان يصر ويؤكد على النيابة بأنه لا بد من إحضار ما يثبت من أدلة لتقديم الأسير للمحاكمة، أو السماح له بالذهاب إلى أي منطقة خاضعة للسلطة الفلسطينية، وفي المقابل كانت النيابة ترفض هذا الرأي رفضاً قاطعاً.

وانتهت الجلسة، بتوجيه سؤال للنيابة من قبل رئيس الجلسة: لماذا لم تقدموا لائحة اتهام للأسير؟ فكان الرد من النيابة، ها هو الملف بين أيديكم، فأجابها القضاة الثلاثة: لا يوجد في الملف كله بند واحد يقدم فيه للأسير لائحة اتهام.

• يذكر أن رئيس القضاة في كل الجلسات هو أهaron باراك، رئيس المحكمة العليا، وهو نفسه الذي رفض أن يوقع على الإبعاد، وتم تأجيل الجلسة إلى 2000/08/02م.

• بعد أن رفض أهaron باراك رئيس المحكمة العليا أن يوقع على الإبعاد، بُدِّلَ بقاضٍ آخر..

• في 2000/08/02 كانت الجلسة الأخيرة، وكنا نظن أن القرار سيكون لصالحنا، فكانت المفاجأة التي لم نكن نتوقعها؛ حيث وقف القضاء

كعادته مع النيابة وتذكروا لنا بحجة أنهم أطلعوا على ملف سري، وهذا كله ادعاء باطل يقصد منه إطالة مدة اعتقاله.

ومن هنا، صادقت المحكمة على طلب الشاباك بإبعادي من البلاد، إلا أنني رفضت القرار في حينه، فتركوا الباب مفتوحاً أمامي إلى حين موافقتي عليه، وقالوا: عندما توافق على الإبعاد تبليغنا.

• وفعلًا، بعد ستة أشهر من القرار اضطررت للموافقة على القرار تحت ضغط من بعض إخواني الأسرى، خاصة وقد اضطربت الأوضاع، واشتعلت الانتفاضة الثانية في 28/09/2000م، وحصل ما حصل في (11 سبتمبر)، فكان لا بد لي من أن أتقدم بكتاب طلب الموافقة على الخروج، وقد سلم الكتاب إلى مسئولة ملف الأسرى (أليزا) في إدارة سجن عسقلان بتاريخ 03/01/2001م.

• في 11/02/2001 زارني المحامي وأبلغته بقراري هذا، وفي اليوم الثاني قام بإبلاغ النيابة ووزارة العدل الإسرائيلية خطياً وتلقى جواباً منهم أنهم ينسقون مع الصليب الأحمر حول هذا الموضوع، وتبين فيما بعد أن كل الذي كان يجري إنما هو خداع وتملص من المسؤولية من قبل الإدارة بعد أن وضحه لنا الصليب الأحمر.

هذا؛ وقد أرسل المحامي فيما بعد رسائل إلى النواب العرب في الكنيسة وضح فيها مجريات الأمور بهذا الشأن.

• في 18/02/2001 أرسلت رسالة إلى الصليب الأحمر في تل أبيب، طالبت فيها بالتدخل لإنهاء مأساتي ومأساة الأولاد وأهلي.

عَقْدُ فِي جِفْنِ الرَّدَى

- في 20/02/2001 رفعت كتاباً آخر لمسئولة الأسرى (أليزا) في إدارة سجن عسقلان، تساءلت فيه عن سبب التأخير في الإجراءات الإسرائيلية بخصوص موضوعي، ولكن دون جدوى.
- في 12/02/2001 أرسلت رسائل للصليب الأحمر، ومحمد بركة والنواب العرب في الكنيسة الإسرائيلية، وألقتها برسالتين لهاشم محاميد ودهامشة في 21/02/2001م، طالبت في هذه الرسائل مساعدتي في إيجاد دولة تستقبلني، ولكنني لم أتلّق أي جواب يذكر، مع أنني أرسلت رسائل أخرى للنواب العرب في الكنيسة قبل أن تبت المحكمة بقرارها وقبل انعقادها في 02/08/2000م.
- في 08/03/2001م التقيت مع مسئولة الأسرى (أليزا) في إدارة سجن عسقلان مرة أخرى، وطلبت منها ما عرضته المحكمة عليّ في 03/02/2000م بأن أخرج إلى الخارج بطريقتي الخاصة ولم أتلّق أي رد.
- التقيت مع محامية مؤسسة الضمير سحر، وقد استمعت إليّ ووعدتني بالاتصال بجميع الأطراف مع المحامي محمود شاهين من سخنين، الذي حمل ملفي طيلة هذه الفترة، وهشام عبد الرازق وزير الأسرى آنذاك، وإدارة السجون، والصليب الأحمر، والسفارة الأردنية، إلا أنني لم أتلّق أي شيء.
- في 27/3/2001 التقينا مع مندوبة الصليب الأحمر، فأبلغتني على استحياء؛ بأن الصليب الأحمر لا يستطيع أن يتدخل، أو لا يستطيع أن

يساعدني في هذا الموضوع؛ لأنها عملية إبعاد، والصليب لا يوافق على الإبعاد؛ لأنه مخالف لاتفاقية جينيف الرابعة. وبالتالي، فإنّ ما جاء به الصليب الأحمر يعتبر شيئاً جديداً، لم يطرق مسامعي من قبل، ولا أدري لماذا بقي صامتاً طيلة الفترة السابقة حتى هذا اليوم؟؟

• في 2001/4/22، زارتنى مديرة الصليب الأحمر لدى الاحتلال الصهيوني السيدة (بريجيت) ومقرها في تل أبيب، فأكدت لي بكل صراحة أنّ الصليب لا يستطيع مساعدتك؛ لأنها عملية إبعاد، فقلت لها كيف تقولين هذا: وقرار المحكمة العليا قد ارتكز على أقوال الصليب، بأنّ الصليب على استعداد أن ينقلني إلى أي مكان، فتفاجأت من هذا الأمر، وأحضرت لها القرار وأعطيتها نسخة منه، فأخرجت من حقيبتها كتاباً آخر كان قد أرسل من قبل الصليب يرد فيه على قائد المنطقة الوسطى بأنه يرفض مساعدة الاحتلال في هذا الموضوع، وكان هذا في الشهر الثالث من عام 2000م، أي قبل المحكمة بخمسة أشهر، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن النيابة دلت على المحكمة وكذبت عليها.

• قام النائب العربي في الكنيست الصهيوني (هشام محاميد) بزيارة سجن عسقلان في 2001/4/23 م، أطلعته على تفاصيل موضوعي فوعد بالمساعدة، ثم تلتها زيارة أخرى لهشام عبد الرازق وزير الأسرى في السلطة الفلسطينية -آنذاك- ووعد بالاتصال بوزير الخارجية الأردني

بخصوص موضوعي، ولكن لم يحصل شيء، وهذا يتناقض مع قوله سابقاً أنه يرفض مبدأ الابعاد يوم أن رفض استقبالي في غزة.

• زارت عسقلان قائدة السجون الصهيونية، ورفعنا لها كتاباً، فوعدت أن تفعل شيئاً لموضوعي، وقد ناقشت الموضوع مع إدارة سجن عسقلان، ووعدت أن توصل هذا الموضوع إلى أعلى المستويات في الحكومة الإسرائيلية، وكانت هذه الزيارة في 2001/5/2 م.

• عادت محامية مؤسسة الضمير سحر في 2001/5/2م، ولم تأت بجديد.

• في 2001/5/29، التقيت مع مسئولة الأسرى في سجن عسقلان للمرة الثالثة، وقد اتصلت بالحال بنائبة مدير السجون الصهيونية، وكان جوابها كالتالي: إن مديرة السجون عمت على جميع من له علاقة بموضوعي في حكومة الاحتلال، وأعطتهم مهلة نهائية للبت في موضوعي، أقصاها 2001/6/10م؛ لأنها لا تقبل وضع سجين بهذه الحالة، إلا أننا لم نتلق رداً حتى بعد هذا التاريخ.

• في 2001/6/24م، أرسلت رسائل للنواب العرب في الكنيست الصهيوني: دهامشة، نواف مصالحة، محاميد، بركة، الطيبي، لمساعدتي، وكذلك وزير الدفاع الصهيوني، كل ذلك عبر إخواننا الأسرى، ولكن دون جدوى.

• تم إبلاغنا عن طريق إدارة سجن عسقلان أن قائد المنطقة الوسطى، أبلغهم بأنه تم التواصل مع الأردن، إلا أن الأردن رفض استقبالي، وأن

قائدة السجون الصهيونية أوصلت القضية إلى وزارة الخارجية الصهيونية، وأبلغتهم بأن هذا المعتقل يجب أن لا يبقى عندنا، وكان هذا في 2001/6/27.

- يذكر أننا بلغنا من قبل المسئول الأمني للسجون (قاباي)، أنه سيبقى على اتصال مع هشام عبد الرازق لتدارس الموضوع، وكان هذا في 2001/6/25، وأضاف قاباي: كان بإمكان هشام عبد الرازق أن يستقبله في غزة ثم يدخله إلى الضفة الغربية عبر سياراتهم. وأضاف مسئول الأمن: نحن نريد أن نتخلص من هذا الأسير بأي طريقة، وقد ضمت هذه الجلسة ممثل حماس في سجن عسقلان (زاهر جبارين) وممثل فتح (أبو الناجي).
- زارتني مندوبة الصليب الأحمر، وأبلغتني للمرة الأخيرة، بأن الصليب الأحمر ليس على استعداد لمساعدة الاحتلال في هذا الموضوع؛ لأن هذه العملية عملية إبعاد، والصليب ليس مستعداً لإبعاد الآخرين باعتبارها مخالفة لاتفاقية جنيف الرابعة، فطلبت منها كتاباً خطياً بهذا الشأن؛ لأن الصهاينة كلما سألناهم عن تحريك موضوعي، ادعوا بأن الصليب يشغل على موضوعي، وفعلاً وصلني كتاب من الصليب في هذا الشأن بتاريخ 2001/7/26م.
- في 2001/7/11م، تم إرسال رسالة إلى قائدة السجون الصهيونية، أعلمناها أن الصليب الأحمر أكد أنه ليس على استعداد أن يتدخل في موضوعي.

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

• في 2001/7/12م، أبلغنا عبر مسؤول الأمن في سجن عسقلان (قاباي) بأنهم عجزوا عن إيجاد بلد لإبعادي إليه، خاصة بعد أن وصلت هذه القضية إلى أعلى المستويات، فأكد أن القضية عادت مرة أخرى إلى المستشار القانوني. ومن جهة أخرى، اتصلت إدارة سجن عسقلان بالصليب الأحمر، وتأكدت بنفسها أن الصليب الأحمر يرفض التدخل في قضيتي حول موضوع عملية الأبعاد..

وأخيراً: كنا قد ذكرنا سابقاً أننا أرسلنا إحدى عشرة رسالة بتواريخها⁽¹⁾ إلى كل من يختص بموضوعي من الصهاينة، كتبها الأخ الحبيب (يحيى السنوار)، وكان لبعضها الدور الكبير في إنهاء مأساتي، خاصة المراسلة التي تتعلق بالمحكمة العليا، وقد اشتغلت المحامية على هذا الموضوع بشكل جيد.

وبالتالي، حتى لا تذهب القضية إلى المحكمة العليا أصرت النيابة أن تعمل صفقة مع المحامية (سناء الدويك) انتهت بأبعادي إلى قطاع غزة بتاريخ 2009/05/26م.

1 (يمكن للقارئ الاطلاع على تفاصيل هذه الرسائل بالعودة لصفحة رقم (247) من هذا الكتاب.

- ولد في قرية السيلة الحارثية قضاء جنين عام 1957م.
- متزوج وله سبعة من الأبناء، بعضهم يعيش في القرية نفسها حالياً.
- درج على أرضها، ودرس في مدارسها الابتدائية والإعدادية والثانوية.
- غادر البلاد عام 1979م بقصد العمل في السعودية بمهنة مراقب موظفين في شركة الراشد للتجارة والمقاولات في الرياض.
- التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومعاهدها بالرياض عام 1980م، ونال شهادة البكالوريوس من كلية أصول الدين في الرياض عام 1985م.
- نال شهادة الماجستير من جامعة بيشاور في باكستان في الدراسات الإسلامية عام 1988م، ودرّس كمحاضر في جامعة الدعوة والجهاد ومعهد الأنصار العلمي هناك.
- عاش بين أحضان الحركة الإسلامية، ورضع من لبنائها، والتقى مع خيرة علمائها.
- عاش بجوار خاله الشهيد الدكتور عبد الله عزام سنوات عديدة، مما ترك أثراً بارزاً على شخصيته ونفسيته وسلوكه.
- عمل مديراً لمكتب الشيخ د. عبد الله عزام إلى أن لقي الله شهيداً.
- عمل مع بعض الإخوة على تجميع ما يتعلق بكل ما قاله وكتبه الشهيد عبد الله عزام، وما قيل فيه وما كُتب عنه في فترة زمنية تجاوزت الثماني سنوات، من خلال مركز الشهيد عزام الإعلامي، الذي كان على رأسه

في مدينة بيشاور الباكستانية ما بين عام 1990م حتى أواخر عام 1997م.

• عاد إلى البلاد أواخر عام 1997م ليستقر في بلده جنين، إلا أن الاحتلال الإسرائيلي لم يمهله كثيراً، فقام باعتقاله بعد عشرين يوماً من وصوله أرض الوطن في 1997/10/29م، وبقي رهن الاعتقال دون تقديم لائحة اتهام له، وهي حالة فريدة من نوعها داخل السجون الصهيونية.

• بقي داخل السجون الصهيونية حتى عام 2009م، ويرجع ذلك كله إلى عملية انتقامية شخصية بتوصية من المخابرات وعلى رأسهم المحقق الصهيوني أبو منير.

• انتهى وضعه بصفقة أبرمت بين المحامية والنيابة تم بموجبها إبعاده إلى قطاع غزة في 2009/5/26م.

• استقر به المقام في مدينة غزة مع جزء من عائلته.

• كُلف من قبل وزارة الأسرى والمحربين خلال فترة عمله فيها، بتأسيس برنامج التعليم الجامعي للأسرى داخل سجون الاحتلال عام 2009م، بالتعاون مع بعض الإخوة من ذوي الشأن والاختصاص في عهد وزير الأسرى المستشار/أ. محمد فرج الغول.

• شغل منصب مدير عام مديرية العمليات المركزية بوزارة الداخلية، عام 2011م.

- شغل منصب رئيس هيئة التوجيه السياسي والمعنوي بوزارة الداخلية، منذ بداية عام 2012م حتى التقاعد نهاية عام 2017م.
- يشغل عضواً في مجلس إدارة جمعية واعد للأسرى والمحربين منذ عام 2012م، ولا يزال حتى الآن.
- صدر للكاتب والمؤلف الكتب التالية:
 - كتاب: من الأعماق (نبضات وأحاسيس من أعماق حبيس)، عام 2010م.
 - كتاب: شيخي الذي عرفت (الشهيد د. عبد الله عزام)، 2012م.
 - كتاب: قطوف من أعماق التجربة التربوية والفكرية للشهيد د. عبد الله يوسف عزام، عام 2016م.
 - كتاب: محطات تاريخية للشهيد د. عبد الله يوسف عزام، عام 2019م.
- فضلاً عن الكتيبات الصغيرة التي أعدها للدكتور عبد الله عزام، مثل:
 - لماذا نجاهد؟
 - الانتفاضة وفلسطين.
 - خمسون رسالة في ذكراه.. الأجزاء 1، 2 (صدرت في ذكرى استشهاد د. عبد الله عزام).

هذا الكتاب

تناول هذا الكتاب:

- ❖ معاناة إنسان، ابتدأت قصته من عودته إلى أرض وطنه، ومروراً بمرحلة اعتقاله، وانتهاء بمرحلة إبعاده عن مسقط رأسه..
- ❖ رحلة من الرحلات الشاقة، رسمت فيها رسماً بيانياً متسلسلاً حسب المكان والزمان، لأغرب قصة على مستوى معتقلات الاحتلال الصهيوني، التي دامت إثني عشر عاماً..
- ❖ معاناة أسير تعتبر نموذجاً من النماذج في المعاناة لكل أسير، من أسرى الشعب الفلسطيني، على يد الاحتلال الصهيوني البغيض..
- ❖ اختص هذا الكتاب بتجربة شخصية، وكنت أتمنى أن يكون عندي بعض المعلومات حتى أكتب عن غيري..
- ف هناك أسيرات، وهناك أشبال، وهناك عائلات كاملة عانت ولا تزال تعاني، بعد أن استيقظت في يوم من الأيام، وإذ بها في أعماق المعتقلات، كعائلة القواسمي وأبو الهيجاء وسعيد بلال، وغيرها من العائلات التي تضرب نموذجاً للعائلات الفلسطينية المضحية الصابرة المحتسبة..
- أتمنى أن تلقى هذه العائلات أيدي أمينة، وقلماً صادقاً يعبر عن هذه المعاناة..

المؤلف / أ. محمود سعيد عزام

غزة - الشاطئ 2020/12/01م

فهرس الكتاب

1	إهداء
3	تقريظ
8	مقدمة
15	قصة ولا في الأحلام
20	دوافع العودة.. شوق وحنين
21	أنين غربتي.. وحنين بلدي
24	القرار.. نحو الوطن
26	لا غربّة بعد اليوم...!!
28	بداية العودة...!!
29	فرحة لم تكتمل...!!
35	البداية... خلف القضبان!!
36	ليلة الاعتقال
41	بطن الحوت.. والمصير المجهول!!
44	في التحقيق وجهاً لوجه
49	في غياهب الأقبية
54	وسقط الرهان في بطن الحوت
59	ما بعد الأقبية
74	المقام في معبار الجملة وما تلاه من أحداث
75	المقام في المعبار
76	الطريق نحو الأردن قسراً
77	شجار... انتهى بي المقام مرة أخرى في المعبار
78	الخطوة اللاحقة

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

- 79 الأسير والضغط النفسي
- 82 الخطوة الاضطرارية
- 85 الإضراب يتواصل لأيام ثمانية
- 87 زيارة الأهل بعد الإضراب
- 88 محكمة حيفا المركزية
- 89 إلى الأردن مرة أخرى
- 92 الإضراب مرة ثانية والصيد في الماء العكر
- 96 إلى المحكمة العليا في القدس
- 97 مواقف في معبار الجلطة عام 1999م
- 98 تعارفي بالأسيرين خويلد ونزار رمضان
- 100 بأمثال هؤلاء الشباب نرزق وننتصر
- 103 محاولة هروب الأسيرين خويلد ونزار رمضان
- 108 خويلد يقضى العيد في الزنزانة
- 110 حوار مع إدارة السجون
- 115 أنتم لستم في فندق !!
- 116 مواقف مع العصافير
- 123 إنه يوم حزين... إنه يوم صعب... !!
- 127 صدمة بعد صدمة
- 128 مواقف إنسانية
- 129 مواقف حياتية مع الأهل
- 132 ضغوط نفسية
- 134 نظرة الجنائيين تجاهنا
- 136 ما بعد معبار سجن الجلطة
- 137 إلى سجن عسقلان

عَقْدُ فِي جِفنِ الرَّدَى

- 138 الانتقال تحت الضغوط
- 139 رمضان في سجن عسقلان
- 140 وقفة.. قبل مغادرتي عسقلان نحو نفحة
- 141 إلى سجن نفحة
- 142 موقف مهم في سجن نفحة أوائل الألفية الثانية
- 144 المفاجأة في عسقلان
- 146 تأجيل تلو التأجيل
- 147 القرار بين يدي وزير الأسرى
- 149 رفض الإبعاد على طريقتهم
- 150 دفع الثمن.. بدون أثمان...!!
- 153 أربع إضرابات (فردية وجماعية) خلال عقد من الزمان
- 155 مفاجأة أخرى
- 156 قرار الإبعاد وما تلاه**
- 157 قرار الإبعاد وموقفان مهمان
- 159 مشاعر تزاحمت عليّ بعد قرار المحكمة النهائي
- 162 بكاء الوالدة حرق قلبي
- 162 موقفي.. ما بين الوالدة وما بين الزوجة والأولاد أثناء القرار
- 163 ما بعد قرار المحكمة النهائي
- 169 أحداث جسيمة ما بعد قرار المحكمة العليا النهائي
- 171 خلاصة عملية هروب عسقلان للرشق ونزار رمضان
- 175 إيه يا عسقلان!!
- 178 مسائل مهمة حول هروب الأسير كحق من حقوقه
- 179 الجواب الأصعب.. للسؤال الصعب...!!
- 184 خواطر في سجن بئر السبع أوائل عام 2004م**

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

- 185 السبع ثَمناً لعسقلان
- 187 حرمان من الحنان...!!
- 192 لحظة صمت
- 196 وغاب الطود الشامخ
- 198 قصة مثيرة في التحول المفاجئ
- 200 أذكىء.. وجدوا أنفسهم وفرصتهم داخل المعتقلات
- 205 قضايا حصلت أثناء تواجدي في سجن بئر السبع**
- 206 تأسيس الهيئة العليا لأسرى حماس في سجون الاحتلال
- 209 نقاش حول الدخول في المجلس التشريعي
- 212 مقترح لتأسيس جماعة إسلامية في سجن السبع
- 213 إضراب 2004م في سجن بئر السبع وأثره عليّ شخصياً
- 221 النقاش حول النطف المهربة (سفراء الحرية)
- 224 مبدأ التخيير
- 227 من سجن مجدو إلى سجن شطة عام 2006م**
- 228 دمعات ساخنة...!!
- 232 إصرار على التحوّل
- 233 تفاوت مواقف الأسرى من الحسم العسكري عام 2007م
- 235 سيرة الشهيد عبد الله عزام داخل سجون الاحتلال
- 236 حرب الفرقان وما أثارت من أحزان
- 238 شعاع نور في نهاية النفق
- 241 إلى المحطة الأخيرة في سجن نفحة**
- 242 وقف بث قناة الجزيرة
- 243 أجواء إيمانية متميزة

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدِّ

244	مواقف مخزية وتصرفات لا وطنية
245	سيرة الشهيد عبد الله عزام والوداع الأخير
247	في أحضان غزة العزة
248	رسائل من أعماق الأسر
250	رسالة إلى والدي الحبيب وأمي الحبيبة
258	رسالة إلى زوجتي وأبنائي
271	رسالة من والد إلى ولده في محبسه
276	رد معتقل على رسالة والده
282	رد على رسالة الطفل (قتيبة)
285	رسالة وداع إلى الأسير المفرج عنه (مصطفى ملحم)
287	رسالة إلى الأسير المفرج عنه (علاء أبو خضر)
290	نصائح وتوجيهات للأسير (أدهم الشولي)
292	ثلاثتهم بالذات !!
294	الخاتمة
295	صورة مصغرة عن مراحل الأسر في سجون الاحتلال
301	ملخص قضيتي
311	السيرة الذاتية للمؤلف
314	هذا الكتاب
315	فهرس الكتاب

عَقْدُ فِي جَفْنِ الرَّدَى

تَشْجِيلُ اللَّهِ

مَحْفُوظٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ

للتواصل مع الكاتب والمؤلف

عبر تطبيق الواتساب

+972594567055